جورج فوشيه

جمال عبد الناصر في طريق الثورة

جورج ڤوشيه

جمال عبد الناصر

في طريق الثورة

تعريب

نجدة هاجر
دبلوم في العلوم السياسية

سعيد الغز
مجاز في الجغرافيا

منشورات المكتب التجاري - بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، آذار (مارس) ١٩٦٠

توطئة

صدر خـلال السنوات الثلاث المنصرمة ، بعد هزيمة الدولتين الغربيتين الكبيرتين بريطانية وفرنسة ، في حملة السويس التي كانت نقطة تحـول خطير في تاريخ الشرق الاوسط كتبٌ كثيرةٌ باللغة العربية واللغتين الفرنسية والانجليزية عن الرئيس جمال عبد الناصر الرجل الملهم الذي قاد السفينة العربية عبر الاعاصير والانواء الى شاطىء الظفر والمجد والكرامة .

ولا يمكننا مطلقاً ان نبخسَ هؤلاء المؤلفين من عرب واجانب الذين بذلوا كل جهد مستطاع مؤلفاتهم . فقد درسوا وحققوا ونقبوا ، ما سنحت لهم الامكانات والظروف وادّوا واجبهم نحو الحق كاملاً غير منقوص ؟

الاّ انّه على الرغم من غزارة تلك الكتب وتدفّقها فانّه كان ينقصُ تاريخَ الشرق العربي الحديث ، لا سيما تاريخ مصر عقب الحرب العالمية الاولى حتى عصرنا الحاضر ، كتابٌ يدرس هذه الحقبة بموضوعية المؤرخ العالم المدّقق ، هذه الموضوعية التي لا بد منها حتى يفهم المواطنُ فهماً شاملاً دقائق العصر والبيئة اللذين انجبا الزعيم الثوري البناء جمال عبد الناصر . لذلك ما كادت مطابعُ الغرب تفرغُ من طبع هذا الكتاب

« جمال عبد الناصر ورفاقه » لمؤلفه جورج فوشيه الذي تناول في دراسته الموضوع من الزاوية التي ننشدها ونفتقر اليها حتى أشرعنا اقلامنا وبدأنا تعريبه لنضعه بين ايدي اخواننا المواطنين العرب ، في اقرب وقت ممكن ، مختارين له اسماً جديداً هو « جمال عبد الناصر في طريق الثورة » ، كان في رأينا أدلّ على الهدف واكثر انطباقاً على الغاية ، فنؤدي نزراً من الواجب نحو التاريخ والقومية العربية النامية .

ان جورج فوشيه مؤلف هذا الكتاب مواطنٌ سويسري يتمتع بكفاءات علمية عالية . وقد تولى خلال ربع قرن او اكثر رئاسة اللجنة الدولية للصليب الاحمر في ارض الكنانة ممّا اتاح له ان يُقيم فيها نحواً من ثلاثين عاماً . وهو حالياً متقاعدٌ يسكن مع عائلته دارةً بناها لنفسه في الجيزة قرب الاهرام . ولذلك نستطيعُ القول جازمين انه قد عاش الاحداث التي سطّرها في كتابه وخبرها بنفسه ؛ الامر الذي لم يتسنّ لسواه من الكتاب السياسيين ؛ كما انه حلّلها وعلق عليها بتجرد ونزاهة قلّ وجودهما لدى الغربيين . ولعلّ المهمة الانسانية التي حملها على منكبيه والمواطنية السويسرية المعروفة بالحياد التي ينتسب اليها ، كانتا له معوانين امينين على توليد هذا الاثر الفريد الذي دفع به الى المكتبة التاريخية في فترة كثرت فيها الكتب الرخيصة .

انه من العسير علينا غاية العسر في توطئة موجزة كهذه ان نُقدّمَ لكَ ايها القارىء العزيز ملخصاً لهذا الكتاب ؛ بل نخشى ايضاً اذا فعلنا ذلك ان نشوّه روعته ونفقده قيمته . ولكن مع ذلك ومهما يكن فلا بأس عليك وعلينا وعلى المؤلف من ان نوجزه قدر ما تمكننا الكلمات بمدلولاتها عن ذلك :

يبدأ فوشيه كتابه بلمحة عابرة عن اصول سكان مصر وتركيبها العنصري البشري ، ثمّ ينتقل بنا الى دراسة اوضاع الريف المصري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما وُلد عبد الناصر حسين والدُ

القائد المرتقب ؛ فيصف لنا حالة بلده بني مر موطن عائلة سلطان التي ينتسب اليها جمال عبد الناصر . واثر ذلك يتسلم المؤلف الزعيم الوليد ويسير بنا معه طفلاً وفتى يافعاً وتلميذاً ثانوياً وطالباً في الكلية الحربية ، من بني مر الى الاسكندرية الى الخطاطبه الى اسيوط الى القاهرة ؛ ويحلل جميع العوامل التي تآلفت وكونت الشخصية الناصرية. وهو في هذا القسم عالم نفسي ومؤرخ ندر مثيله ، ومن ثم يتعقب فيما تبقى من الكتاب الضابط جمال عبد الناصر في جميع مراحله من معسكر منقباد حيث الّف مع زميله وصديقه واخيه في النضال عبد الحكيم عامر اولى خلايا منظمة الضباط الاحرار الى السودان الى فلسطين واخيراً الى القاهرة عقب الكارثة الفلسطينية التي كان لها ابلغ الاثر في نفسه حتى نقلاب الثالث والعشرين من تموز .

ان كتاب «جمال عبد الناصر في طريق الثورة» – كما سميناه – هذا الكتاب الذي يُمكنُ اعتباره بحق افضلَ مرجعٍ يعيّن لنا دورَ كل من الضباط الاحرار في ثورة مصر على الفساد والرجعية والطغيان سفرٌ تاريخيّ نفيسٌ، لا غنى للمواطن العربي عنه ، لانه صورةٌ كاملة للثورة البناءة ، التي حاك جمالُ عبد الناصر خيوطها مع زملائه باناة وصبر وشجاعة متجاوباً مع بيئته المتحفّزة معبراً عن اماني شعبه في الحرية والوحدة والتقدم.

واذا كان جمال عبد الناصر هذا الرجل العربي الذي ضرب له القدر موعداً مع منتصف القرن العشرين لتبوء سدة القيادة ليس في حاجة الى كتاب يخلده ؛ فأن هذا الكتاب الذي دبّجته يراعةُ اجنبي قد جاء برهاناً ساطعاً من الغرب على بطولة جمال وعبقريته ودليلاً قاطعاً على ثبات شعب جمال في كفاحه مل اجل امانيه الوطنية السامية .

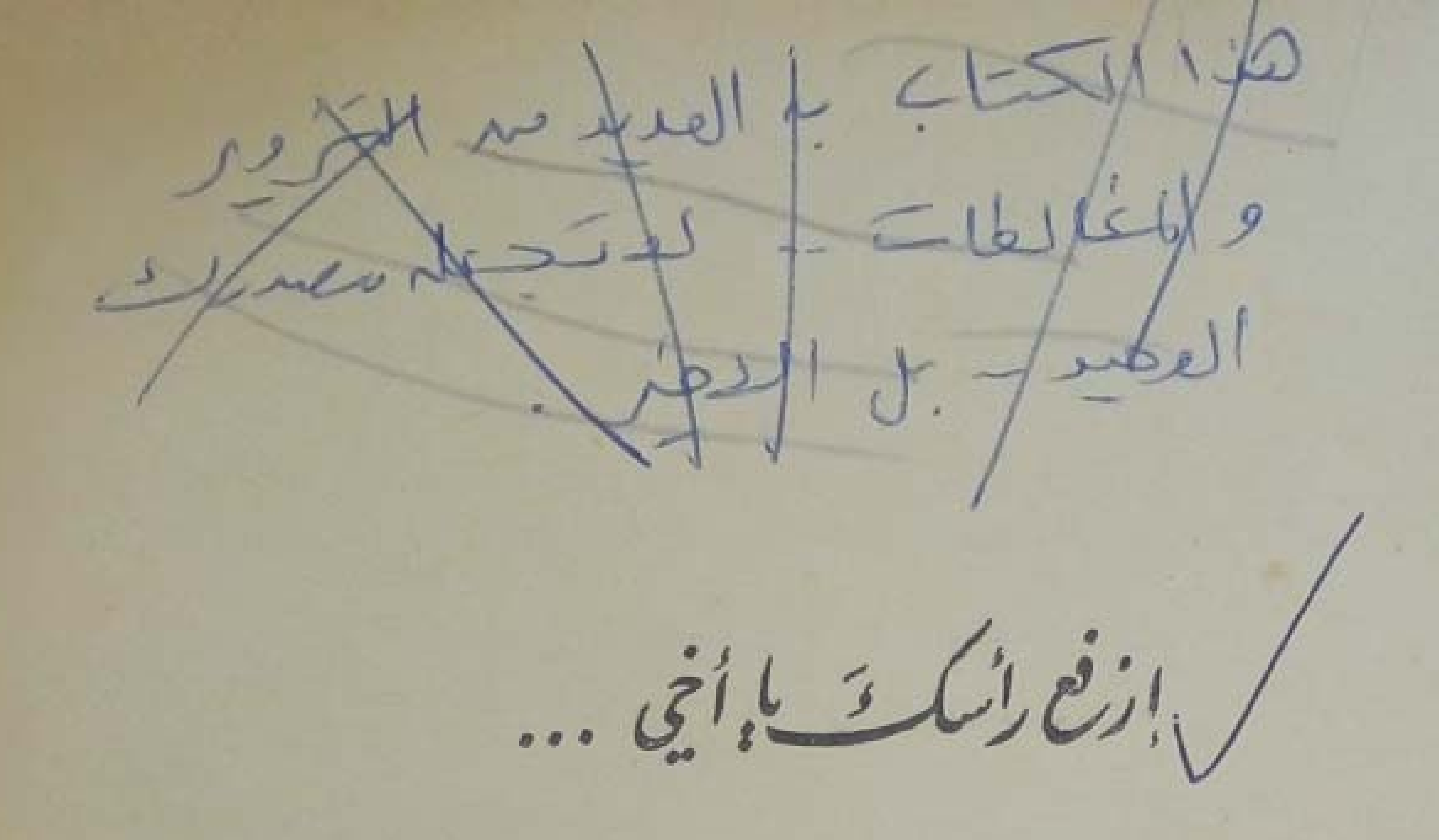
وجورج فوشيه في كتابه هذا اذا لم يخلق ويولّد شيئاً جديداً بالنسبة للقومية العربية فانه بما جمعه ونسّقه وحلّاه وعلق عليه قد اعطانا نحن العرب بكتابه زيتاً نوشّي به الصورةَ العربيةَ الخالدة ، فيمنحها

الزهو والتجدّد في مجالات العزة بين الامم والشعوب ؛

فشكراً له لانه كتَب وأجاد ، فسدّد واجبه كانسان نحو فريق لا يستهان به من المجموعة البشرية هو الشعب العربي الخـالد بدراسة سيرة زعيمه وقائده ؛

ولنحمد الله نحن العرب لاننا أصبحنا بفضل جهالنا ونضالنا ، في نطاقِ الكم والكيف ممن يهتّم بهم رجالُ الفكر والتاريخ ؛

في ٢٥-٢-١٩٦٠ المعرّبان



ارفع رأسك يا أخي ...

أينما سرت في شوارع القاهرة سنة ١٩٥٤ وجدت مئات من اللافتات الحمراء تعلن بلغة عربية بليغة هذا الشعار المثير المؤثر :

« ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد »

والأجنبي الذي ترجمت له هـذه العبارة تساءل بدهشة « وأي استعباد ؟ ... »

بل ان كثيرين من المصريين ، من ارستقراطيين وبورجوازيين وبعض صغار القوم ممن عاشوا فى خدمة الطبقة الميسورة قالوا بصوت خافت : « رحم الله ايام الباشاوات والعملاء البريطانيين الكرام الذين لم يكن للقرش قيمة عندهم ، لقد كنا فخورين بتعاملنا معهم ولم نشعرْ بالذل مطلقاً في خدمتهم . » الا ان احتلال الجيوش الانكليزية لقسم من الاراضي المصرية ، والحكم الاستبدادي للأسرة الملكية الغريبة ، والطبقة الاقطاعية الشرهة التي تعودت ان تستغل الفلاح ، كل ذلك كان يشكل بالنسبة للوطنيين المصريين ، لا سيما الشباب منهم نظاماً مخزياً محفوفاً بالعار :

والذي كان يؤلم الاحرار انه بعد مراس طويل وصبر لا حدود له دام الاف السنين كانت جماهير الريفيين المصريين اعجز من ان تتسلم زمام المبادرة للقيام بثورة منظمة :

لقد حصل بالفعل سنة ١٩٥١ بعض المناوشات في الاقطاعات الملكية والأميرية وفي املاك بعض كبار الوفديين ولكنها اخمدت جميعها بالقوة وأبسط تحسين في حالة الفلاح كان كافياً لأسكاته وجعله يقبّل الأرض شاكراً .

وكذلك العمال كانوا شبه راضين ، لان السياسة الاجتماعية للوفد والقصر كانت قد رفعت اجورهم قليلاً ، والدعاوة الشيوعية لم تلق تجاوباً الا عند فئة صغيرة من الناقمين اذ كانت تقوم على اكتاف بعض المثقفين الاجانب من يهود ويونانيين ، وبقيت بين ايدي منظمين نقابيين من السهل جداً مراقبتهم . وانفجار السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ يوم حريق القاهرة ادّى الى توقيف كبار القادة النقابيين واشدهم عنفاً ، وفي هذا المجال ايضاً لم يكن هناك أيّ ضغط ثوري يُوجّه بتنظيم ضد العهد والملك ...

في كتاب « ثورة على ضفاف النيل » كتب السيد انور السادات أحد الضباط الاحرار يقول :

« كي تحدث ثورةٌ ما . يجب ان يكون هناك طبقةٌ بروليتارية ناقة ، وجهاز مركزي موجه قادر على ان يدير العمل ، وفرصة مناسبة » .
وهو يعتقد ان الشرطين الاولين قد تحققا في مصر منذ قيام حركة الضباط الاحرار سنة ١٩٣٨ ، ولم يبق الا انتظار الفرصة المناسبة ، هذه الفرصة التي تحققت سنة ١٩٥٢ .

ان هذا التفسير تفسير ماركس للتاريخ وهو لا ينطبق مطلقاً على واقع الثورة المصرية ، لأن عمّال القاهرة والاسكندرية لم يلعبوا اي دور في انقلاب الثالث والعشرين من تموز ، الذي كان حركة عسكرية ، اعدها وقام بتنفيذها الضباط وحدهم ، ولم يشارك فيها الجنود الا في اعتقال كبار الضباط من الاركان العامة ، ثم في احتلال القصور الملكية في الاسكندرية ، وذلك تنفيذاً لأوامر رؤسائهم المباشرين ، دون ان

يكون لديهم أي شيء من روح المبادرة ، ودون ان يكون عندهم أي علم مسبق بذلك ، أو حتى دون ان يؤخذ رأيهم فيما أُسند اليهم من أعمال ...

واولئك الذين كانوا يتطلعون الى غير تحسين اوضاعهم الخاصة الشخصية بين المثقفين كانوا قلائل ، بين الضباط كان هناك حلقة صغيرة جداً من الناقمين . وهذه وحدها هي التي كانت قد اقتنعت بان تقلب النظام الاجتماعي القائم ، لتستبدل بالملكية المتداعية جمهورية اشتراكية ، تكون مركز الثقل في اتحاد واسع يضم الدول العربية .

واللواء محمد نجيب يتحدث في مذكراته ، التي ظهرت في لندن سنة ١٩٥٥ عن طريقة انضمامه الى حركة الضباط الاحرار السرية سنة ١٩٤٩ حيث لم يتصل الا بخمسة من تسعة اعضاء في اللجنة التنفيذية ، ويوضح كيف انه بعد حريق القاهرة في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩٥٢ شعر مع اخوانه بان ساعة الصفر قد اقتربت ، فعرض عليه جمال عبد الناصر ان يتنازل له عن منصب رئاسة الحركة ، وكان قبل ذلك قد عرض نفس المنصب على اللواء فؤاد صادق الذي كان قائد العمليات الحربية في فلسطين ، ولكن فؤاد صادق رفض هذا المنصب خوفاً منه على مركزه ثم يقول ... « هكذا اصبحت انا رئيس حركة الضباط الأحرار مكانه . ولو كنت انا شخصاً معروفاً اشغل منصباً هاماً كما كان فؤاد صادق بعد حرب فلسطين ، لخالجني انا الآخر رفض هذا العرض »

لقد كان محمد نجيب هذا القائد الشجاع الذي يحمل آثار الحرب على وجهه خير ضابط بين الضباط المصريين ذوي الرتب العالية ، وكان يُفرض فيه ان يبدو كأنه القائد الاعلى للثورة ، ومع ذلك ظل عضواً مؤيداً أو عضواً فخرياً على الأصح ، في حركة الضباط الأحرار ، ولو عُين رئيساً للاركان العامة كما عُرض على فؤاد صادق او لمنصب معادل ، لكان موقفه مشابهاً لموقف زميله ، لانه لم يكن لديه الاندفاع

الوطني والايمان الراسخ بالدور الكبير الذي عليه ان يلعبه ، والذي يقضي بان يضحي القائد بكل قواه ووقته ، طيلة سنوات ، لتحضير انقلاب وانتظار الفرصة المناسبة لتنفيذه :

ولو درسنا صفات الاحد عشر ضابطاً الذين يشكلون الهيئة التنفيذية وشخصياتهم ، لوجدنا بينهم الوطنيين المتطرفين امثـال أنور السادات وصلاح سالم ، اللذيْن كانا مستعديْن لنسف السفارة البريطانية ، واعدام كل من يعتبر خائناً ، ولوجدنا ايضاً خارقي الذكاء ، أمثال جمال سالم الطيار الذي نفذ باطراد وعناد الاصلاح الزراعي ، وعبد اللطيف البغدادي قائد السرب الذي اصبح فيما بعد بطل المشروعات الجريئة في حقـل التنظيم البلدي ورئيس الهيئة العليا للتخطيط والانماء الاقتصادي ...

ان أنور السادات رجلٌ مخلص وعنيد وهو أحسن من يقوم بمهمة الرجل الثاني ، الا انه ليس ذلك المجدد الذى يمكنه ان يصلح الدولة والبلاد ، وصلاح سالم قائد تميز بشجاعة نادرة في فلسطين ، غير انه برهن في السودان وعلى رأس وزارة الارشاد القومي ، انه تنقصه الروح الدبلوماسية ، وقوة العزيمة الضروريتان للزعيم السياسي .

وفي شباط سنة ١٩٥٤ لما اشتدت الازمة بين اللواء محمد نجيب واعضاء مجلس الثورة ، صرح صلاح سالم علناً بأنه وصل الى حالة من الغيظ شديدة ، حتى انه اعترف قائلاً :

« لقد احسست بأنه لم يعُد في امكاني الاحتمال والسيطرة على أعصابي فتوجهت الى السجن الحربي في باب الحديد واقفلت على نفسي في احدى غُرفه في انتظار ان يمن عليّ الله بالفرج وهدوء الاعصاب ، وفي المساء عادني رفاقي الضباط ، وطلبوا اليّ ان اصمد . »

أما أخوه الاكبر جمال سالم فقد كان ديناميكياً كثير الحركة بالـغ العنف ، وأجاد بصبر حياكة الشبكة التي اطبقت عـلى الملك والاغنياء الفاسدين ، الا انه كان قد تعرض لحادث طيران ترك في رأسه جرحاً

بالغاً مما يسبب له نوبات عصبية تفقده ، فجأة ، كل امكانية للعمل .

وعبداللطيف البغدادي بدوره ايضاً ضابط شجاع واداري ناجح ، وقد عرف كيف يرئس بحزم محكمة الثورة ، ثم مجلس الامة من بعد ، ولكنه ليس مؤهلاً ليكون الرئيس الاعلى الذي يهيمن برأيه على رفاقه ، دون ان يلقى مقاومة .

ان الرأس المدبر للثورة المصرية ، ذلك الذي أنشأ المنظّمة السرية للضباط الاحرار خليّةً ، خليةً ، والذي أعدّ خلال سنوات طوال خطة انقلاب سنة ١٩٥٢ وأمر بتنفيذها في الثالث والعشرين من تموز ، انما هو البكباشي جمال عبدالناصر .

وكلما تعمقنا في دراسة تطور فكرة الثورة في الجيش المصري ؛ واذا تتبعنا المراحل التي مرت بها مصر من الملكية الى الجمهورية الاشتراكية ، لاحظنا ان ارادةً حديدية لا تلين كانت توجه الثوريين وتستفيد من الاحداث الطارئة لتحقيق أهداف مدروسة سابقاً ، ان هذه الارادة وتلك النزعة الثورية ، انما هي ردّ فعل للذل الذي تعرّض له في الاسكندرية والقاهرة ، الطالب جمال عبد الناصر ، من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٣٥ ، والمهانة القاسية التي عاناها كطالب في المدرسة الحربية ، وضابط في منقباد والسودان ، وقائد مخذول في حرب فلسطين .

ان السبب العميق للثورة المصرية يكمُن في كرامة شخصية مجروحة ، وعزة وطنية مهانة . انه أكثرُ من مطلب سياسي أو بؤس شعبي ، انه روحُ جمال عبد الناصر بالذات تلك التي كانت تنطق بها مئات اليافطات سنة ١٩٥٤ ، عندما كان الانجليز يجلون بجيوشهم عن مصر : ارفع رأسك يا اخي فقد مضى عهد الاستعباد .

لذلك لا بدّ اذا أردنا ان نفهمَ الثورة المصرية فهماً شاملاً جيداً من ان نستقصي لنعرف كيف تكوّنت الشخصية التي كُتب لها ان توجّه مصر وتطلق بحماسة زائدة حركة القومية العربية ، وتنازل بعناد واصرار

الدول الكبرى التي تتناقضُ مصالحها المنتشرة في انحاء العالم مع الوثبة العربية ، وسنرى بعد ذلك ان الضباط والمدنيين الذين يتعاونون معه يشكلون فريقاً مهمته تنفيذ مخططات القائد وتصاميمه ، وهو لهذا السبب يتلقى باستمرار دماً جديداً ويخضع للتطعيم والتشذيب ليكون في مستوى المهمة الملقاة على عاتقه :

ان أعوان عبدالناصر من مصريين وعرب ضروريون لتحقيق مُثل الجيل الشاب التي لا خلاف عليها ، والنقاش فيما بينهم لا يتعدى طرق التنفيذ والفروع الى الاصول والجوهر .

نحن لك يا
عبد الناصر
بالروح
بالقلب
بالدم
بكل شيء

قرية صغيرة خاملة

ولد عبد الناصر حسين ، والد جمال عبد الناصر ، سنة ١٨٨٨ في قرية بني مر ، على مسافة اربعة كيلومترات الى الشمال الشرقي من أسيوط .

انها اليوم قرية تضم خمسة آلاف نسمة ، بينهم ثلاثة آلاف وخمسمائة مسلم ، والف وخمسمائة مسيحي . فيها ترتفع اشجار النخيل بسعفها المخضرة الغبراء فوق أكواخ الطوب ، والعائلات الميسورة وحدها تسكن بيوتاً من القرميد الاحمر او الحجر الكلسي .

تزهو بني مر اليوم بمساجدها الثلاثة وكنيستها القبطية ، ومدرستها الابتدائية ، وجمعيتها التعاونية ووحدتها الصحية . ومثل جميع القرى المصرية تُفيق اليوم على الحياة الحديثة . لقد كانت الحياة فيها أكثر بدائية قبل سبعين سنة ، ولم يكن هناك مدرسة ، لا رسمية ولا خاصة . وحاكم أسيوط ، او مدير ناحية ابنوب ، التي تضم بني مر ، كانا لا يذكران هذه القرية الصغيرة النائية الا عند جباية الضرائب . والخدمة العسكرية كانت لا تُصيب الا عدداً ضئيلاً من الشبان ، لأنه على أثر ثورة عرابي والاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ كان الجيش المصري سُرّح ، ثم أعيد تشكيله على نطاق صغير باشراف ضباط بريطانيين .

ويمكننا الآن ان نتساءل : هل كان فلاحو بني مر أسوأ حالاً مما

هم عليه الآن ؟؟

ان النقص في الارض كان أقل ضراوة مما هو عليه في عصرنا الحاضر ، لأن سكان مصر الذين يبلغ عددهم اليوم حوالى اربعة وعشرين مليون نسمة ، كانوا سبعة أو ثمانية ملايين آنذاك ، وكانت قرية بني مر تضم ٢٠١٧ نسمة اثناء إحصاء سنة ١٨٩٧ ، أي انه كان يجب ان يكون فيها ١٧٠٠ نسمة قبل عشر سنوات من ذلك التاريخ ، في السنة التي وُلد فيها عبدالناصر حسين . وبما ان الاراضي المحيطة بالقرية تبلغ مساحتها ما يقرب من الفي فدان فان هذا يعني ان نصيب كل شخص من هذه الارض آنذاك كان أكثر من فدان (الفدان ٤٢٠٠ مم) وهو يكفي لاطعامه . والزراعات الفنية كالقطن وقصب السكر التي أدخلها محمد علي واسماعيل الى مصر العليا كانت تتيح دفع الضرائب ، وشراء بعض الاقمشة من بائعي الاقمشة في مدينة اخمين المجاورة ، أو بعض الادوات البسيطة المصنوعة محلياً .

بالنسبة للمراقب السطحي ، كان سكان بني مر يعيشون في سُبات عميق ، بعيدين عن كل مظاهر الحضارة ، راضين من الحياة بأبسطها ومن الدنيا بأزهدها

اما في الحقيقة فقد كان التوازن الاقتصادي غير مستقر ، فالارض اولاً كانت لا تخصُّ سكان القرية إلا جزئياً ، وكثيرون من الملاكين كانوا يقيمون في اسيوط او ابنوب او غيرهما من الحواضر . والبدلات التي كان على الفلاح ان يدفعها كانت تستنفدُ القسم الاكبر من دخله الزراعي ، وكلَّ سنة ، مع ازدياد عدد السكان ، كانت مشكلةُ اشباع الافواه الجديدة تزداد تعقيداً وإلحاحاً .

كانت مصر في عصر الانحطاط فريسة للاوبئة ، ومنذ عهد المماليك والطاعون والجدري يفتكان بها . ولما جاء محمد علي وخلفاؤه اتخذوا الاحتياطات ، فتحسنت احوال المصريين الصحية وارتفع عددهم الذي

كان ثلاثة ملايين نسمة في فجر القرن التاسع عشر الى خمسة ملايين في ١٨٧٠ ، وحوالى عشرة ملايين حسب احصاء سنة ١٨٩٧ . ان هذه الزيادة في الايدي العاملة كانت عامل ثروة في البدء ، وأعمال الري الكبرى كقناة الابراهيمية والمحمودية وسد الدلتا ، ثم سد اسوان ، أتاحت زيادة الاراضي الزراعية ، ولكن سرعان ما أصبحت هذه الاراضي غير كافية ، ولم يعد هناك فدادين لاطعام كل هذه الملايين من المصريين . وتوجب البحث عن ثروات جديدة ، وكي يُتاح ذلك يجب الخروج أولاً من الجهل المطبق الذي ينشر شبحه فوق الريف المصري .

من الكتاب الى المدرسة الابتدائية

في سنة ١٩٠٠ ، بعد مرور اثنتي عشرة سنة على ولادة عبدالناصر حسين ، تعاون ممثلو العائلات الاسلامية الكبرى في بني مر للمساهمة في بناء غرفة على سطح المسجد ليعلّم فيها الشيخ احمد قرعة مبادىء القراءة لأبنائهم . لقد علمهم الشيخ القراءة والكتابة ، ولقنهم غيباً سور القرآن . وأحد اولئك المساهمين كان حسين خليل سلطان ، والد عبدالناصر حسين الذي كان الاول في مدرسة الشيخ .

لقد روى احد مؤرخي سيرة جمال عبد الناصر في عـدد خاص من مجلة « المصور » ان عائلة سلطان كانت تسكن في الحي الشمالي من قرية بني مر المسمى باسمها ، وانها كانت معروفة بشجاعتها وكرامتها وكرمها وذكاء ابنائها . وكانت تعيش من زراعة اراضيها عيشة بسيطة متواضعة بوصفها أسرة تنتمي الى طبقة صغار الملاكين ..

أُدخل عبد الناصر حسين في سن الثالثة عشرة الى كتاب الشيخ ، تخرّج فيه بعد ثلاث سنوات حسب المرجع نفسه لُيرسل الى الاسكندرية

عند أقارب أمه الذين كانوا يُديرون عملاً تجارياً .

وفي شهر آذار سنة ١٩٠٤ التحق الصبي بمدرسة ابتدائية وخرج منها يحمل شهادة الدروس الابتدائية التي خوّلته ان يصبح جابياً في أحد مكاتب البريد في الاسكندرية .

لقد كان أول من يشغل وظيفة حكومية بين ابناء قريته .

تبدو لي هذه الرواية بعيدة عن الواقع ، إذ أنه بين قرية بني مر الضائعة بين أشجار النخيل في مصر العليا ، وبين الاسكندرية الواقعة على المتوسط ما لا يقلّ عن ستمائة كلم .. فكيف يُبعث بعيداً بقروي في السادسة عشرة من عمره بعد ثلاث سنوات قضاها في الكتاب للتعلم في مدرسة ابتدائية ؟.. مَنْ هم أقاربُ أمه هؤلاء الذين كانوا يعملون في التجارة ؟.. وهل كان والده حسين خليل سلطان تزوج من امرأة اسكندرانية ، وبأية معجزة ؟..

لقد توجهت بنفسي الى بني مر ، وقابلت افراداً من عائلة سلطان ما زالوا مقيمين في القرية ، كما قابلت اصدقاء للعائلة ، وقد رووا لي رواية مخالفة عن الطريق التي سلكها الفلاح الصغير ليخرج من عالمه الصغير .

بعد ان تعلّم مبادىء القراءة والكتابة في كتاب الشيخ في بني مر ، لم يستطع عبدالناصر حسين ان يلتحق بمدرسة اسيوط الابتدائية لسبب بسيط هو انه لم يكن في أسيوط التي تعد تسعة وثلاثين الف نسمة ، مدرسة ابتدائية وهذا التحديد يعطي فكرة واضحة عن الجهل الذي كان يُطبق على المصريين ، في الوقت الذي كان المستشارون الانجليز يتولون الاشراف على التعليم في وادي النيل . غير انه كان في اسيوط مدرسة ابتدائية خاصة بالاقباط ، ولم تكن هذه المدرسة مقتصرة على التلاميذ المسيحيين ، بل كانت تقبل المسيحيين والمسلمين على السواء .

والفلاح حسين خليل سلطان ، الذي شعر باستعدادات ابنه الطيبة ، نجح في ادخاله الى مدرسة اسيوط القبطية على مسافة اربعة كيلومترات

من قريته . وهناك على الارجح نال عبد الناصر حسين سنة ١٩١٣ شهادة الدروس الابتدائية التي أتاحت له ان يصبح موظفاً في مكاتب البريد .

والمؤكد ان مديرية البريد أرسلته الى الاسكندرية في بدء الحرب العالمية الاولى ، وهناك تزوج في سنة ١٩١٧ من ابنة المقاول محمد حماد المقيم في الاسكندرية ، وكان مثله من مصر العليا ، ينتسب الى بلدة ملوى في مديرية المنيا ، وقد وفق محمد حماد هذا الى ان يكون تاجر فحم محترم ايضاً . وكان على الاغلب تربطه علاقة العمل بسلطان احد اشقاء عبد الناصر ، الذي عمل في تجارة الفحم قبــل ان ينخرط في تعاونية البترول التابعة للمنيا .

صعيدي واسكندري

كان على عبد الناصر حسين ، بعد ان أصبح موظفاً في البريد ، ان يتنقل في كل انحاء مصر ، بناء لأوامر مديرية البريد حسب التقليد المتبع في كل الاجهزة الحكومية . وكان في الاسكندرية في الخامس عشر من كانون الثاني سنة ١٩١٨ ، ثم أرسلته الى خيل العربان قرب السويس سنة ١٩٢٣ ، ونقل بعد ذلك الى خطاطبة القرية الصغيرة الضائعة على حدود الصحراء ، على مسافة اربعين كيلومتراً من القاهرة . ثم نقل مرة اخرى الى دمنهور ، فالاسكندرية، واخيراً الى القاهرة حيث عين جابياً في احد مكاتب البريد في الاحياء .

كان عبد الناصر حسين في تنقلاته هذه كلها في انحاء مصر ، ينقلُ عائلته معه ، وعندما يكون مقر عمله خالياً من المدارس ، كان يكلف احـد الاقارب بتولي أمر اولاده الذين هم في سن الدراسة الابتدائية والثانوية . انها حياة صعبة وجريئة ، هذه الحياة التي قضاها هـذا الموظف الصغير ذو الراتب المتواضع ، الذي ترك بلده الام دون املاك

او رأس مال ليشغل دائماً فكره في تدبير امر الموازنة العائلية .

ان هناك عاملين اساسيين اديّا الى تفتح ابنه جمال الذهني ، هـذا التفتح الذي لم يكن متوفراً لابن الفلاح العادي .

ان كتـاب الشيخ ، ثم المدرسة القبطية الابتدائية في اسيوط ، ثم التنقلات المستمرة عبر انحاء مصر ، وخاصة الزواج من ابنة تاجر ميسور في الاسكندرية ، كل ذلك نتج عنهُ اولاً الخروج من البيئة المقفلة التي اعتاد ان يعيش فيها الفلاح المصري ، وكذلك من الناحية الاجتماعية ، كانت القفزة رائعة وكبيرة ، كبيرة جداً الى درجة جعلت في الجيل اللاحق من جمال طالباً وطنياً وضابطاً ثورياً ، ثم رئيساً قومياً ورائداً للعروبة .

واذا كان في هـذا الجيل الثاني ، قد اتسع افق الطفل الى درجة ملحوظة ، فذلك راجع الى انه من ناحية الأم كان قد تلقّى موهبة الحساسية ومرونة الفكر . والاهتمام بكل ما هو جديد ، هذه المواهب التي تكمل وتشذّب ميول الاستقلال والعناد والمحافظة لدى الصعيدي ، فلاّح مصر العليا .

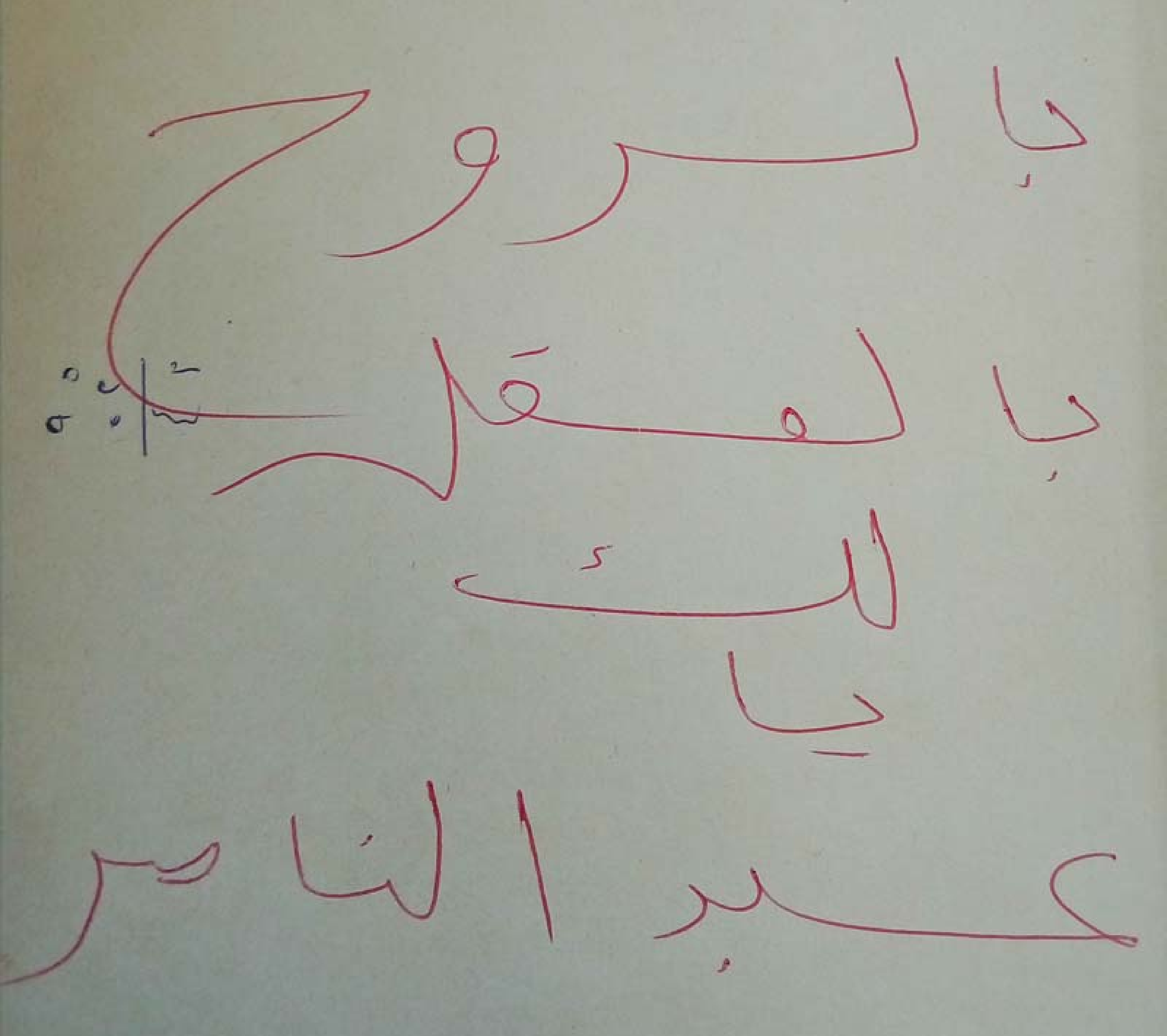
هناك مثل عربي يقول : « اذا اردت ان تعرف الحصان الاصيل فسل عن امه . »

واذا كان جمال عبد الناصر ، قد ورث عن والده الصلابة وعزة الصعيدي وحذره ، وتمسكه بارضه ، فأنّه قد أخذ عن امّه الميزات الاسكندرانية من روح متوسطية ولباقة ومهارة ، وتطلع الى ما وراء الافق ، اي كل ما يولد الفكر الثوري ، لقد كانت الاسكندرية دائماً هذه المدينـة التجارية خليطاً تتجاوُر فيه العناصر والاديان مما يؤدي الى النقاش والعراك والتطاحن ، والاسكندري دولي ، جريء لكنه فردي .

ان عائلة حمّاد كعائلة سلطان ، صعيديةٌ في الاصل . ولكن المرء عندما يعمل مقاولاً في الاسكندرية يختلف كثيراً عن المزارع او الموظف

في البريد . ان الجرأة الثورية والتفتح على العالم الخارجي عند جمال عبد الناصر كانا سيبقيان دون تفسير لو ان والده تزوج من احدى بنات بني مر الطيّبات البسيطات .

ولنحاول قبل ان ندرس الجو العائلي والمدرسي الذي عاش فيه جمال عبد الناصر في صغره تحديد اصل هذا الشعب الذي يسكنُ منطقة الصعيد ، ومنه والدا جمال عبد الناصر :



نسب سكّان مصر العليا

فترة ما قبل التاريخ والفترة الفرعونية

ان فلاّح مصر العليا مسيحياً كان ام مسلماً ينحدُر من الشعب الذي كان يسكن وادي النيل منذ الزمن الذي سبق العهد الفرعوني .

ان العنصر الاصلي ، القريب من بربر ليبيا وحامي شمالي شرقي افريقيا، الغلاّس والصوماليين ، هو افريقي مئة بالمئة ، وفي الفترة التي سبقت قيام الملكية في وادي النيل جاءت قبائل اسيوية سامية وآرية، واستوطنت الدلتا والوادي ، وكانت هذه مزوّدة بحضارة اسمى . ان السكان الاصليين كانوا لا يعرفون الا الادوات والاواني الحجرية ، اما القادمون الجدد الذين تسللوا رويداً ، رويداً ، على الارجح ، فكانوا يعرفون المعادن ، وعلى الاخص النحاس ولهم لغتهم الخاصة ، وعاداتهم وتقاليدهم .

ومع الزمن انتهى السكان الاصليون ، الذين هم اكثر عدداً بابتلاع القادمين الجدد . وانصهار العنصرين كان منسجماً الى درجة اصبح من العسير جداً معها التمييز في الحضارة المصرية بين ما هو من العنصر الافريقي وبين ما هو من العنصر الاسيوي الذي سيطر على وادي النيل في الفترة التي سبقت قيام الملكية في مصر .

وخلال ستة آلاف سنة التي مرّت منذ ان تولى «مينا» تأسيس اول اسرة مالكة فرعونيـة حتى يومنا هذا تعرّضت مصر الى الغزو مراراً .

في نهاية عهد العائلة الثالثة عشرة ، اي حوالى سنة الف وسبعمائة قبل الميلاد قدمت قبائلُ سامية من شبه الجزيرة العربيـة ومن سورية واجتاحت مصر السفلى وسيطرت عليها . انهم الهكسوس ، زعماء الصحراء ، او الملوك الرعاة الذين بدأوا اعمال النهب والسلب في مصر واستعبادهـا وقد استقروا في الدلتا ثم شكلوا العائلتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من مانيتون .

وفي هذه الاثناء نُظّمت المقاومة الوطنية ، وبعد استعداد استغرق مئة وخمس وعشرين سنة انتصر ملوك طيبة على الهكسوس واخرجوهم من مصر ، وفي ظل الحكم الفرعوني الهكسوسي جاء على ما يظهر يوسف الى مصر وفيه اقام العبرانيون في المنطقة الشرقية ، الا ان هـذا الغزو السامي الذي ترك آثاراً له في مصر السفلى ، لم يمتدّ الى مصر العليا التي كتفى الغزاة منها بأخذ الجزية .

إثرَ ذلك حصلَ تسللٌ القبائل الليبية التي تنتسبُ الى العنصر نفسه الذي تحـدّر منه سكان مصر الاصليون ، كما جاء عدد من الفينيقيين والهيابنيين الى شمالي الدلتا والمدن الكبرى كتجار للعمل ، ودخل ايضاً المرتزقة اليونانيون الى الحبشة ، وكان ان توصّل بعض الاحباش الى عرش الفراعنة ، ثم كان بصورة خاصة احتلالُ مصر على يد الفرس الذين نشروا حامياتهم العسكرية على طول الوادي من المتوسط الى اسوان، وهذه الحاميـات المؤلفة في اكثريتها من جنود وضباط فرس كانتْ تضمُ عناصر غريبة ووطنية ، ففي جزيرة « الفيلة » مثلاً كانت تقيمُ جاليةٌ من المرتزقة اليهود تتكلمُ وتكتب الآرامية .

هذا الاحتـلال الفارسي الذي ترك اثراً سيئاً في مصر ، دامَ ما

يقرب من مئتي سنة ، تخللتها الثورات التي كان يحارب فيها الى جانب المصريين جنود يونانيون وليبيون ، وفي ظل العائلات الثلاث الاخيرة التي يحمل فراعنتها اسماء ليبية على الاغلب ، كان القسم الاكبر من الجيش المصري يتألف من المرتزقة اليونانيين يقودهم ضباط يونانيون .

ولذلك عندما انتصر الاسكندر المقدوني على ملك الفرس في آسية الصغرى واحتل سورية وفلسطين استقبله المصريون بالترحاب كأنه المحرر المنقذ ، واقام له الكهنة المصريون الصلوات الالهية ، واعترفوا به فرعوناً شرعياً ، فافتتح بذلك عهداً من السيطرة الهلينية دام ثلاثة قرون ، وهكذا خضعت الطبقات المصرية الموجهة ، بعد ان تلقت دماء سامية وليبية لنفوذ هليني كبير .

اما الطبقات المتوسطة ، وخصوصاً الريفية فلم تتأثر الا قليلاً بهذه العوامل الاجنبية ، وقد تمثلت هذا القليل وحافظت على مميزات العنصر المصري الاصيل .

الحقبة اليونانية ــ الرومانية والبيزنطية

بلغ عدد سكان مصر في ظل البطالسة رقماً مرتفعاً بالنسبة لذلك العصر وهو سبعة ملايين نسمة ، والاسكندرية التي كان اثنان من احيائها الخمسة يونانيين ، واثنان يهوديين ، وواحد مصري فقط ، كانت مدينة هلينية ، نسي اليهود انفسهم فيها لغتهم العبرانية وترجموا حتى كتاب التوراة الى اليونانية .

وكان ان نمت مدن يونانية اخرى مثل ، نوكراتيس في الدلتا ، وارسينوي في الفيون وهيليوبوليس في اشمونين قرب المنية ، وبطلمايس عاصمة مصر العليا قرب « قرقه »

وكان الجيش في ذلك الحين يتألف من اليونانيين والمقدونيين ، ومن المصريين ، ومن طائفة من المرتزقة ، والرتب كانت في هـذا الجيش وقفاً على اليونانيين والمقدونيين الذين كانت الدولة تمنحهم الاقطاعات الزراعية . والوظائف الأدارية المهمة كانت تُناط باليونانيين ، والزواج المختلط اتاح للعائلات المصرية الميسورة ان تطلع عـلى الثقافة الهلينية ، هـذا وقد استمرت الطبقات الشعبية محتفظة بديانتها ولغتها ، وكانت القبطية تكتب آنذاك بالحروف اليونانية لان الخط الهيروغليفي كان قد أصبح غير مفهوم .

وقد بدت مصر خارجياً كأنها تهلينت (أصبحت هلينية) مع ان ذلك كان مقتصراً على جزء ضئيل من سكانها ، ولم يمض طويل وقت حتى انفجرت الثورات يقودها الوطنيون الاشراف ورجال الدين ، على يد جنود مصريين كانوا قد تدربوا وتسلحوا في الجيش المقدوني .

وفي ظل الاحتـلال الروماني بقي الجهازان الاداري والعسكري ، واللغة الرسمية ، بقي كل ذلك يونانياً ، وكانت روما تأخذ من مصر عشرين مليون وزنة من القمح سنوياً ، وتضاعف التبادل التجاري بين مصر وأوروبة ، اذ كانت مصر تبيع الحبوب والزجاج ، وورق البردي والمنسوجات والحلى ، وتستورد المعادن خاصة القصدير والعنبر والفخار والخيل ، غير ان هذا النشاط التجاري والصناعي كان محصوراً في أيدي اليهود واليونانيين ، واستمر الفلاح يعيش في قريته التي بُنيت بيوتها من الطين ، تثقل كاهله الضرائب الفادحة ، ويُفني عمره في خدمة المحتل الدخيـل .

وعندما حلّت بيزنطه محل روما ، بقي كل شيء على حاله ، وفي هذا العهد انتشرت الديانة المسيحية في المدن وشيدت الاديرة في الصحراء الليبية وفي وادي النيل ، في مصر العليا كما هي الحال في مصر السفلى غير ان المعتقدات المصرية القديمة بقيت حيةً في الريف المصري الى فترة طويلة بعد الاحتلال البيزنطي :

وفي القرن السادس بعد الميلاد كان نصف سكان الريف لا يزالون وثنيين ، ولم تبطل عبادة ايزيس رسمياً في اسوان الا سنة ٥٤٣ ميلادية ، عندما اقفل ترسيس القائد اليوستينياني معابد « فيلاي » ونقل الاصنام الى القسطنطينية . وتُظهر المعارك التي نشبت بين الاقباط الذين يعتقدون بطبيعة واحدة للمسيح ، وبين البطاركة الملكيين الذين فرضتهم بيزنطية ، وكذلك الثوراتُ الشعبية ضد ضريبة القمح تُظهر جيداً أن المصريين في المدن ، وفي الارياف كانـوا لا يحسون بـأي رابط يربطهم بالمليين .

ثم كانت موجة غزو قاسية جديدة على يد كسرى الذي احتل سورية وفلسطين ودخل مصر سنة ٦٢٠ دون مقاومة تذكر . وقد دخل الفرس بيلوز دون قتال ، وسقطت بابلون في القاهرة القديمة في ايديهم بعد مقاومة هزيلة ، وسقطت الاسكندرية بعـد بضعة اشهر من الحصار ، واجتاح الفرس وادي النيل حتى بلاد النوبة ، فنهبوا وخربوا واحرقوا وقتلوا ، ثم سمحوا للاقباط باعادة بناء كنائسهم وأديرتهم ، وبدوا اكثر اعتدالا من اليونانيين في فرض ضرائبهم .

وعندما تغلب هرقل على الفرس في بلاد مابين النهرين ، جلوا عن مصر بعد احتلال دام عشر سنوات وارسلت بيزنطة الى مصر البطريرك سيروس الذي فرض على البلاد بواسطة الجيش البيزنطي ديكتاتورية طاغية .

وقد حاول عبثاً توحيد الشيع المسيحية المتنافرة ، واعادتها الى حظيرة الكنيسة اليونانية . ونجد تفسيراً لكراهية الاقباط لبيزنطية في النزاعـات الدينية ، وسوء تصرف الموظفين اليونانيين الذين كانوا يجرحون شعور المصريين الوطني بمطالبهم الكثيرة الفادحة ، وضرائبهم التي تُرهق الطبقتين الوسطى والريفية في وادي النيل « اهراء القسطنطينية » .

تمّ الفتح العربي لوادي النيل بين سنة ٦٣٩ و ٦٤٣ على يد القائد الكبير عمرو بن العاص بناءً لرغبة الخليفة عمر بن الخطاب .

وجيش الفتح المؤلف في اكثريته من يمنيين كان لا يزيد عن خمسة عشر الف مقاتل وقد قدم من سورية وفلسطين ، فاحتل بيلوز وصعد عن طريق بليانس الى قلعة بابيلون التي لا تزال آثار اسوارها المنيعة بادية حتى اليوم في القاهرة القديمة ، وتوقف عمرو بن العاص سبعة اشهر أمام هذا الحصن الذي بناه الرومانيون ، وبعد سقوطه توجه على رأس الجيش العربي الى الاسكندرية التي قاومت بين ثلاثة أو أربعة اشهر حسب الروايات المتضاربة ، وفي هذا الوقت كان معاونه عبدالله بن سعد قد افتتح مصر العليا .

لقد استقبل الاقباط الجيش العربي بالترحاب واعتبروه نعمة من السماء لانه انقذهم من النير البيزنطي ، ولم يصطدم الجنود العرب في سيرهم في وادي النيل الا بالمقاومة اليونانية ولم يلاقوا مقاومة من المصريين الوطنيين الا فيما بعد عندما رأى المسيحيون منهم أنفسهم مضطرين لدفع جزية لجيش الاحتلال ، وكان رصيد هذه الجزية يُرسَل الى الخليفة . وقسم من القمح المستوفي من الفلاحين المصريين كان يرسل الى المدن المقدسة في الحجاز .

وكان ان اعتنق القسم الاكبر من المصريين الدين الاسلامي ، وانتشرت اللغة العربية لانها لغة القرآن والفاتحين . ويمكننا ان نعلل السرعة التي تم بها اعتناق الدين الاسلامي بكون الديانة المسيحية هي الاخرى قادماً جديداً الى الريف المصري حيث المعتقدات القديمة كانت لا تزال تحتفظ بالكثير من الأتباع .

هذا ، ولم يتفرق الفاتحون العرب ، القليلو العدد في انحاء مصر ،

بل توزعوا في جماعات قبائلية ، وكانوا يشكلون الجهازين السياسي والعسكري ، وفي البدء لم يُقبَل المصريون في الجيش بل أعفوهم من كل الواجبات العسكرية ، وفي مقابل ذلك استخدموهم في الوظائف الادارية .

وقد كتب اسقف نسطوري يقول : « ان العرب الذين منحهم الله النصر في أيامنا بعد مضي خمس عشرة سنة على دخولهم الى مصر اصبحوا أسيادنا ، غير انهم لا يحاربون الدين المسيحي مطلقاً ، بل على العكس يحمون ايماننا ويحترمون كهنتنا وقديسينا ، ويقدمون الهبات لكنائسنا وأديرتنا ... »

ان أول ما شغل الفاتحين العرب في مصر هو ادارتها كمستعمرة وصيانة سكانها من الأذى على ان يدفعوا الجزية ، غير ان العرب سرعان ما غيروا خطتهم تلك ، واخذوا على عاتقهم مهمة صعبة الا وهي تعريب المصريين بنشر لواء الدين الأسلامي ولغة العرب .

واعتناق الدين الاسلامي جماعياً في مصر كان من نتيجته ان الجزية التي كانت تبلغ في ظل معاوية (٦٦١ - ٦٧٠) خمسة ملايين دينار ، هبطت الى اربعة ملايين في عهد هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) لتصل الى ثلاثة ملايين فقط فيما بعد . وقد سار استعمال اللغة العربية في ركاب الدين ، وبدأت العربية تحل مكان اليونانية في المستندات الى جانب القبطية . وأما استعمالها في الاوراق الرسمية فقد فُرض سنة ٧٠٦ بقرار من العامل ، وبقيت القبطية مدة طويلة لغة التخاطب بين المصريين ، ويُستدل على ذلك بانه في سنة ٨٣٢ عندما اقام الخليفة المأمون فترة من الزمن في مصر ، استقدم معه أحد المترجمين .

والتوسع العربي الذي انهكته الفتوحات الواسعة ، سرعان ما غير طبيعته . وبالطبع حلت العربية مكان القبطية ، كما حلت اللاتينية مكان السلتية في غاليا بعد الفتح الروماني ، وبقي الاسلام دين الاكثرية من

السكان ، بينما بدأ عدد الجنود الذين يرجعون الى أصل عربي ينخفض يوماً بعد يوم في جيوش الخليفة . وقد كتب ابن خلدون يقول ان الروح القومية عند العرب اوشكت ان تتلاشى تقريباً ، ولم يعد في امكان الخلفاء ان يحتفظوا بسلطانهم الا بمساعدة الجنود من اعاجم واتراك وفي مصر ، بناء على أمر الخليفة المعتصم (٨٣٣ – ٨٤١) استُبدل بالجنود العرب جنود اتراك في الجيش .

أما العرب الذين اصبحوا اصحاب املاك عقارية واستوطنوا المدن المصرية ، فقد لاقوا فيما بعد على يد السلاطين المماليك من الذل والهوان والتعذيب اكثر مما لاقاه اليهود والمسيحيون لأنهم كانوا فخورين بنسبهم يأبون الخضوع للاسياد الجدد ومن حين الى آخر كان هؤلاء العبيد الذين اصبحوا اصحاب السلطان ، يلجأون الى اقسى انواع العنف والشدة مع الثائرين .

ففي ظل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، راح المرتزقة ، مرتزقة الاميرين سالار وبيبرس يعيثون في مصر العليا فساداً وتخريباً الى درجة دفعت عرب الصعيد الى الثورة ، وكانت عمليات القمع فظيعة ، ويقول المقريزي : « منذ ذلك الوقت تفرق عرب مصر وفقدوا قوتهم ، ويروون انه للتمييز بين عرب الصعيد وغيرهم من العناصر كان المماليك يلجأون الى اجبار الناس على لفظ كلمة « دقيق » وكل اولئك الذين يستطيعون لفظ القاف « كانوا يقتلون حالاً ... »

لقد نقلتنا هذه التفصيلات التاريخية كثيراً عن صلب موضوعنا ، ولكنها كانت ضرورية لنثبت ان سكان مصر العليا ، على الرغم من ان دينهم هو الاسلام ولغتهم هي العربية ، ليسوا عرباً مئة بالمئة ، بل فيهم نسبة كبيرة من العناصر المصرية الاصلية .

وعلى كل حال ، فان أسماء الاماكن التي تبدأ بكلمة « بني » مثل « بني مزار » و « بني قرة » و « بني سويف » هي عربية خالصة ،

وتدل على ان قبيلة من عرب شبه الجزيرة العربية قد قدمت الى هذا المكان واستوطنته .

تُرى الا ينطبق ذلك على منطقة أسيوط وعلى قرية بني مر خاصة ؟..

برعاية القديسين فيكتور وجرجس

كانت مدينة اسيوط القريبة جداً من مدافن بَدَري وتازا التي تعود الى فترة ما قبل التاريخ ، القائمة على النيل بين اخميم مدينة الاله «من» وتل العمارنة عاصمة الاله الموحد لاخناتون ، كانت في عهد الفراعنة عاصمة امارة شعارُها ابن آوى خاصة الاله « انوبيس » . وفي عهد البطالسة أصبح اسمها « ليكوبوليس » واستوطنتها جالية هلينية كبرى ، ولكن بعد تسعمائة سنة من الاحتلال اليوناني الروماني البيزنطي عندما استولى خيالة عمرو بن العاص على مصر العليا ، استعادت المدينة اسمها الفرعوني اسيوط .

وهذا يثبت الى اية درجة يتمسك الصعيدي بتقاليده ويحافظ عليها ، ويؤكد ايضاً ان هلينة مصر لم تكن الا سطحية ، ثم ان ليكوبوليس « اسيوط » كانت مسقط رأس افلوطين الفيلسوف الكبير الذي نشر شهرة مدرسة الاسكندرية الافلوطينية الحديثة في الافاق .

وفي فجر القرن الرابع برز جندي مؤمن ، من مقاطعة « قنا » هو القديس باكوم واسس أول رهبانيات مسيحية وبنى أديرة في « تيبابيد » .

وانتظمت حياة الرهبنة على نسق الحياة العسكرية ، فبدأت في مصر حركة امتدت فيما بعد الى سورية ومن هناك الى سائر انحاء العالم .

وكان ان بنى راهب من اخميم يدعى شانودا ، قرب أفروديتوبوليس الدير الابيض الذي كان على رهبانه الذين يبلغون الفاً ومائتين ان يشتركوا في صراع عنيف ضد الوثنيين واليهود ، ثم هاجم هؤلاء لتهديم

الهياكل بمساعدة الفلاحين الفقراء اصحاب الاملاك الاغنياء الذين كانوا وثنيين . وعندما أراد اباطرة الروم ان يثبتوا سلطة بطريرك القسطنطينية على بطريرك الاسكندرية ، عارض رهبان مصر العليا ذلك بشدة وتمسكوا بسلطة بطريرك الاسكندرية لانهم كانوا من انصار الطبيعة الواحـدة ، ورفض اقبـاط مصر ان يخضعوا لبطاركة تدعمهم القسطنطينية واطلقوا عليهم اسم « ملكيين » .

اننا اليوم لا نجد شيئاً من المدينة الفرعونية أسيوط ، ويجب ان تزور الجبل المجاور لتجد البيوت الابدية قبور الامراء والكهنة وكبار القوم في ذلك الوقت .

ويشير المؤرخ العربي المقريزي في وصفه الجغرافي لمصر الى انه عند سفح الجبل شرقي بني مر كان يقوم الدير الكبير للقديس بقطر الغبراوي ، حيث كان يحتفل بذكرى هذا الشهيد الذي أعدم في عهد ديوكليسيان ، لقد زال الدير ولكن ما زالت تقوم في المكان ذاته كنيسة القديس بقطر ابن رومانس ، والقديس بقطر هو القديس فيكتور ، احد حملة الاعلام في الغرفة الطيبة التي كان يقودها القديس موريس ، تلك الغرفة الشهيرة التي كانت مؤلفة من جنود مسيحيين صعيديين ، نقلهـم ديوكليسيان الى هلفيسيا « سويسرة » . وحسب الاسطورة الذهبية لجاك دي فوراجين قضى ديوكليسيان على أعضاء الغرفة الطيبية لانهم رفضوا ان يتخلوا عن مسيحيتهم ويقدموا الذبائح لالهة روما الوثنية .

ويقال ان القديس موريس قد أجـاب الامبراطور بهذا الجواب : « يا سيدي الامبراطور اننا جنودك وقد حملنا السلاح للدفاع عن قضية عامة ، اننا لسنا خونة ولا جبناء ، ولكن ليس هناك من قوة تستطيع ان تضطرنا الى ترك ايماننا بالمسيح » وهكذا ، فضلت الفرقة الطيبية بكاملها ان تموت في سان موريس آن فالية ـ قرب الرون عـلى ان تتخلى عن ايمانها .

والمقريزي من جهته يروي القصة ، مؤكـداً ان بقطر هو ابن رومانس الذي كان وزيراً في بلاط ديوكليسيان ويصفه بالجمال والشجاعة ويشير الى حظوته الكبيرة لدى الامبراطور التي ظلت في تعاظم حتى يوم اهتدائه الى الدين المسيحي .

والغريب ان المقريزي لتحديد موقع دير « فكتور المصلح » استعمل اسم بني مر وأهمل اسم ابنوب التي هي أقرب الى الدير ، ويمكننا ان نستنتج من ذلك ان القرية الصغيرة ذات الاسم العربي كانت في تلك الحقبة معروفة أكثر من ابنوب التي أصبحت في ما بعد قرية كبيرة ، ومركز الناحية التي تؤلف بني مر جزءاً منها .

ومن المحتمل ان قريتنا هذه يعود اسمها الى جماعة من الفرسان العرب الذين عسكروا قرب اسيوط اثناء الفتح العربي او فيما بعد للدفاع عن هذه المدينة ضد غزوات قبائل « البلميّس » القادمين من السودان ، أو هجمات بدو الصحراء الليبية ، ونجد في شجرة نسب النبي العربي محمد (صلعم) الى جانب بني قريش وبني عبد مناف ، جـداً آخر يحمل اسم بني مرة . وليس من المستبعد ان يكون فريق من فرسان هذه القبيلة الحجازية قد قدم الى مصر وعسكر قرب اسيوط . وهناك في تلك الناحية امكنة متعددة تحمل هي الاخرى اسماء عربية مثل عرب مطير ، بني رضا . ومن المحتمل ايضاً ان يكون هؤلاء الفرسان قـد أقاموا في هذه الاماكن إقامة موقتة ، اذ كان عليهم ان يفتتحوا بلداناً جديدة لدينهم ودولتهم . والبدوي لا يختلط مطلقاً بالتزاوج من الطبقة الريفية المحلية .

اثناء مروري في بني مر تعرّفت الى احد افراد عائلة سلطان الذي قال لي بأنه أجرى ابحاثاً واستقصاءات عن نسب جدوده . وسحب دفتراً من جيبه ليُريني تسلسل اربعين جيلاً تربط جمال عبد الناصر بالنبي محمد (صلعم)

وهذا التسلسل لم يفكر فيه الرئيس جمال عبد الناصر مطلقاً ، لأنه لم ينس الأثر السيء الذي أحدثه لدى المصريين يوماً الزعم القائل بأن الملك السابق فاروق هو من نسل النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا الادعاء الوقح آنذاك كان في نظر المؤمنين استهزاء بالدين الاسلامي ، لانه ليس من احد يجهل ان محمد علي كان مملوكاً « البانياً » .

ثم ان فاروق من جهة امه كان مخلوط النسب بدم غير عربي ؛ أو على الاصح ، بدم الكولونيل سيف الفرنسي الذي أصبح سليمان باشا بعد اعتناقه الاسلام .

والزعيم الوطني عرابي باشا الذي وُلد في احدى قرى المنطقة الشرقية كان يقول بأنه يعود في النسب الى أسرة النبي العربي . وهذا القول ليس بعيداً كل البعد عن الواقع ، لأن منطقه الزقازيق – بلبيس ، هي طريق الغزوات القادمة من شبه جزيرة العرب ، وقد احتلتها مراراً القبائل العربية التي جاءت لتُقيم في مصر . وصفات عرابي المتحمس الفصيح الميال الى القنوط هي صفات عربية خالصة ، تختلف تماماً عن الزهو الحذر والارادة الحديدية التي يتميز بها ابن الصعيد . ولم يفكر عبد الناصر حسين الفلاح الذي أصبح موظفاً ، ولا أي من ابنائه ، ولا جمال عبد الناصر بصورة خاصة في ان يعود بنسبه الى النبي العربي .

وقبل ان نترك بني مر لا بد من الاشارة الى انه اذا كان الدير الكبير قد بني على اسم القديس بقطر الغبراوي المحارب الذي لا يقهر – حامل العلم القديس فكتور – فأن كنيسة بني مر قد حملت اسم قديس عسكري هو القديس جرجس الضابط في الجيش الروماني . وقد ولد هذا في آسيا الصغرى واشتهر بقتل التنين الذى زرع الرعب في احدى مقاطعات ليبيا . وقد طلب اليه ديوكليسيان ان يتخلى عن إيمانه المسيحي مقابل الكثير من الامجاد فرفض ، وفضل الموت على الحياة وتقديم

الذبائح للآلهة الوثنية .

ان اقباط بني مر حلموا ويحلمون بقديسين ، ومحاربين ، والمسلمون هم من نفس الطينة . وسنرى انه على مسافة بضعة كيلومترات من هناك في ثكنة منقباد ، ولدت حركة الضباط الاحرار الذين قاموا بالثورة المصرية .

تنقلات موظف البريد

الاسكندرية ، اسيوط ، الخطاطبة

يتميز أهل الصعيد بالميل الشديد الى التعاون الوثيق ، وفي داخل العائلة يعمل الجميع متعاونين في شتى الحقول ، لذلك ما كاد عبدالناصر حسين الموظف الشاب في البريد يستقر في الاسكندرية حتى استقبل أخاه خليل حسين الذي كان عليه ان يتابع دروسه الابتدائية والقانونية ، الامر الذي أتاح لخليل حسين ، فيما بعد ، ان يصبح موظفاً في الاوقاف . لقد كان خليل ثالث المتحررين من عبودية الارض في عائلة سلطان ، اذ بقي في القرية ثلاثة اخوة آخرون هم : عبدالباسط الذي قضى سنة ١٩١٨ ، وعطيه حسين ، وطه حسين ، وهؤلاء بقوا في القرية لزراعة بضعة الفدادين التي يملكونها .

بعد زواجه في مستهل سنة ١٩١٧ من فهيمة ابنة التاجر المقاول محمد حماد ، وجد عبد الناصر حسين نفسه مكلفاً بادارة مكتب بريد باكوس ، احدى ضواحي الاسكندرية ، وأقام بالقرب من الرقم ١٨ شارع الدكتور قنواتي ، في مسكن صغير مشمس ، مؤلف من خمس غرف ، وله حديقة صغيرة ، أي أنه كان يستحق ان يدفع المرء ايجاره ..

وكان في الاسكندرية آنذاك شيء من الريف ، لأن المباني كانت بعيدة عن بعضها ، تقوم بينها أشجار النخيل وغيرها من الاشجار ، حيث يعيش اليمام .

لقد ولد جمال عبدالناصر سنة ١٩١٨ ، في هـذه البيئة المتواضعة الصحية المضيئة التي لا تدل على الفقر ابداً ، وكان في امكان الوالد ان يستقبل أقاربه واصدقاءه في غرفة الاستقبال الصغيرة المزدانة بصور العائلة ، والآيات القرآنية المكتوبة بطريقة فنية . وقـد نتساءل كيف استطاع هذا الموظف الصغير براتبه الذي لا يتعدى ستة جنيهات شهرياً ان يدفع بدل ايجار هذا المسكن وينفق على عائلته لتعيش عيشة ميسورة مع انه لم يكن عنده أية ثروة شخصية ؟ فمن الواضح ان والد زوجته كان يساعده . ولا بد من ان نتساءل ايضاً كيف كانت الاسكندرية عام ١٩١٧ ؟

لقد وصل عدد سكان الاسكندرية الى نصف مليون نسمة في العهد الروماني ، وتعرضت اثر ذلك الى العديـد من الحصارات والثورات والحرائق ، والنهب ، الى درجة أرغمت سكانها على التفرق ، وعندما نزل نابليون فيها سنة ١٧٩٨ لم تكن سوى مدينة صغيرة ، تركية الطابع لا يتعدى سكانها ستة آلاف نسمة .

وفي القرن التاسع عشر شهدت تطوراً كبيراً . فقـد أمر محمد علي ببناء اسطوله فيها ، وقناة المحمودية أتاحت إعادة زراعة الاراضي المحيطة بها واعادة ربطها النهري بالقاهرة . وفي عهد اسماعيل كانت هذه المدينة تضم مائتي الف نسمة ، بينهم خمسين الف اجنبي قدموا من اليونان بصورة خاصة ومن ايطاليا والمشرق وشمالي افريقية .

وفي سنة ١٨٨٢ تهدم قسم كبير من المدينة بعـد القصف والحرق الذي لحقها على يد الأنجليز ، غير ان اعادة البناء واتساع المدينة نما بسرعة فائقة . وفي سنة ١٩١٧ كانت تعد اربعمائة الف نسمة . وعندما

اقام فيها عبد الناصر حسين الموظف البريدي البالغ من العمر تسعة وعشرين عاماً مع زوجته في بيته الجديد ، كان مكتبه البريدي يقوم في وسط تجاري لضاحية مزدهرة يربطها خط القاطرات الكهربائية بوسط الاسكندرية المدينة الديناميكية الضاحكة .

وعندما بلغ جمال عبد الناصر الثالثة من عمره ، راح يفتّش له والده عن مدرسة يدخله فيها فوجد في حي محرم بك حديقة اطفال طمح الى ان يضع ابنه فيها ، ولكن الحكومة نقلته الى اسيوط ، كان ذلك في سنة ١٩٢١ ، لقد وجد عبد الناصر حسين نفسه يعود الى مدينة قريبة جداً من مسقط رأسه .

وبعد اقامة سنتين في اسيوط تضاعف خلالها عددُ العائلة الصغيرة ، نُقلت مجدداً ولكن في هذه المرة الى مكان متواضع ، هو الخطاطبة ، وكان على عبد الناصر حسين ان يبقى هناك مدة ثماني سنوات من سنة ١٩٢٣ الى سنة ١٩٣٠ .

لم يكن في هذه البلدة الصغيرة الفقيرة النائية من مدارس سوى مدرسة بسيطة تتبع مديرية سكة الحديد ويؤمها ابناء الموظفين. ان مسألة ابناء الفلاحين الى المدرسة لم تكن واردة في ذلك الحين .

لقد قصدت بلدة الخطاطبة على الطريق المحاذية لقناة المنصورية التي تمتدُ حتى مسافة بسيطة من الدلتا ، ثم تنحرف لتحاذي الصحراء على مسافة ثلاثين كيلومتراً . ان القناة العريضة تروي الجنائن الغناء، وبساتين النخيل ، وحقول البندورة ، والبرسيم ، وهناك وجدت هرماً من الليمون على حافة الطريق ، نُقِلَ من البستان المجاور ليُعبّأ في صناديق ، وتوقفتُ هناك ، فاذا بي اجد مُصدّراً فلسطيني الجنسية من قطاع غزة يوضّب الأثمار فيلفّها بورق ناعم لتصديرها الى المانيا . في سنة ١٩٢٣ لم يكن هناك لا قناة ولا بساتين . اشجار النخيل وحدها على حافة الصحراء كانت ترتفع بسعفها الخضراء باغبرار محاطة بزنار احمر من

عناقيد التمر .

واليوم تطورت الحطاطبة وتقدّمت بفضل مجاورتها لمديرية التحرير التي اقامها عهد الثورة في الصحراء وكلّفته الملايين . ان المدرسة التابعة لمديرية سكة الحـديد لم تكن تضم سوى ستين تلميذاً ، واليوم تؤوي المدرسة الابتدائية اربعمائة تلميذ ، والابنية على الرغم من توسيعها لم تعد تكفي لاستيعاب هذا العدد المتزايد من التلاميذ ، لذلك قسموا التلاميذ الى قسمين : قسم يأتي الى المدرسة قبـل الظهر ، وقسم بعد الظهر . ومنذ اربع سنوات ارتفعت مباني المدرسة الثانوية لتُتيح لابناء المنطقة ان يُتابعوا دروسهم حتى السابعة عشرة من عمرهم .

لقد استقبلتُ بحفاوة بالغة في مدرسة الحطاطبة الابتدائية ، والصبية والبنات الذين كانوا يلعبون في الملعب وقفوا صفاً واحداً ليُنشدوا معاً نشيد التحرير قبل توجههم على صوت الطبل الى صفوفهم .

دخلنا غرفة المدير التي تزدان جدرانُها برسوم التلاميذ المعبّرة الحيوية، هذه صورة تمثل سوق الحطاطبة بما فيه من فلاحات يحملن على رؤوسهن اطباق البندورة ، وامامهن الحمير الصغيرة محملة بالخضر ، وتلك مدخنة مصنع حلوان لصهر الحديد الذي يعتبر مفخرة العهد الجديد ، هـذه بور سعيد وقد مُلئت سماؤها بمظليين يتهاوون تحت مظلاتهم البرتقالية ثم يتساقطون صرعى برصاص المناضلين المصريين ، هذه امرأة تحتضن طفلها راكعة في الصحراء تتوسل الى الله كي يعيد اليها بيتها وارضها .... انها لاجئة فلسطينية ، والطلاب كل يوم يرددون : ان اسرائيل قد طردت مليون اخ عربي من ديارهم لاشعال نار الثأر ، وهذا جندي يبقر بطن جندي اجنبي ، وتحت الصورة كتبت هذه الجملة التي اطلقهـا جمال عبد الناصر ... « اما الفرنسيون فنترك امرهم للجزائريين .. »

ان ابناء الحطاطبـة جميعاً يعرفون ان الرئيس قد اقام في قريتهم والتحق بمدرستهم مدة سنة ، الا ان المدرّسين قد تغيروا ، لذلك كان

علينا ان نبحث عن احد موظفي سكة الحديد ، وهو يملك بيتاً من الطوب المطلي بالكلس ، كان سنة ١٩٢٣ يضم مكتب البريد ومسكن مدير المكتب .

ان الانتقال الى الخطاطبة بالنسبة لعبد الناصر حسين، بعد الاسكندرية واسيوط كان ضربة قاسية له والبقاء فيها مدة ثماني سنوات يعني ان هذا المواطن الذي جاء من بني مر ، لم يكن له اصدقاء ذوو نفوذ ، ولا من يدعمه في مديرية البريد .

وبالنسبة لزوجته الشابة الست فهيمة ابنة المقاول محمد حماد ، كان وجودها في هذه البلدة شبه منفى وتجربة قاسية لها . لقد كانت معتادة على الحياة البلدية المنطلقة المتلونة في الاسكندرية التي ظلت منذ تأسيسها مدينة نصف هلينية .

واذا كانت اسيوط تبدو بالنسبة الى الاسكندرية مدينة داخلية صغيرة، فان الخطاطبة كانت قرية محرومة من كل شيء ، على حافة الصحراء كان يمر بها خط حديدي ثانوي يربطها بالقاهرة - بدمنهور - ويؤمن المواصلات بين القرى الواقعة غربي النيل ، ومن الخطاطبة يخرج الخط الحديدي الضيق للشركة الانجليزية « صالت اند صودا » -الملح والصودا - الذي يتوغل في الصحراء مسافة ستين كيلومتراً ليصل الى واحة وادي النطرون ، ببحيراتها المشبعة بالملح والنطرون ، ووادي النطرون هذا كان يسمى من قبل المسيحيين الاقدمين صحراء « سيته » واليه كان يلجأ الاقباط الذين بنوا خلال القرن الرابع عدة اديرة محصنة .

لا اعتقد ان الموظف البريدي عبد الناصر حسين كان يهتم بأثريات وادي - النطرون القبطية - ولا بخرائب نوكراتيس الواقعة في نصف الطريق الى دمنهور ، ويجب الا ننسى ان نوكراتيس قبل الاسكندرية هي اكبر مستودع يوناني في مصر ، وقد تأسست في عهد الفرعون « بسامتيك » في القرن السابع قبل الميلاد ، وكان لها ملاعبها ومدارسها

وهياكلها للآلهة زوس ، وحيرا ، وابولون .

ولم يكن يخطر في بال عبد الناصر حسين او احد ابناء الخطاطبة ان علماء الآثار المصريين والنمساويين سيكتشفون بالقرب من القرية في « هريمدا » و « كوم حمادة » ، مركزاً من مراكز ما قبل التاريخ المشهورة عالمياً ، ومقبرة الدولة الوسطى . كلا ان مشاغل عبد الناصر حسين كانت اكثر واقعية ، ولم يكن ليهمّه الا ان يزود ابنه جمال بالعلوم الضرورية التي تتيح له ان يصبح موظفاً في وادي النيل ، حيث يتزايد السكان بكثرة ، وحيث يتعرّض الموظف البريدي للنقل من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب ، بناء لرغبة مديرية البريد .

كان جمال قد التحق بمدرسة اسيوط الابتدائية ، وتابع في مدرسة مديرية سكة الحديد في الخطاطبة دروسه طيلة سنتي ١٩٢٣ و١٩٢٤ ، ثم ارسل الى القاهرة حيث يُقيم عمّه خليل حسين الذي ادخله الى المدرسة الابتدائية في سوق النحاسين .

مدرسة ابتدائية وثلاث مساجد لسلاطين المماليك

ثلاثة

ارسل جمال عبد الناصر في السنة السابعة من عمره الى العاصمة ليعيش في كنف عمه خليل حسين ، وعمّه هذا موظف في وزارة الاوقاف ، وكان لا يكتفي بالعيش من راتبه المتواضع لذلك كان يستفيد من اوقات فراغه فيعمل في التجارة ، لا سيّما في سمسرة الاراضي ، وبما انه لم يرزق اطفالاً فقد حوّل كل عطفه وحنانه واهتمامه الى ابن اخيه :

لقد حاولتُ التعرّف الى خليل حسين للحصول منه على تفصيلات عن ابن اخيه في يفاعته فلم انجح ، لقد اتّصل به مراراً تلفونياً من قبلي احدُ اصدقائي المصريين ، ان خليل حسين الذي لم يعد موظفاً ، بل نائباً عن ابنوب في مجلس الامة ، كان منهمكاً جداً في امر تأليف الاتحاد القومي في مصر ، لذلك هو في سفر دائم ، انه اليوم في اسيوط ، وغداً في القاهرة لاربع وعشرين ساعة بالقرب من زوجته الاولى ، وبعد غد في الاسكندرية حيث تُقيم زوجته الثانية ، وفي مساء احد الايام أجاب صديقي الذي طلب منه موعداً لي : « يجب ان اتناول الفطور مع الرئيس غداً ، فاذا سمح لي بالمقابلة اكون مسروراً بلقـاء السيد فوشيه » . وفي اليوم التالي قال على الهاتف : « ان الرئيس لم يُمانع ولكنه مضطرٌ الى الذهاب الى اسيوط بعد بضع ساعات . » وبعد ذلك

اصبح من المستحيل اللحاق به .. وبعد ان قطع صديقي امله من الهاتف، حاول ان يطرق بابه ليشرح له رغبتي فوجد على مدخل البيت شرطياً اخبره انه لا يستطيع ان يسمح لاحد بالدخول الا بناء على اذن مسبق، وهكذا تخليْتُ انا وصديقي عن فكرة مقابلة نائب ابنوب ، بعد ان تعذّر الاجتماع به .

تقوم المدرسة التي وَضَعَ فيها خليل ابن اخيه في اجمل احيـاء القاهرة على خطوات من السوق التجاري خان الخليلي بالقرب من جامعة الازهر .

بعد ان يجتاز المرء سوق الصاغة الذي تزدان محلاته وواجهاته بالحلى يصل الى سوق النحاسين ، وهناك فى زاوية الشارع المسمّى بيت القاضي ، بالقرب من القصر القديم الذي بناه السلطان بيبرس ينتصب بناءٌ بنوافذه الواسعة المحددة ، انه بناءُ مدرسة النحاسين الابتدائية التي قضى فيها جمال عبد الناصر ثلاث سنوات .

ان جوّ الحي مؤثّر . فمن جهة نرى مسجد للسلطان نجم الدين ، وبقايا مسجد السلطان بيبرس ، وقبالة المدرسة بالضبط تقوم مجموعةٌ من مساجد ومقابر للمماليك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

هذا اولاً جامع السلطان قلاوون الذي ضم اليه مستشفى كبير يدعى، المارستان ، ثم يأتي جامع ابنـه الملك الناصر ابن قلاوون الذي تولّى الحكم ثلاث مرات .

ان المسجد مدهش حقاً ، وفيه اربعة اعمدة من الغرانيت الوردي ، متداخلة مع اربع دعائم مربعة ضخمة من الحجر الاصفر بشكل مثمّن تحمل القناطر المصنوعة بشكل دانتيلا ويُنير صف من النوافذِ التوأمةِ المائلةِ المحرابَ الرائع ، وفي الوسط كوةٌ من الموزاييك محاطة باطار من الحنايا الرخامية الدقيقة تقوم على اعمدة تشبه بتيجانها الكؤوس .

ان السلطان قلاوون مشهور في التـاريخ ، لقد سحق سنة ١٢٨١

جحافل المغول قرب حمص بعد ان استولى هؤلاء على حلب ، وهدّدوا سورية ومصر بالدمار . وابنه خليـل هو الذي هزم الصليبيين واستعاد منهم عكا الحصينة ، آخر معقل لهم في الشرق ، وابنه الآخر محمد ناصر اصبح سلطاناً وهو يافع ، ولم يكن في البدء سلطاناً الا بالاسم ، وكان يحكم بالفعل الاميران القويان سالار وبيبرس ، اللذين تميّزا بالقسوة والفظاعة ، وقد سبق واشرنا الى هاتين الصفتين عندما تكلمنـا على اضطهاد المماليك لعرب الصعيد .

ويقول المؤرخون ان هذين الاميرين قد ارغما السلطان النـاصر ابن قلاوون على التنازل عن العرش. وبعد موت بيبرس استعاد الناصر عرشه وسجن سالار في زنزانة مظلمة ، وتركه يموت من الجوع والعطش ، ويروى انه ارسل الى زنزانة السجين ثلاثة عبيد يحملون ثلاثة اطباق مغطـاة بالحرير ، وعندما كشف سالار الاغطية وجد ان الطبق الاول يحوي فضة ، والثاني حجارة كريمة ، والثالث لآلي ثمينة .

وفي اليوم الثاني عشر وجدوا الامير سالار قد فارق الحياة واسنانه تشد على اصابع يديه .

لقد حكم الناصر ابن قلاوون مصر فترة طويلة كلُّها امجاد وانتصارات، وفي عهـده كسرت شوكة المغول مرّة ثانية ، بعد ان حاولوا العودة الى سورية ، وعلى اثر هذا الانتصار اعدّت له القاهرة استقبالاً حافلاً منقطع النظـير . فاقيمت اقواس النصر في الشوارع وازدانت البيوت بالحرير وغُطي شارع باب النصر بالسجاد. والاسرى الذين بلغ عددهم الف وستمائة كانوا مكبّلين بالحديد يمشون امام السلطان يحملون في اعناقهم رؤوس رفاقهم الذين قتلوا اثناء المعركة .

والمماليك عامة هم هؤلاء العبيد التركمان الذين ارتقوا من مرتبة الجنود المرتزقة الى سدة الحكم ، وقد كتب المقريزي عنهم يقول ... « لقد زرعوا الفوضى في مصر ، هاجموا السكان وخنقوهم ونهبوا ثرواتهم

وخطفوا نساءهم واولادهم ، دون ان يجرؤ احد على منعهم وكانوا يدخلون عنوة المنازل حتى الى الحمامات وينتزعون منها النساء بالقوة ، وقد ارتكبوا حماقات وقاموا باعمال مخزية ما كان الفرنج ليعملوها لو اتيح لهم ان يتحكموا بالبلد .

وكان بين المماليك الذين يرجع اكثرهم الى التركمان والجركس عناصر بلقانية ، وحتى يونانية وايطالية وجرمانية ، واذ كانوا قد امتازوا بالعنف والقسوة والشدة ، فهذا لم يمنعهم من بناء امبراطورية مترامية الاطراف ، وتشييد المساجد الرائعة ، وقد وصف ابن خلدون عاصمتهم بما يلي ... « ان من لا يزور القاهرة لا يعرف عظمة الاسلام .. انها عاصمة العالم وجنته ومجمع الاجناس البشرية ، وعرش الملك . انها مدينة مزدانة بالقصور الفخمة وتكيات الدراويش والكليات، تشع منها انوار المعرفة .. »

والى جانب جامع السلطان الناصر ابن قلاوون يقوم جامع السلطان الشركسي برقوق ، وبالقرب منه نبع عبد الرحمن الذي تمثل فيسفساؤه صورة شاملة لمكة المكرمة .

مما لا ريب فيه مطلقاً ان التلاميذ الصغار في مدرسة النحاسين الابتدائية كانوا لا يعلمون الا القليل عن هذه المباني التاريخية التي تمثل امجاد الحي ، ولكن مهما يكن من امر هذا المحيط العجيب فلا بد له من ان يترك اثراً له في خصال الاولاد الذين يشبّون فيه .

لقد بدا الاسلام لهم كحقيقة تاريخية مجيدة ، رغم فترة الانحطاط التي تلت حكم الخلفاء السلاطين .

ان باب النصر ، وباب الفتوح ما زالا قائمين عظيمين بابراجهما الضخمة ، ونقوشهما الكوفية التي تعود الى عهد الفاطميين ، وقد تحوّلا الى قلاع في ظل الاحتلال النابوليوني واصبح في الامكان الانتقال من باب الى آخر على السور .

ومدرسة النحاسين الابتدائية التي تعلم فيها جمال عبد الناصر اصبحت مدرسة بنات ولم اجد فيها أي اثر للرئيس في عهد التلمذة ، والمدير الذي كان يتولى شؤونها سنة ١٩٢٤ توفي ، وخلفه يعيش اليوم متقاعداً على حساب الدولة بعد الخدمات الجلى التي اداها في حقل التربية والتعليم، وقد استطعت ان اقابله ولكنه لا يعلم شيئاً .

حسب ما جاء في رواية مجلة المصور عن جمال عبد الناصر يفهم انه في سن السابعة او الثامنة ، كان قوياً ، وذا قامة اطول من قامات رفاقه . وكان ميالا الى الوحدة والتأمل ، كان يميل الى اهمال مأكله ومشربه وملبسه ودروسه ؛ وأمه التي كان شديد التعلق بها ، كانت تقلق عليه وتسهر على إطعامه وتدريسه .

كان جمال عبد الناصر يذهل والديه بافكاره الجريئة وغير الاعتيادية ، ففي احد الايام أثناء اقامتهم في الخطاطبة وعلى مائدة الطعام ، سأل والده بخشونة .. « والدي لماذا نأكل نحن اللحم ، بينما الرعاة الذين يربون الغنم لا يأكلونه ؟.. »

توقف الوالد عن الطعام وتأمل ابنه ، ان شقاء البدوي الذي لا أرض له ليس في نظره شذوذاً ولم يلفت له انتباهه . لقد تعود ان يرى اصحاب الاملاك الميسورين يأكلون كل يوم والرعاة البائسين يقتاتون بقطعة من الخبز الاسود مع قليل من الجبن والاعشاب ، والموظف الصغير الحسن الهندام كان أقرب الى الملوك من الراعي ، فهو يأكل جيداً ويشكر الله على ذلك ، دون ان يحتج على عدم توزيع الثروات توزيعاً عادلا ، لذلك لم يجد ما يجيب به ولده سوى قوله .. « هكذا صنع الله العالم ... »

غير ان جمال عبد الناصر لم يقتنع بهذا الجواب ، ونمت في نفسه روح الانتقاد ، وفي القاهرة عاش منكمشاً على نفسه لا يميل الى مشاركة رفاقه في العابهم ، لانه كان يشعر بأنه أكبر سناً منهم ، ومع ذلك

كان في حاجة الى الانطلاق ، لذلك كانت رسائله الى أهله مجالا يعبّر فيه عن مشاعره ويطرح اسئلته ، ويبدي قلقه امـام الفوارق الاجتماعية التي كان يشعر بها في المدينة الكبرى حيث شقاء المنسيين المحرومين فيها يجاور بذخ الباشاوات وترفهم .

طالب محروم من حنان الام

كان جمال يقرأ بلهفة وشوق الرسائل التي ترده من والديه ، وكان يتبادل الرسائل مع أمه بصورة خاصة ، وكانت امّه الست فهيمة فخورة بابنها اليافـع . واكثر من والده ، كانت تفهم نفسيته القلقة وتخوّفه وحذره . وعندما كان يعود الى الخطاطبة اثناء العطل المدرسية كانت تحيطه بحنانها وعطفها ، وتخرجه بذلك عن انكماشه فيبوح لها بمكنونات نفسه ، وعندما يكون في القاهرة ، كانت تكتب له دائماً . ولا يستطيع ولد مثله في الثامنة من عمره على الرغم من عطف عمه ، الا ان يشعر بالوحدة في هذه المدينة الكبيرة ولو كان في بني مر لوجد حوله كل أبناء عائلة سلطان ، ولو كان في الاسكندرية لوجد نفسه محاطاً بعائلة أمه . ولكنه في القاهرة كان في غير سربه . وكالغرسة التي تنقل من المشتل الى البستان ، كان في حاجة الى العناية والعطف ، وكل رسالة من والدته كانت بمثابة نفحة من الاوكسجين تفتح له قلبه وتجـدد له نشاطه .

وفجأة في أواخر نيسان سنة ١٩٢٦ ، انقطعت رسائل امه . وكتب له والده يقول بان الوالدة منهمكة في أمور البيت وتربية أخويه الصغيرين: عز العرب والليثي . وقد ذهبت من أجل ذلك الى الاسكندرية حيث اهلها.

لقد اكتأب الصبي ولم يرد ان يفهم شيئاً من كل ذلك واستمرّت الكتابة لها .

ولدى انتهاء السنة المدرسية عاد التلميذ الى قرية الخطاطبة ليكتشف فجأة ان أمه قد ماتت ، لقد اصابها المرض في تلك القرية النائية ، فنقلت الى الاسكندرية لتلقى العناية اللازمة ، ولكنها لم تنجُ ، وفارقت الحياة ودفنت ، واخفى الوالد هذا الخبر المفجع عن ابنه جمال خوفاً عليه في غربته .

لقد كانت الصدمة قوية ، بالنسبة للصبي الصغير . ولم يستطع ان يقتنع بأن والدته ذهبت الى غير رجعة .

ويروي المقربون منه ان والده في أحد الايام فاجأ ابنه البالغ من العمر تسع سنوات يحفر حفرة في الأرض قرب المنزل ، فطلب اليه ان يطمرها ، وفي اليوم التالي رأى الوالد الحفرة قد ازدادت عمقاً ، وكان جواب الصبي أغرب ما سمع منه . اذا قال له ابنه ... « لقد أردت ان ارى ماذا تخبىء هذه الارض التي منها خرجنا واليها نعود . » فوقف الوالد مذهولاً امام ابنه لا يدري ماذا عليه ان يقول .

ان موت والدته المبكر كان فاجعة لجمال ، فقد اضطربت نفسه واظلمت الدنيا في وجه هذا اليافع ، وفي كتاب « ثورة على النيل » يروى انور السادات كيف عرف جمال عبد الناصر سنة ١٩٣٨ ، في ثكنة منقباد حيث يزاولُ الملازمون المتخرجون حديثاً في الكلية الحربية تمارينهم الاولى على السلاح .

ومما يقوله في هذا الصدد : « لقد كنا جميعاً ننتسب الى الفوج نفسه ، وكان جمال عبد الناصر يعيش معنا ومثلنا ولكنه كان يبدو كئيباً ، دائم التفكير ، رزيناً ، متحفظاً ، وكنا لا نكاد نبدأ في المزاح حتى يقاطعنا ليعيدنا الى الأمور الجدية . ان موت والدته كان جرحاً في نفسه ، وكان دائماً يحمل هذا الحزن الذي جعله يحس مبكراً جداً بالآلام الانسانية ويعود نفسه على تحمل غائلات الدهر بثبات ، ان قلبه يعمر بالمحبة والعطف على جميع اولئك الذين يتألمون ! »

وهكذا اذن ، بعد مرور اثنتي عشرة سنة على وفـاة امه ، كان جمال عبد الناصر لا يزال يحمل آثار الحزن واليأس اللذين بعثهما هـذا الموت المبكر في نفسه الفتية . والتعزية التقليدية ، والايمان بوجود حياة ثانية يعوض فيها الانسان عما صادفه في حياته هذه من ألم وحزن ، كل ذلك لم يكن ليُقنع جمال عبد الناصر الواقعي بالصبر : انه لم يكن من اولئك الذين يستسلمون بسهولة وبسرعة الى القول « ما كتب قد كتب » ويتعزون بسرعة ، لقد شعر بالموت بكل ما فيه من قساوة وقحة ، وبعد ذلك ، بدأ في نشاطه الثوري ، كان جمال عبد الناصر يستخدم كل ما لديه من نفوذ شخصي للحيلولة دون الحكم بالموت على أحـد ، حتى تكون الثورة المصرية أقل الثورات دماء .

ثورة التلامذة

في صيف سنة ١٩٢٨ أنهى جمال عبد الناصر سنته الثالثة الابتدائية ، في مدرسة النحاسين ، كان أبوه لا يزال يدير مكتب الخطاطبة للبريد ، فارسل له إحدى عمـاته من بني مر الى القاهرة لكي تقوم برعايته ، ثم تزوج الاب ثانية ورزق ابناً رابعاً سماه شوقي . كما رزق غيره من بعده ، واصبح عبد الناصر والداً لاحد عشر ولداً .

ان موت الام ، ودخول زوجة جديدة الى البيت جعلا حياة جمال سوداء قاتمة . نعم ان عمه خليل كان يحبه كثيراً ، ولكن عمـله في وزارة الأوقاف كان يضطره الى السفر احيانـاً الى الملحقات . لذلك عندما بدأ جمال سنته الرابعة الابتدائية أُرسل الى الاسكندرية ليعيش في كنف جده لامه محمد حماد وينهي سنته في مدرسة العطارين .

وفي خريف سنة ١٩٢٩ نقلت مديرية البريـد عبد الناصر حسين الى مدينة « كوم حمادة » الصغيرة الواقعة شمالي الخطاطبة ، فنقل ابنه من الاسكندرية وألحقه تلميذاً « داخلياً » في مدرسة حلوان الثانوية ، جنوبي القاهرة . ثم نقل الوالد من جديد الى الاسكندرية ، وصار في امكان الفتى ان يعيش مع أسرته من جديد ، فالتحق بمدرسة رأس التين الثانوية . وفي هذه المدرسة فتح جمال عبدالناصر عينيه على السياسة ، وكلفه ذلك

ان تلقى عدة ضربات بالهراوة اثناء مظاهرة قام بها الطلاب ، كما كلفه الحرمان من الاشتراك في الامتحانات النهائية للسنة المدرسية .

لقد دهش الناس ، لا سيما المفكرون منهم ، من الدور الذي لعبه الطلاب ، خاصة التلامذة اليافعون في معركة مصر من اجل الاستقلال ، ولو علموا ان المبادرة لا بد من ان تنتقل الى الاجيال الفتية اذا ثُبطت همة الكبار لزالت دهشتهم .

بعد ثورة عرابي باشا الفاشلة ، سنة ١٨٨٢ ، خبا مشعل الوطنية في مصر مدة ربع قرن . في ذلك الحين عاد من فرنسة شابٌ في العشرين من عمره يدعى « مصطفى كامل » ، درس الحقوق في جو من الحرية ، وعلى يديه اشتعل لهيب الحركة الوطنية من جديد . لم يستطع هذا الشاب المثقف الثائر ان يحتمل الذل والعبودية اللذين كبّلا مصر ، فأخذ يكافح ويناضل . وباتصالاته الشخصية وصحيفته « اللـــواء » استطاع مصطفى كامل ان يُحيي أمل الاستقلال لدى الجيل الشاب الذي تأثر ايضاً من ناحية أخرى بالرسالة الروحية (السامية) التي حمل لواءها جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمده عبده . وعندما حصل حادث دنشواي وأعدم اربعة من الفلاحين وجلد عشرون غيرهم ، كان الشباب أول من تحرك في مصر ثم تبعتهم البـــلاد كلها وأرغمت اللورد كرومر على تقديم استقالته .

في سنة ١٩١٩ نهضت مصر تطالب بالاستقلال مستندة الى حـــق الشعوب في تقرير مصيرها ، هذا الحق الذي أعلنه الحلفاء خلال الحرب العالمية الاولى . فنفي سعد زغلول مع ثلاثة من رفاقه الى مالطة .

وكان ان هبّت البلاد هبّة واحدة . والواقع الذي لا ريب فيه ان الشباب كانوا أكثر المتحمسين للتظاهر ضد الاحتلال ، وقد تظاهر آنئذ أكثر من ثلاثة آلاف طالب في شوارع القاهرة ، ولم تتمكن رشاشات روسل باشا من منعهم ، على الرغم من ان الرصاص حصد منهم في

ميدان السيدة زينب خمسة ..

في رواية « عودة الروح » التي قرأها جمال عبدالناصر بشغف فيما بعد ، وصفَ الاديب توفيق الحكيم هـذه المعجزة التي حوّلت فتيان مصر الوادعين ، المنصرفين الى دروسهم ، ومشاكل قلوبهم ، فجأة الى وطنيين متحمسين ؛ يُسهمون مساهمة فعالة في ثورة الشعب المندلعة فقال :

« كان محسنُ في صباح اليوم المشهود في فصله ، وإذ أحد التلاميذ قد أقبل وهو يلهث ... وكلما صادف في طريقه احداً لفظ بضع كلمات سريعة بلهجة خطيرة فتتغير وجوه السامعين . حتى بلـغ الخبر مسامع محسن .. وما كاد يفكر فيه وفي معناه حتى ألفى المدرسة بأجمعها حوله تتهامس وتتناقش وتتساءل ! ودُق الجرس فلم يأبه له أحد .. أمر عجيب إذ ذاك في تاريخ المدارس .. ان يحتشد الطلبة هكذا وفي ملامحهم معنى واحد هائل ، يدعون الى الدرس فلا يجيبون .. كأنما هو يوم القيامة .

« كان الجميع يتحدثون عن رجل لم يسمع به محسن من قبل .. ولكنه أحس في لحظة ان حياته يجب ان تُعطى لهـذا الرجل . واذا الحماسة تبلغ به الى حـدّ الهتاف في رفاقه التلاميذ ان اتركوا المدرسة واخرجوا لملاقاة زملائكم طلبة المدارس الاخرى .. فانّ الأمر أجلّ من ان نشتغل بغيره الساعة . ولعلّ هذا كان نفس احساس رفاقه .. فاذا الجميع يهرعون الى باب المدرسة . ولم تمض دقائق معدودة حتى كانت المدرسة بأجمعها سائرة في الطريق .. وخطر لمحسن ان يذهبوا لملاقاة مدرسة الهندسة حتى يجتمع بغيره ، ولأن هذه المدرسة قريبة منهم . إلا أنهم ما كادوا يسيرون قليلا ، حتى لمحوا حشداً من الطلبة مقبلاً عليهم ، فتبينوه فاذا هم طلبة الهندسة خرجوا ايضاً ، واذا ـ محسن ـ لدهشته يرى على رأسهم عمه عبده يلوح بذراعيه ويهتف صائحاً ، وقد احمرّ وجهه وقطب حاجبيه ، وفي رنين صوته ما يدل على هياج عصبي

عظيم . وانضمت المدرستان احداهما الى الاخرى ، وسارتا لملاقاة المدارس الاخرى .

« واقترب محسن من عبده ، ووضع ذراعه تحت ابطه ، وسارا معاً يهتفان .. وبين الضجيج والاصوات الراعدة كان عبده يسأل محسن :
– خرجتم ازاي ؟.. فيجيبه محسن بكل بساطة : زي ما خرجتم انتم ..
« ولعل هذا السؤال وذاك الجواب تبودلا مراراً عدة بين جميع الطلبة وجميع المدارس .. وبين كل طبقات الشعب .. ان كل فئة وطائفة كانت تحسب نفسها البادئة في القيام .. الشاعرة بالعاطفة الملتهبة الجديدة . ولم يفهم احد اذ ذاك ان هذه العاطفة انفجرت في قلوبهم جميعاً في لحظة واحدة .. لأنهم كلهم ابناء مصر لهم قلب واحد .. »

« ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار . واذا اربعة عشر مليوناً من الانفس لا تفكر إلا في شيء واحد : الرجل الذي يعبر عن احساسها .. والذي نهض يطالب بحقها في الحرية والحياة قد أخذ وسجن ونفي في جزيرة وسط البحار .

« وكذلك أوزوريس الذي نزل يصلح ارض مصر ويعطيها الحياة والنور أخذ وسجن في صندوق ونفي مقطعاً إرباً في اعماق البحار !.. »

وانقلبت القاهرة رأساً على عقب ، فأغلقت الحوانيت والمقاهي والبيوت وقطعت المواصلات وعمت المظاهرات ، وقام نفس الهياج في جميع ارجاء الاقاليم والارياف . وان الفلاحين الاشداء لأشد من أهل المدن في إظهار احتجاجهم وغضبهم ، فلقد قطعوا الخطوط الحديدية ليمنعوا وصول القطارات المسلحة ، واحرقوا دور البوليس .

لقد أجبرت ثورة ١٩١٩ الانجليز على اطلاق سراح سعد زغلول ورفاقه ، وبدأت المفاوضات . ونُفي الزعماء الوطنيون من جديد ، وكانت جزيرة سيشل هذه المرة مقرهم . وبالمقاومة السلبية والحملة الدعائية العالمية ومقاطعة البضائع الاجنبية استطاعت مصر ان تحصل على

بيان في الثاني والعشرين من شباط سنة ١٩٢٤ اعترفت فيـه انجلترة بالاستقلال والسيادة مع تحفظات قد يُتيح لها المستقبل ان تتخلى عنها .

في هذه الثورة الوطنية التي دامت ثلاث سنوات لعب الشباب دوراً كبيراً. ان بطل رواية «توفيق الحكيم» التلميذ محسن الذي ترك مدرسته ليتظاهر وينقذ مصر ، قد ساعد جداً على خلق حالة نفسية تنمي المقاومة. وزاد أوار الوطنية في نفوس المصريين اشتعالاً ، حتى ان البريطانيين لم يجرؤوا على اطفائه ، ولو كان المحتلون من المماليك الذين انعدمت لديهم كل شفقة لغرقت ثورة التلاميذ والطلاب في الدماء .

وغداة الحرب العالمية الكبرى التي قيل انها حررت العالم من الطغيان كان من المستحيل على الانجليز حصد التلامذة المتظاهرين بالرصاص ، والسبب يكمن في ان الرأي العام البريطاني كالرأي العام العالمي ، كان لا يقبل عملاً كهذا .

من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٠ ، وهي السنة التي ظهر فيها جمال عبدالناصر في المعترك السياسي تلقنت مصر أصول الاستقلال ، كان عليها ان تناضل بلا انقطاع ، للمحافظة على الامتيازات التي حصلت عليها ، وحمل بريطانيا على التنازل عن تحفظاتها بشأن الاستقلال . وفي الوقت ذاته كانت المعركة مستمرة بين القصر وانصار الديمقراطية والتحرير . إذ ان فؤاد الاول الذي أعلن ملكاً كان يميـل الى اعتبار نفسه مصدر السلطات ، كما أعلن بعض طلبة الازهر سنة ١٩٢٤ ، بينما كان جماعة الوفد والاحرار الدستوريون يؤكدون ان الشعب هو مصدر السلطات .

لقـد استوحي دستور سنة ١٩٢٣ الذي وضعته لجنة تسيطر عليها أكثرية الاحرار الدستوريين من الدستور البلجيكي ، انه أكثر تحرراً مما أراده الملك الذي وافق عليه ، وبموجبه على الملك ألاّ يحكم إلا بواسطة وزرائه . والملك فؤاد لا يقبل ان يملك دون ان يحكم ، فبدأت سلسلة من الازمات بين القصر والحكومة. اما الشبيبة الجامعية المتفتحة على الحياة

العصرية فقد وقفت بصورة عامة الى جانب المدافعين عن النظام البرلماني الديموقراطي . وعندما عُلق الدستور اضرب الطلاب وتظاهروا .

ان الخلاف مع انجلترة بصورة خاصة هو الذي كان يُثير حفيظة طلاب الجامعات والكليات . اذ ان هذه الدولة التي احتلت مصر فعلا منذ سنة ١٨٨٢ قد فرضت حمايتها عليها منذ سنة ١٩١٤ لدى زوال التبعية التركية . واعلان الاستقلال سنة ١٩٢٢ كان عملاً من طرف واحد لان مصر قبلت الناحية الايجابية منه ورفضت الاقرار بالتحفظات .

وأما التحفظات التي تمسكت بها بريطانية فهي ما يلي :

أ – سلامة خطوط المواصلات للامبراطورية البريطانية في مصر .

ب – الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء خارجي ، وضد أي تدخل مباشر أو غير مباشر .

ج – حماية المصالح الاجنبية في مصر وحماية الاقليات .

د – السودان .

وفي انتظار اتفاق الطرفين حبياً على هذه النقاط الاربع ، اصرّت بريطانية على ضرورة الابقاء على الوضع القائم ، اي فرض إرادتها ، وسيطرتها على مصر ، على الرغم من اعترافها الشكلي بسيادة هذا البلد ، وقد خلقت هذه التحفظات وضعاً شاذاً ثارت له كرامة الوطنين المصريين . وكان يجب الخروج من ذلك الوضع الشاذ باتفاق معقول .

وبدأت سلسلة من المفاوضات المثيرة ، وكثيراً ما كانت تنقطع بعد ايام لتطول شهوراً طوال دون نتيجة حاسمة . وفي انتظار الوصول الى حل ، بقي الجيش البريطاني يحتل الاراضي المصرية وفي ذلك ما فيه من اسباب النزاع والاغضاب . لقد كان جسماً غريباً اجمعت الهيئات السياسية الوطنية على ازالته .

كان بين الشبيبة عدد ضئيل من الطلاب الذين تلقوا دروسهم في المدارس الاجنبية او ممن أرسلوا في بعثات مدرسية الى الخارج ، وهؤلاء

قبلوا بالأمر الواقع ، وكانوا يعتقدون ان بريطانية دولة قوية ، والمفاوضات ان هي الا مسرحيات هزليـة ، والجيش البريطاني لن يخرج من مصر لان ملكية قناة السويس ضرورة قصوى لبريطانية من اجل تأمين المواصلات بينها وبين امبراطوريتها . ثم اذا جلت بريطانيا عن مصر : فأن ايطالية الفاشستية او أي دولة أخرى ستأتي لتحل مكانها في هذا البلد الذي هو نقطة التقاء الطرقات بين الشرق والغرب .

أما الاكثرية الساحقة من الطلاب فلم تكن تفكر هكذا ولم تكن لتقبل احتلال مصر من قبل جيوش اجنبية وكانت تثور ضد ادعاء بريطانيا وعزمها على ابقاء وصايتها السياسية على مصر . ان المصري الشاب مضياف بطبيعته ، ويتودّد الى رعايا القوميات الاخرى ، ولا يحمل في نفسه أية نزعة عنصرية ، ولكن ادعاء بريطانية بضرورة حماية المقيمين الاجانب والاقليات خلق موجة من الكراهية للاجانب ، والتشدد معهم . والطلاب الذين كانوا يُسرون بمعاشرة اساتذتهم ورفاقهم الاجـانب ، اصبحوا يشعرون بالخجل والذل من جراء ذلك ، وبعملهم هذا كانوا يعبرون عن وطنيتهم .

وأخيراً لم يجدوا بدأً من تنظيم المظاهرات في شوارع القاهرة والاسكندرية حيث ارتفعت الهتافات « لتحيَ مصر وتسقط بريطانية »

كان الكبار يعتقدون ان هذه المظاهرات لن تؤدي الى شيء ، لذلك شجبوها . اما اذا تدخلت الشرطة او بصورة خاصة ، اذا حاول الجيش البريطاني ان يمنع المظاهرات باستعمال الهراوات او البنادق ، فان الرأي العام كان يثور ويرغي ويزبد لان الشعب المصري مـا كان ليقبل ان تُساء معاملة ابنائه الذين يعبرون عما يجيش في نفوس المصريين جميعاً ، هكذا كانت المظاهرات الطلابية والتلاميذ تثير موجات مفاجئة من الغضب والهيجان والاصطدامات ، ممّا يحمل الشرطة والجيش على محاولة قمعها تارة بالقوة ، واخرى بالاحتياطات المناسبة .

لم يحدث في سنة ١٩٣٠ ثورة وطنية عارمة ، تشمل طبقات الشعب كلها كما حدث سنة ١٩١٩ ، لان الكبار كانوا قد دخلوا حلبة اللعبة البرلمانية ، وهم يعبرون عن وطنيتهم باعطاء اصواتهم لحزب الوفد او للحزب الوطني . وعندما كان الملك يحل البرلمان الذي تسيطر عليه اكثرية وفدية او يُقيل حكومة بعد تعيينها بساعات او يعلق الدستور ، كان العقلاء يكتفون بالاحتجاج في الصحف . اما الطلاب فكانوا يلجأون الى التظاهرات في الشوارع .

ففي أول كانون الثاني سنة ١٩٣٠ وصل النحاس خليفة سعد زغلول في رئاسة حزب الوفد الى الحكم تسانده اكثرية ساحقة . وبدأ سلسلة جديدة من المحادثات مع بريطانيا للوصول الى اتفاق مشرف متين ، من شأنه تقوية اواصر الصداقة بين مصر وبريطانية ، ففشلت المفاوضات .

وكان يرافق النزاع مع بريطانية نزاع مع القصر ، اذ ان الملك فؤاد كان يعارض في نشر قانون يقضي بمحاكمة الوزراء الذين يقبلون الاشتراك في الحكم في ظروف لا يقرها الدستور ، واضطر النحاس الى تقديم استقالته في التاسع عشر من حزيران سنة ١٩٣٠ ، فكلف الملك اسماعيل صدقي بتأليف الحكومة الجديدة ، ثم حلّ البرلمان وعلق دستور سنة ١٩٢٣ ، وحكم بموجب قرارات تشريعية ، ثم امر بسن دستور جديد اقل ديموقراطية من دستور سنة ١٩٢٣ ، آنئذ اكتفى زعماء الاحزاب بالاحتجاج في الصحف ، اما الشبيبة من جانبها ، فقد تظاهرت في شوارع القاهرة والاسكندرية ، وفي ساحة المنشية في الاسكندرية اصطدم طلاب المدارس الثانوية بالشرطة ، فهتفوا « لتحيَ مصر » فأجابهم رجال الشرطة بضربات الهراوات .

لقد تلقى التلميذ اليافع جمال عبد الناصر في تلك المظاهرة ضربة قوية على وجهه ادمته . ولكنه استمر يصرخ « لتحيَ مصر » وتلك الضربة تركت جرحاً في صميم قلبه لانها كانت من اخوان له في الوطنية ،

لا يشعرون بمسؤوليتهم وبوجودهم كمواطنين. لقد لاحظ بكل مرارة ان الذين شاركوا المواطنين ثورتهم سنة ١٩١٩ اصبحوا اليوم باسم الدفاع عن النظام والقانون اداة في ايدي الانجليز وهكذا اصبح جمال عبد الناصر ثورياً.

لقد حكم اسماعيل صدقي مصر ثلاث سنوات بالحديد والنار. وحصل بمهارته الدبلوماسية على بعض التنالازت الجزئية من بريطانيا. انه رجل مال واعمال، بارع، استطاع ان يطور الصناعة المصرية ويحرر اقتصادها الى حد ما، من التبعية الاجنبية ولكنه لم يكن ليقبل ان يتدخل الطلاب والتلامذة بالسياسة. اذن لا مظاهرات، وكان على جمال عبد الناصر ان يكبح جماح نفسه الثائرة:

من مدرسة رأس التين الثانوية انتقل جمال عبد الناصر الى مدرسة الفريدية حيث درس سنتين:

وفي سنة ١٩٣٣ نُقل عبد الناصر حسين الى القاهرة. وذهبت معه عائلته الى العاصمة. وفي مدرسة النهضة الثانوية في حي الظاهر اكمل جمال عبد الناصر دروسه.

وعن هذه المرحلة من حياة الرئيس البطل اعطى مؤرخ مجلة المصور بعض التفصيلات حيث قال في مقال خاص ... «لقد تشرب الرئيس مبادىء الثورة مع العلوم التي تلقاها ...»

لقد استطعت ان احصل من اساتذته ورفاقه على معلومات اضافية عن مطالعات وسلوك جمال عبد الناصر خلال السنتين اللتين امضاهما في مدرسة النهضة، ولنقل اولاً كلمة عن الحي الذي اقامت فيه عائلة عبد الناصر حسين في القاهرة.

في حي باب الشرقية

في حي باب الشرقية القديم ذي الطرقات الضيقة المتعرجة كأنها معابر نمل او مناجذ شقت البلدية شارعاً عريضاً يربط بين القبة الخضراء وحديقة الازبكية في حي العباسية الذي كان فيما مضى حي الطبقة الارستقراطية ان هـذا الشارع الجديد يضمُ الى جانبه مسجد الامام الشعراوي القديم بواجهته الرخامية التي اضفت عليها السنون شيئاً من السمرة والقطعُ الموزاييكية الشديدة الزرقة ومنارته الشامخة الى العلاء ، التي تدعو الى الصلاة المؤمنين من منطقة « الخورونفيش » و « بني سورين » الواقعتين في الجهة المقابلة من شارع الجيش العريض تلفت حقاً الانظار .

عندما كان والد جمال عبد الناصر يُدير مكتب بريد « خورونفيش » كان الطالب الذي اصبح بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمره يلجأ احياناً ، كما يقولون الى هدوء المسجد وسكونه ليراجع دروسه . وعندما ذهبت لزيارة البيت المجاور، حيث قضى الرئيس جمال عبد الناصر اربعاً من سني شبابه ، اردت ان القي نظرة فاحصة على مكان العبادة حيث لم يكن جمال عبد الناصر يذهب للتعبد فقط ، بل للمطالعة والتأمل.

لقد كان ذلك بعد ظهر يوم من ايام الجمع ، والمؤمنون يدخلون ويخرجون بعد ان يخلعوا او يلبسوا احذيتهم ، من الباب الرئيسي المفتوح

على مصراعيه يرى الداخلُ قبرَ الامام والمنبر الذي تُلقى من عليه الخطب على المؤمنين ، ومن الاعلى يبصر المدرج الذي تجلس عليه النساء تحجبهن عن انظار الرجال الشبابيك الخشبية .

تُرى كيف يستطيع المرء ان يدرس في قاعة كبرى كهذه لا مقاعد فيها ؟...

وبعد ان طفت في ارجاء المسجد ، والقيت آخر نظرة من النوافذ العالية المشبكة التي تطل على شارع الشعراوي ، وقع نظري على فتى في الخامسة عشرة من عمره ، يسير وعيونه مسمرة في كتاب بين يديه متجاهلاً كل ما حوله رافعاً نظره من حين الى آخر دون ان يأبه لما يجري . كان يطوف وكأنه في ميدان مأخوذاً بالكتاب الذي بين يديه ، فقال الصديق المصري الذي كان يرافقني : « هذا جمال » انك ترى بنفسك . « ان التلامذة الفتيان يأتون للدرس في المسجد عندما يكون البيت العائلي ضيقاً او زاخراً بالضجيج . او عندما يشعرون انهم بحاجة الى المكان الفسيح الهادىء » .

على مسافة مئة متر من المسجد دخلت الى ردهة خميس العدس حيث يوجد مكتب بريد الخورونفيش وبالقرب منه البيت الذي سكنته عائلة عبد الناصر .

ان المكتب البريدي موجود في بيت متواضع ، حديث البناء نسبياً ، بين مخزن يهوذي للمواد الكيماوية وبين كنيس يهودي تعلن عنه نجمة داوود وكتابة عبرانية باحرف من حديد .

لقد اشتغل عبد الناصر حسين خمس سنوات في ذلك المكان، وجيرانه اليهود من عائلة صموئيل كانوا يملكون على خطوات من المكتب عمارة من ثلاث طبقات ، حديثة البناء فاستأجر منهم بثلاثة او اربعة جنيهات في الشهر الطابق الثاني الذي يتألف من غرفتين تطلان على الشارع مع شرفة صغيرة تتيح دخول النور الى غرفة داخلية للاستقبال تطل على

الساحة . لقد كانت هذه غرفة الولد البكر ، الغرفة التي درس فيها جمال عبد الناصر وتأمل طيلة اربع سنوات في فتوته ، سنتين في مدرسة النهضة الثانوية ، وسبعة اشهر في كلية الحقوق ، ثم سنة ونصف السنة في الكلية الحربية . من راتب يبلغ عشرة او اثني عشر جنيهاً كان يتقاضاه الأب ، كان ايجار البيت يستهلك الثلث .

ومن المؤكد انه كان على اسرة عبد الناصر حسين ان تعيش اياماً صعبة قاسية ، الامر الذي يتيح لنا فهم السبب الكامن وراء القلق الذي يساور باستمرار قائد مصر الجديدة ، ويجعله يسعى بشتى الطرق الى رفع مستوى المعيشة لدى الشعب المصري .

وعندما نتفحص الكتب التي كان يقرأها الفتى آنذاك، يجب ان نضع في رأسنا ان الذي كان يقرأها هو فتى فقير معدم،يعيش عيشة متواضعة جداً في احد احياء العاصمة الشعبية بعد ان اضطر الى الانتقال عشر مرات من مدرسة الى اخرى بسبب تنقل والده الالزامي بناء على رغبة مديرية البريد .

مطالعات طالب وطني

في سنة ١٩٣٤ كان جمال عبد الناصر يتابع بصورة طبيعية دروسه قبل النهائية في مدرسة النهضة الثانوية الخاصة ، وفي سنة ١٩٣٥ شغله نشاطه السياسي عن المدرسة اذ انه في تلك السنة بلغ مجموع ايام حضوره خمسة واربعين يوماً فقط مما خلق امامه صعوبات جمة للاشتراك في البكالوريا .

الى جانب القراءات التي كان يحبها الطالب في نطاق برنامجه المدرسي ، كان [illegible] الكتب التي تضمها مكتبة المدرسة او التي يستعيرها من اساتذته احمد حسنين القرآني ومرسي الحميدي ونجيب ابراهيم ، وكان الطالب الفتى لا يكتفي بمطالعة هذه المؤلفات العربية والاجنبية مطالعة خاطفة ، بل كان يتأملها طويلاً . ويتمثل ما فيها من افكار فاتحاً عقله لنظريات لم يكن والده او اي من اجداده ليشك فيها .

ويمكننا تصنيف المفكرين الذين قرأ جمال عبدالناصر مؤلفاتهم ، في تلك الفترة من حياته ، ثلاث فئات : فهناك اولاً مؤلفات المفكرين العرب الذين يتحدثون عن تاريخ العرب والاسلام ، وعلى رأسها « المدافعون عن الاسلام » وهو كتاب نشره وقدم له الزعيم الوطني مصطفى كامل

ليذكّر الشعب المصري بماضيه المجيد العريق ، ويصف له عظمة الحضارة العربية ، ويدعو المعاصرين الى احياء هذا التراث وذاك المجد .

ويقول مصطفى كامل بعد ان يروي سيرة النبي العربي محمد (صلعم) وبعد ان يصف كفاحه وانتصاراته يقول : « أي مثل اكثر اقناعاً من مثل محمد (صلعم) ؟؟!! ان عشرين سنة لم تكد تمضي على بدء رسالته ، حتى كان النظام والعدالة يسيطران على الجماعة التي خلقها ، وبعد عشرين سنة أخرى كانت الامة العربية قد أصبحت قوية خلاقة في ميدان الفنون . » ثم يتحدث الكاتب عن كيفية انتقال الحضارة العربية الى اوروبا عن طريق الاندلس ، وأوروبا التي كانت غارقة في سبات عميق ، فاذا بالعلماء والمفكرين والفنانين العرب يعيدون لها الحياة من جديد .

كان الطالب جمال عبد الناصر قد قرأ ايضاً سيرة مصطفى كامل ، وكم مرة توجّه الى المكتبة الوطنية لينقب بين الصحف عن المقالات التي كانت تنشرها للزعيم الوطني المصري .

وهناك كتاب آخر قرأه جمال عبدالناصر ايضاً في تلك الحقبة للكاتب الوطني السوري عبدالرحمن الكواكبي ، وهو اديب اضطهده الاتراك فلجأ الى لبنان ثم انتقل الى مصر حيث أقام حتى وفاته . وكتابه هذا باسم « طبائع الاستبداد » ونشر بدون أية اشارة لاسم المؤلف ، لأنه كان ينتقد بشدة وعنف نظام الحكم التركي الاستبدادي . والطاغية ، في رأي الكواكبي ، هو الذي يحتل بلداً ما ويتيح فيه لأقلية سياسية دينية ان تجمع الثروات الطائلة بالتعاون مع الاقطاعية لابقاء الجهل سائداً . وفي الكتاب يلوم المؤلف الغرب لتحالفه مع الطغاة واستثماره معهم الشعوب المغلوبة على امرها عوضاً عن ان يحررها ويساعدها على اقامة أنظمة للحكم أساسها الحرية والعدالة .

ومن مطالعات جمال « أم القرى » وهي كتاب آخر مغفل ، يتخيل فيه الكاتب مؤتمراً انعقد في مكة واشتركت فيه كل الشعوب الاسلامية ، وفيـه يبحث المؤتمرون عن الاسباب التي أدت الى تخلف الشرق ، والوسائل التي يستطيع بها ان يتخلص من أخطائه ، ويتحرر من النير الاجنبي . ان نظام الحكم ملكي في بعض بلدان الغرب ، ومع ذلك فان هذه البلدان في تقدم مستمر . والمصيبة ، بالنسبة للبلدان الشرقية ، هي ان أمراءه يعيشون في البذخ والترف دون ان يوجهوا أدنى اهتمام الى حقوق الشعب وحاجاته .

وفي هذا المؤتمر يقف ممثل الاسكندرية ليُعلن :

« إن تخلفنا ناتج عن كبوتنا التي انقلبت الى غفوة طويلة ، والذي ينقصنا هو القائد ، الزعيم ، الذي سيكون شريفاً وقدوة للشعب ، وينقصنا ايضاً رأي عام قوي . »

وبعد الاتفاق على تحديد جوهر الاسلام ، وبعد الاتفاق على القول بأن الشعوب الاسلامية يجب ان تستعيد عزتها وكرامتها ، يعلن المؤتمر موافقته على المقترحات التالية :

١ ــ ان المسلمين يتخبطون في حالة من الكسل والخمول .

٢ ــ فيجب اخراجهم من هذه الحالة .

٣ ــ الجهل هو سبب هذا المرض .

٤ ــ والدواء الناجع هو تثقيف الشعوب الشرقية وبث روح الحماسة والرغبة في التقدم في نفوس الاجيان الطالعة .

٥ ــ يجب تشكيل منظمات تقوم بهذه المهمة .

وفي الختام يختار المؤتمر مصر مركزاً لهذه الحركة بسبب تقدمها في حقل العلوم والدور البارز الذي تلعبه بين الشعوب الاسلامية .

بالاضافة الى ذلك كله قرأ جمال عبد الناصر في تلك الحقبة كتاب احمد امين عن زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، امثال جمال الدين الافغاني ،

والشيخ محمد عبده . كما قرأ كتاباً عنوانه « مشاهير الاسلام » ، واخيراً مقالات الامير شكيب ارسلان عن الشرق وأمجاده الغابرة التي كان ينشرها في « اللواء » و « الاخبار » التي كان يديرها امين الرافعي زعيم الحزب الوطني ومعارض كل اتفاق مع الانجليز .

ومع تلك المؤلفات كان جمال يلتهم التهاماً ما كانت تكتبه الصحف الوطنية الوفدية والجرائد ذات الميول الاشتراكية ، كما كان بتوجيه استاذه القرآني يطلع على خير ما عند الغرب .

وفي هذا المجال قرأ كتاباً يحتوي سير أكبر رجالات فرنسا في التاريخ . ومن بين هؤلاء أعجب جمال عبد الناصر باثنين هما فولتير وروسو ، وبعد تعيينه في لجنة تحرير مجلة المدرسة « النهضة المصرية » كتب جمال عبد الناصر في تلك المجلة مقالاً بعنوان « فولتير رجل الحرية » . وفي تلك المقالة برز اعجاب الفتى المصري بصفات فولتير ، لا سيما ثورته ضد الفساد في الحكم والروتين ورجال الدين والكنيسة وفيها يقول :

« لقد كافح المفكر طويلاً كي يبقى دائماً مفكراً حراً من كل قيد . »

« ان روسو وفولتير اللذين أعدّا اعداداً كافياً ثورة سنة ١٧٨٩ يأتيان في طليعه قادة القرن الثامن عشر . »

ورواية « البؤساء » لفيكتور هيغو التي نقلها الى العربية الشاعر المصري الكبير حافظ ابراهيم ، كانت في برنامج الدراسة ، فقرأها بطلنا بشغف ، كما قرأ سيرة نابليون ، وغاندي ، والاسكندر الكبير ، ويوليوس قيصر .

عندما طالع جمال عبد الناصر روسو وفولتير ، لم يطالعهما كطالب يدرس درساً ويستعد لتقديم امتحان فيه . بل كشاب يريد ان يفهم

الحياة ، ويدرس المجتمع ، ويفتش عن حلول للمشكلات التي تبرز في الحياة .

كان يرى حوله العمال المحرومين من لذائذ الحياة . وكان يجاور دون ان يعاشر الاغنياء من مصريين وأجانب ، هؤلاء الذين يعيشون عيشة البذخ والترف ، فتساءل في نفسه : لماذا وجدت هذه الفوارق ؟ لماذا نرى الثروة والغنى هنا والشقاء والذل هناك ؟..

في هذه الفترة قرأ جمال عبد الناصر مرتين رواية ديكنز الشهيرة « قصة مدينتين » التي تدور حوادثها بين باريس ولندن سنة ١٧٩٣ ، وخرج من قراءتها مستنتجاً ان العنف لا يجر إلا العنف ، وان السياسة الفضلى هي تلك التي تتحاشى إراقة الدماء . وفي مجلس الثورة عندما كان بعض الاعضاء يعربون عن ميلهم الى استخدام العنف كان البكباشي جمال عبد الناصر يعارضهم ويذكرهم بكتاب ديكنز وينصحهم باعادة قراءته .

وفي إحدى المناسبات أعدّت مدرسة النهضة رواية لتمثيلها في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ١٩٣٥ في قاعة مسرح « برنتانيا » برعاية السيد نجيب الهلالي وزير التعليم العام . وكان موضوع التمثيلية مأساة شكسبير « يوليوس قيصر » ، وبالطبع لعب جمال عبدالناصر دور يوليوس قيصر .

كانت شخصية القيصر مفهومة من الشبيبة الوطنية المصرية على غير حقيقتها :

ان يوليوس قيصر ، في نظرهم ، رجل بارز في مجتمع فاسد . لقد وجد الشعب الروماني عبداً لخمسمائة عائلة من النبلاء ، فقرر ان يُنقذه من عبوديته ؛ وبدأ ثورته بزواجه من فتاة تنتسب الى الشعب ، ثم حارب الفساد والطغيان ، وأصدر قوانين تعاقب الفاسدين والمختلسين في الداخل . وبعد ذلك تفرّغ لحرب القبائل السويسرية المُغيرة على

روما ، وصد قبائل « التوتن » في حرب دامت عشر سنوات . ولم يكتف بذلك بل دخل التاريخ كقائد عسكري كبير استطاع ان يخضع بريطانيا ذاتها ..

وهكذا أصبح يوليوس قيصر* معبود الشعب الروماني ، ولكن أعداءه الذين سامحهم وصفح عنهم تآمروا عليه . انه لم يكترث للتهديد والخطر ، لأن حياته لم تكن تهمه كثيراً ، فقد أوصى بكل أملاكه وقصره وحدائقه الى مواطنيه . لقد قام بكل واجبه واحتقر المتآمرين .

كان جمال عبد الناصر آنذاك معجباً أشد الاعجاب بشخصية يوليوس قيصر الوطني الحر الشريف المؤمن بشعبه ، لذلك أنقذ وطنه من طغيان الاغنياء . لقد بعث شعبه ، وخلق من ضعفه قوة .

والحقيقة ان شخصية يوليوس قيصر تختلف كثيراً عما تصورها الطالب جمال عبدالناصر ، فهو كما وصفه سوتون فتى مترف ، فاسق ، ميال الى الأدب والتاريخ . وُلد من عائلة ارستقراطية مفلسة ، وتزوج وهو في السابعة عشرة من عمره من الوريثة الغنية لوسوتيا ، ثم طلقها ليتزوج كورنيليا ابنة ماريوس ، الخطيب الشعبي الروماني ، وقد كلفه هذا العمل ملاحقة الدكتاتور سيلا . فسافر الى آسيا الصغرى ليعود الى روما بعد موت سيلا ويعيش في البذخ والديون . وبعد موت كورنيليا تزوج النبيلة بومبيا حفيدة سيلا . ومن ثم بفضل مساندة الاشراف دخل مجلس الشيوخ كوكيل للخراج ، ثم عين مراقباً للملاعب ، عندئذ بدأ ينمي شعبيته عن طريق تنظيم الالعاب بأموال كراسوس شريكه السري ، وأعاد الى ساحة روما أسلحة ماريوس التذكارية . ولما اختير سيداً أعلى للبلاد عاش حياة الفسق والفجور والخلاعة .. كان زوجاً لكل النساء وامرأة لكل الرجال ، كما كتب سوتون . لقد طلق بومبيا ليتزوج للمرة الرابعة من كالبورينا ابنة احد القناصل .

ولتعذر وجود المال لديه قبل من ملك مصر بطليموس الحادي عشر هديته الاسطورية المؤلفة من ستة آلاف « تالانت » من الخمر ، وذلك لقاء قانون سنّه مجلس الشيوخ الروماني سمي بموجبه بطليموس صديقاً للشعب الروماني . وبطليموس هذا أثقل كاهل المصريين بالضرائب عن طريق وزير ماليته « رابيريوس بوستوموس » وقد ثار عليه المصريون وأرغموه على الفرار من الاسكندرية . وقد قام قيصر بكل هذه الاعمال قبل حروب غاليا ، وقبل حملته الى الشرق ضد بومبيوس بعشر سنوات ، تلك الحملة التي قادتـه الى مخدع ملكة مصر المقدونية كليوباطرة ابنة بطليموس الحادي عشر في الاسكندرية حيث أعلنه كهنة مصر تقمصاً للآله آمون . وقد رزقت منه كليوباطرة ابناً هو بطليموس الرابع عشر الذي لقبه الاسكندريون « سيزاريون » او القيصر الصغير .

وأخيراً قدمت كليوباطرة الى روما لتشهد الاحتفال بانتصار يوليوس قيصر ، وآنذاك بين المغلوبين المقيدين بسلاسل الذهب كان « ارسينوى » شقيق كليوباطرة ، والسيء الحظ « فرسنجيتوريكس » بطل المقاومة الغالية الذي أمضى خمس سنوات في سجون روما الرهيبة .

لقـد أقامت كليوباطرة في دارة يوليوس قيصر كخليلة له ، في انتظار اعـلان حبيبها ملكاً لتتوج ملكة للعالم على الرغم من وجود كالبورينا التي كان يوليوس قيصر قد وعد عشيقته بطلاقها ، إلا اذا استصدر قانوناً بطلاقهـا يُتيح له الزواج ، كملوك الشرق ، من عدة زوجات .

كان يوليوس قيصر تحت تأثير كليوباطرة ، يعمل على تحويل دولته الجمهورية الى مملكة ، على طراز مملكة الفراعنة ، ليحكمها حكماً إلهياً مطلقاً ، يتوارثه ابناؤه من بعده . ولهـذا السبب استشاط شيشرون غضباً وكتب الى صديقه أتيكوس يقول : « اني أبغض ملكة مصر » .

ان هـذه الاعمال كلها أدّت الى مقتل يوليوس قيصر على يـد

بروتس وحفنة من المتآمرين . وهذه الصورة الواقعية للسيد الروماني تختلف تماماً عن تلك الصورة المثالية التي أخرجه فيها بعض كتاب مصر مواطناً صلب الارادة يحارب الفساد ، ويتزوج فتاة من الشعب . واذا كان قد حارب القبائل السويسرية ، وانتصر على الغالبين فليس لأنهم كانوا يهددون روما ، بل هو الذي ذهب اليهم وحاربهم في بلادهم ليضمها الى امبراطوريته الرومانية ، ويقال انه حمل معه من غاليا مليون أسير باعهم في سوق النخاسة .

ثم ألم يكن يوليوس قيصر منذ بداية عهده شريك كراسوس الغني الكبير ، الذي سحق بالحديد والنار ، ثورة للعبيد قادها سبارتاكوس ؟..

ان هذه التفصيلات كلها لم تكن معروفة من قبل جمال عبدالناصر بكل تأكيد ، عندما طلب أن يسند اليه دور يوليوس قيصر . وفضلاً عن ذلك ، ليس صحيحاً ما قيل من انه هو الذي ألح في الطلب لكي تمثل رواية شكسبير في عيد مدرسة النهضة السنوي .

ان الحقيقة أبسط من ذلك بكثير ، لقد عرفتها من فم مخرج الرواية نفسه ، الذي لعب فيها دور بروتس ، ان وزارة التعليم العام التي تشرف على المدارس الخاصة لا تسمح بأن تشترك الفتيات في تمثيل رواية مع الفتيان . لذلك كان من الضروري البحث عن رواية لا ادوار رئيسية فيها إلا للذكور . وهذا الامر ينطبق على مأساة يوليوس قيصر ، اذا حُذف منها المشهد الذي تظهر فيه كلبورينا في قصر الامبراطور .

ومن ثم ان الدور الرئيسي في الرواية ، هو دور بروتس ، ثم دور انطوان ، أما دور يوليوس قيصر فهو قصير ، وقد أسند الى جمال عبد الناصر ، الذي يمثل لأول مرة . بينما أسندت الادوار الصعبة الى من هم أدرى منه بالتمثيل . وعندما طُعن يوليوس قيصر بالخنجر

على مسرح « برنتانيا » في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ١٩٣٥ ، هب موظف البريد عبد الناصر حسين ، الذي كان هناك لمشاهدة ولده يقوم بدور قيصر ، واقفاً في مقعده والخوف بادٍ عليه ، وبفضل الله لحظ ان ابنه ما زال على قيد الحياة يتحرك ، فهدأ روعه .

لقد كانت هذه الرواية المخيفة عسيراً فهمها على ابن الفلاح من من بني مر ، ولحسن الحظ كانت تمثيلية فحسب ..

عودة الروح لتوفيق الحكيم

لقد ذكرت عدداً من الكتب التي قرأها جمال عبد الناصر اثناء دراسته الثانوية ، وذلك استناداً الى ما قاله لي اساتذته ورفاقه ، ولنضف اليها كتاباً آخر هو « وطنيتي » لعلي الخياطي الكيلاني ، الوطني المصري الذي نفي الى جنيف حيث اصدر مدة اربعة عشر عاماً صحيفة « منبر الشرق » للدفاع عن حقوق الشرق الناهض .

والطالب جمال عبد الناصر كان يحب ايضاً ويعجب بآثار الشاعر احمد شوقي ، ويحفظ غيباً قصيدة حافظ ابراهيم « العمرية » التي نظمها شاعر النيل للاشادة بالخليفة الثاني عمر بن الخطاب رجل الفتوحات الاسلامية الكبرى . وهنا اود بصورة خاصة ان احلل قصة أديب معاصر اثر كثيراً في نفسية الطالب جمال ، الا وهي « عودة الروح » او يقظة الدم لتوفيق الحكيم .

ان لهذا الكاتب العاطفي الانتقادي معاً ، آثاراً كثيرة منها يوميات نائب في الأرياف ، التي انتقد فيها الادارة المصرية في الريف ، وروايات تمثيلية محكمة السبك صعبة التمثيل ، مُثلت في سالزبورج وباريس وهي « شهرزاد » و « اهل الكهف » و « بغماليون » . اما روايته « عودة الروح »

فقد تُرجمت الى الفرنسية على يد موريك بزين مؤسس جمعية اصدقاء الثقافة الفرنسية في الشرق ، ورائد التقارب الثقافي بين فرنسا ومصر . ولم يكترث لهذه الرواية عند نشرها باللغة الفرنسية الا القليلون ، ولكن اهميتها بلغت الذروة بسبب التأثير العميق الذي تركته في نفسية الفتى جمال عبد الناصر .

وبعد ان اصبح جمال رئيساً للحكومة المصرية اظهر تقديره للاديب توفيق الحكيم باجراءات ادهشت الاوساط الثقافية والادارية في القاهرة .

منذ أربع او خمس سنوات ، علم وزير التربية والتعليم بان توفيق الحكيم مدير المكتبة الوطنية ، يتصرف في وظيفته بشيء من التفرد في الرأي ، فاقترح على مجلس الوزراء عزله من هذه الوظيفة ، وبالطبع كان الوزير يجهل الدور الذي لعبه الكاتب في تكوين شخصية الزعيم الوطني ، فتأثر جمال عبد الناصر كثيراً من قصر نظر الوزير وما كان من الرئيس الا ان عين توفيق الحكيم في اللجنة العليا للفنون والاداب .

وفي السنة الماضية ، امام دهشة الجميع وذهولهم قلد الرئيس جمال عبد الناصر اديبه المفضل توفيق الحكيم ، وشاح النيل ، الذي كان حتى ذلك الوقت ، وقفاً على رجال السياسة من الدرجة الاولى ، ولاول مرة منح هذا الوسام الى رجل من رجال الفكر .

ان آثار توفيق الحكيم الاخيرة ليست ذات أهمية خاصة ، لذلك يمكن القول ان تقدير الرئيس للأديب الوطني كان يستهدف « عودة الروح » او يقظة مصر .

لقد سبق لي وتحدثت عن هذا الكتاب عندما تناولت بالكلام مظاهرات الطلاب سنة ١٩١٩ ، والرواية ، فعلاً تحتوي أموراً طريفة ، انني لا أعلق اهمية على الوصف الخيالي لعواطف الطالب محسن الذي يلتهب حباً لجارته الجميلة سنية التي تقيم في الحي الشعبي قرب السيدة زينب ، لان اثنين من اعمامه الثلاثة الشبان الذين يسكنون معه كانا

يشعران مثله بالميل نفسه للجارة الحسناء . ويستخدمان الحيلة نفسها لرؤية وجهها الجميل ، بل انني اهتم بالصورة الوطنية التي ابدعها توفيق الحكيم للفتى محسن لانها تشبه الى حد بعيد الصورة التي رسمها لي عن الطالب جمال عبد الناصر ورفاقه في الدراسة .

لقد كان محسن فتى رصيناً رزيناً . ولم يكن له ميل كغيره من التلامذة في سنه الى الالعاب الصاخبة ، ولم يُرَ مرة واحدة يركض او يقفز ، وتسليته كانت على الاغلب ثقافته وكان عادة يستغل اوقات الفراغ لالقاء ابيات من الشعر ، او التناقش مع عباس ، صديقه الذي يتحلى بالميل والطبائع نفسها ، وبسبب رصانته كان محسن يبدو اكبر من سنه بالفعل ، وهكذا كان اساتذته ينظرون اليه نظرة خاصة مرفقة بالاعجاب ، ويترقبون له نجاحاً باهراً في امتحان الثانوية العامة .

كان لا يميل كثيراً الى معاشرة الآخرين ، ويفضل العزلة على مزاح بعض رفاقه السمج . وعلى الرغم من تحفظه الذي كان يفرضه على التلامذة الآخرين ، كان هؤلاء يكنون له الاحترام الزائد . فضلا عن ذلك كان الجميع يجدون لذة حقيقية في سماعة يتكلم او يتناقش مع عباس ، تحت الدرج الكبير ، حيث اعتاد الاثنان ان يجتمعا في استراحة الظهر .

ونحن إذا عدلنا بعض التعديل هذا الوصف نجد امامنا صورة كاملة للطالب جمال عبد الناصر .

كان جمال مولعاً بالتاريخ على الارجح ، ويفضله على الادب ، ومناقشاته مع رفاقه كانت تتناول الموضوعات السياسية عامة ، وكان لا يفوت درساً واحداً من دروس التاريخ ويتابع بكل جوارحه شروح الاستاذ . كان ينظر اليه باستمرار ، متكئاً على منكبه الايسر سانداً ذقنه براحة يده وكان لا يترك نقطة غامضة الا ويستفسر عنها . ويذهب الى اللوح ليراجع المصور الجغرافي ؟

وقد قال لي احد رفاقه ... « حتى عندما يكون جمال عبد الناصر منهمكاً في تنظيم مظاهرة سياسية ، كان يترك كل شيء ليحضر درس التاريخ ، درسه المفضل . »

ولنعد الآن الى بطل توفيق الحكيم .

« عندما تأتي العطلة المدرسة ، كان محسن يمضيها قرب دمنهور ، في مزرعة والده حيث يشاهد عراك الشيخ حسن مراقب المزرعة العام مع عبد الحق رئيس الحراس والاول مصري اصيل ، فلاح ، والثاني عربي بدوي »

كان الشيخ حسن جالساً على مقعد الضيوف ، وفي يده مسبحة من العنبر ، لقد كان شاحباً ، وعبد العاطي الاعرابي الذي كان حارس العربة يصرخ في وجهه بقوة :

– والله والله عرجاوي ما يخشها .. وشرف البدوي نطة الوش من هادي البارودة ::

– مفيش لزوم للشوشرة ، يا عبد العاطي ، البيه هنا ... اعمل معروف..

– والله هادا الفلاح ما يبات فيها :

– مش الصلح حصل بينكم على يد وكيل العمدة ؟ ...

– احنا بدو شرفاء ما يمشي علينا كلام عمدة الفلاحين ...

قال هذا وترك الشيخ حسن وسار متعالياً وعلى شفته انفراجة ازدراء ، ومر في طريقه بمحسن ، وكان قد وقف عن كثب يرى ويسمع غير مريد قطع المحاورة بينهما . فلما دنا عبد العاطي ناداه وسأله عما قاله للشيخ حسن منذ لحظة ، وعن السبب في حقده على عرجاوي الفلاح . فأجابه الخفير البدوي في صلف بان هذا الفلاح الفتى عرجاوي يريد الزواج من اخته البدوية ، وان أخته هامت بهذا الفلاح ، ولم يُفلح في ارجاعها عنه لا الضربُ المبرح والنصح ولا المعايرة بنزولها عن محتدها البدوي الى الاقتران بفلاح ، وفي النهاية اتفقت مع عرجاوي على الهرب والزواج به

على الرغم من ارادة اخيها عبد العاطي ، فاقسم عبد العاطي ان لا تقع عينه على عرجاوي هذا حتى يقتله .

وقد حاولوا الصلح بينهما ... وحاولت الفتاة البدوية استعطاف اخيها وساقت اليه من يغير رأيه فيها وفي زوجها الفلاح فلم ينفع كل ذلك ، واصرّ عبد العاطي على تنفيذ كلمته . هذا ما فهمه محسن من هذا البدوي وعندئذ نظر اليه وسأله في رفق ..

– بقى البدوي ، احسن من الفلاح يا عبد العاطي ؟..

فأجابه الخفير وهو يحدّق به مستغرباً جهله .

– كيف يا بيه البدوي مثل الفلاح ؟...

– ايه الفرق بين الاثنين ؟..

– كيف .. كيف يا بيه ؟ البدوي اصيل .

– والفلاح مش أصيل ؟..

– الفلاح عبد ابن عبد ، احنا بدو ما نرضى الضيم .

ترك محسن عبد العاطي وسار وحيداً يفكر فيما سمع منه . وقد تذكر قول مدرس تاريخ مصر القديمة ان الفلاح المصري الحاضر ان هو الا ذلك الفلاح المصري الغـابر ، الذي كان يعيش يحرث ويزرع نفس الارض قبل ان تكون البدو بدواً . ولقد توالت العصور عليه ، وتوالت الأمم ، لكنه لبعده عن المدن والحضر ولاعتصامه ببطون القرى نائياً عن مهب العواصف السياسية والاجتماعية في العواصم حيث تقيم الامم المُغيرة عـادة وتختلط بالاجناس لم يستطع طول الزمن ولا تقلباته ان تغيّر من نفسه شيئاً . فهل هذا الفلاح من يصحُّ اتهامه بان لا اصل له ؟؟؟.. وهو اصل الاصول .. »

ولكن العيب عيب الفلاح وحده ؛ لانه يجهل اصله هذا ، بينما البدوي يتوارث ما يسميه أصلاً اباً عن جد ، وقبيله عن قبيلة . ثم اليس من دلائل الاصل العريق تلك الطينة التي طبع عليها الفلاح ، وذلك الهدوء وحب

السلام عنوان المدنية والاستقرار ، بينما هذا البدوي لا يزال على الوحشية وحب الحرب والثأر والدم ... بقايا الحياة الاولى الهمجية القلقة غير المستقرة التي اساسها الغزو والسلب ونهب القبيلة للقبيلة ، ولكن الفلاح يجهل أيضاً كيف يدافع عن نفسه ، فيقول: « ان طيبته وحبه للسلام ان هو الا نتيجة اصله الزراعي العريق وما تطلبه حياة الزراعة من السلم والاطمئنان ونبذ الغزو والسلب، حياة مدنية اجتماعية لا حياة وحشية برية جبلية . فهدوؤه وسلامه ، كرم اصل ، لا عبودية ولا خسة عبد ابن عبد .»

وأم محسن التركية الاصل تعامل الفلاحين كالعبيد وتقسو على الناظر الذي يشرف على العزبة لقد كانت تنتظر ضيوفاً غرباء تود ان تقيم لهم مأدبة فاخرة وبعد ان القت نظرة على ثياب الناظر طلبت اليه :

ـ امش يا راجل يا فلاح ، البس أحسن هدومك .

فاطرق الرجل خجلا ولم ينبس بحرف وقد احمر وجهه قليلا ولاحظ محسن خفية ذلك فتأثر له ، ورأت الست وجومه فاعادت الكرة بقوة هذه المرة :

ـ الله الله عجايب ، واقف ليه ؟.. مستنظر ايه ؟..

فأجاب الرجل بصوت ضعيف متلعثم وابتسامة الساذج الخجل وهو ينظر الى الارض :

ـ ما هو ده يا ست احسن ما عندي ، وسكت قليلا مطرقاً ثم رفع رأسه وقال في بساطة واعتقاد وهو يتناول طرف ثوبه ويريه للسيدة :

ـ دى شينه يا ست ؟ .. وحياة رأس النبي دا غزلي ...

فلم تتنازل السيدة الى رؤية ثوبه وادارت ظهرها ومشت الى عمل تلاحظه ، وسار خلفها محسن وهو يود لو يخلو اليها ليرجوها ان تخفف من وطأتها على هؤلاء القوم وليفهمها ان هؤلاء الفلاحين المساكين لا يعرفون الابهة .

ما قاربت الساعة الواحدة ظهراً حتى نبح كلب العزبة دليل قدوم غريب ، وبدا عفار العربة بخيلها عند الجسر ومرت تحت الجميزة ودخلت

جرن العزبة ، ونزل منها افرنجيان بالقبعات ثم البك صاحب الدار .

« وبعد الغداء جلس الضيفان يرشفان القهوة وقد غرقا في كرسيين كبيرين ووجهاهما قبالة نافذة مفتوحة على مصراعيها ، تطرح امام ناظريهما فضاء اخضر لا حد له . وسكون ساعة الظهيرة التام حيث الفلاحون في دورهم يستريحون او تحت ظلال السنط والبلح قرب السواقي ، سكنت البهائم ايضاً ، وربض الكلب وأغمض احدى عينيه ، حتى الطيور من قنبر وابي حصاده كأنها في هدنة قد هدأت على الاغصان فوق رؤوس الفلاحين الراقدين . وقد ابطلت زقزقتها واخذت تشغل الوقت تفلي ريشها بمنقارها بعضها البعض ..

وهبّ عندئذ على الضيفين نسيم عليل فاغلق الفرنسي اهدابه نصف اغلاقة ، ورفيقه الانجليزي دسّ يده في جيبه واخرج غليونه . عندئذ قال الفرنسي في صوت ناعم :

– الا يؤثر فيك هذا النسيم الرقيق يا مستر بلاك ؟..

فالتفت اليه الانجليزي ثم اتجه الى النافذة كأنما يبحث عن هذا النسيم يريد ان يراه بعينيه ، وكان الفلاحون قد بدأوا ينهضون زرافات ووحدانا كل يحمل فأسه او منجله كي يستأنفوا اعمالهم في الحقول فقال الانجليزي لرفيقه :

– لا أرى الا سرباً من ذوي الجلابيب الزرقاء ... فنظر الفرنسي الى الفلاحين ثم قال معجباً : « ما اجمل ذوقهم ، ان لون لباسهم كلون سمائهم » . فارتسمت على فم الانجليزي ابتسامة تهكم وقال : « انك تبالغ اذ تحسب لهؤلاء الجهلاء ذوقاً » فاجاب الأثري الفرنسي بايمان وقوة :

– « جهلاء ؟.. ان هؤلاء الجهلاء يا مستر بلاك اعلم منا » .

فضحك الانجليزي وقال في تهكم :

– « الأنهم ينامون مع البهائم في غرفة واحدة ؟؟.!.!. »

فأجاب الفرنسي بجد :

— «نعم، بالاخص لانهم ينامون مع البهائم في غرفة واحدة» .. فالتفت اليه مستر بلاك محدقاً مبتسماً : «انهـا نكتة طريفه يا مسيو فوكيه.» فأجاب الفرنسي : بل الحقيقة حقيقة تجهلها أوروبة للأسف... نعم ان هذا الشعب الذي تحسبه جاهلاً ليعلم اشياء كثيرة. ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله . ان الحكمة العليا في دمه ولا يعلم ، والقوة في نفسه ولا يعلم . هذا شعب قديم ، جيء بفلاح من هؤلاء واخرج قلبه تجد فيـه رواسب عشرة الآف سنة من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدري .

« نعم هو يجهل ذلك . ولكن هناك لحظات حرجة تخرج منها هذه المعرفة وهذه التجاريب فتسعفه وهو لا يعلم من اين جاءته . هـذا ما يفسر لنا نحن الاوروبيين تلك اللحظات من التاريخ التي نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة في قليل من الوقت .. وتأتي بأعمال عجاب في طرفة عين . كيف تستطيع ذلك ان لم تكن تجاريب الماضي الراسبة قد صارت في نفسها بصر الغريزة ، تدفعهـا الى الصواب وتسعفها في الاوقات الحرجة وهي لا تدري . لا تظنّ يا مستر بلاك ان هذه الآلاف من السنين التي هي ماضي مصر قد انطوت كالحلم ولم تترك اثراً في هؤلاء الاحفاد . اين اذن قانون الوراثة الذي يصدق حتى على الجماد ؟

« ولئن كانت الارض والجبـال ان هي الا وراثة طبقة عن طبقة فلماذا لا يكون ذلك في الشعوب القديمة التي لم تتحرّك من ارضها ولم يتغير شيء من جوها او طبيعتهـا ؟؟.. نعم ان اوروبة سبقت مصر اليوم ، ولكن بماذا ؟. بذلك العلم المكتسب فقط ، الذي كانت تعتبره الشعوب القديمة عرضاً لا جوهراً ودلالة سطحية على كنز دفين. ان كل ما فعلنـاه نحن الاوروبيين الحديثي النشأة ان سرقنا من تلك الشعوب

القديمة هذا الرمز السطحي دون الكنز الدفين .

« لذلك جئ باوربي وافتح قلبه تجده خالياً خاوياً . الاوروبي انما يعيش بما يُلقَّن ويُعلَّم في صغر حياته لانه ليس له تراث ولا ماض يسعفه بغير ان يعلم . احرم الاوروبي المدرسة يصبح اجهل من الجهل . قوة اوروبة الوحيدة في العقل .. تلك الآلة المحدودة التي يجب ان نملأها نحن بارادتنا ، اما قوة مصر فمن القلب الذي لا قاع له ؛ ولهذا كان المصريون القدماء لا يملكون في لغتهم القديمة لفظة يميّزون بها بين العقل والقلب . العقل والقلب عندهم كان يُعبَّر عنهما بكلمة واحدة هي « القلب » .

وسكت الاثري الفرنسي برهة ونظر الى وجه المستر بلاك ليتعرّف الى اثر ما قاله فيه فوجد ملامح جامدة وشفتين تنفرجان عن ريبة وشك ؛ فاستطرد الفرنسي يقول :

– « نعم يا مستر بلاك هؤلاء الفلاحون لهم ذوق جميل . وهم ان سألتهم عن كلمة ذوق لجهلوا معناها . اما نحن فنعرف جيداً معنى هذه الكلمة ، ولكن ثق ان فينا عدداً كبيراً ليس له ذوق ، نعم هذا هو الفرق الوحيد بيننا . انهم لا يعلمون ما عندهم من كنوز »

« عندئذ همّ الانجليزي بالنهوض وهو يقول منهمكاً :

– انكم معشر الفرنسيين تضحّون بالحقائق في سبيل الكلام ؟ فأجلسه مسيو فوكيه بيده وقال محتداً :

– الحقائق معي يا مستر بلاك ، انك تعرّض بضعف هذا الشعب الآن ... أليس كذلك ؟؟

– وايضاً اخلاق اهله لا تعجبني .

– اخلاق اهله ؟..

– نعم ؛

– ثق يا مستر بلاك ان الفاسد من هذه الاخلاق ليس من مصر بل

داخلة عليها من امم أخرى كالاتراك مثلاً . ومع ذلك فلا يؤثر هذا في الجوهر الموجود دائماً .

– قل ما هو هذا الجوهر ؟

– انك ترتاب في قولي . ولكن اكتفي بان اقول لك احترس .: احترسوا من هذا الشعب فهو يخفي قوة نفسية هائلة . »

فالتفت اليه مستر بلاك ، ثم عاد فابتسم ابتسامة متهكمة وقال : « اين يخفيها يا مسيو فوكيه؟..» فاجاب الفرنسي بهدوء واقتناع « في البئر العميقة الذي خرجت منه تلك الاهرامات الثلاث » .. فقال الانجليزي في فتور : الاهرامات ؟؟

- نعم الاهرامات التي قصدهـــا شامبليون بقوله « لا استطيع ان اصفها اذ ان شيئاً من اثنين اما ان كلامي لن يعبّر عن جزء من الف مما يجب ان اقول . واما اني لو اردت رسم ابهت صورة للحقيقة لعدّني الناس مغرقاً في الحماسة او مجنوناً ، ولكن اقول شيئاً : اولئك القوم كانوا يشيدون كعمالقة طولها مائة ذراع »

عندئذ نظر الانجليزي وقال باسماً : « كل هذا خرج من بئر . اي بئر ؟ » فاجاب فوكيه بهدوء : « هذا » واشار باصبعه الى الجهـــة اليسرى من صدره « القلب » .. ارى ان قولي لم يعجبك يا مستر بلاك – اعترف بذلك – نعم ان لنا العذر ان لا نفهم هذا ان لغتنا نحن الاوروبيين لغة المحسوسات. اننا لا نستطيع ان نتصور تلك العواطف التي كانت تجعل من هذا الشعب فرداً واحداً يستطيع ان يحمل على اكتافه الاحجار الهائلة عشرين عاماً وهو باسم الثغر مبتهج الفؤاد راض بالألم في سبيل المعبود ، اني لموقن ان تلك الآلاف المؤلفة التي شيدت الاهرام ما كانت تُساق كرهاً كما يزعم هيردوت الاغريقي عن جهل وحماقة . ،انما كانت تسير الى العمل زرافات وهي تنشد نشيد المعبود كما يفعل احفادهم يوم جني المحصول . نعم كانت اجسادهم تدمى ،

ولكن ذلك كان يشعرهم بلذة خفية ، لذة الاشتراك في الألم من اجل سبب واحد . وكانوا ينظرون الى الدماء تقطر من ابدانهم في سرور لا يقل عن سرورهم رؤية الحمور القابعة تقدم قرابين الى المعبود . هذه العاطفة ، عاطفة السرور بالألم جماعة ، عاطفة الصبر الجميل والاحتمال الباسم للاهوال من اجل سبب واحد مشترك عاطفة الايمان بالمعبود والتضحية والاتحاد في الألم بغير شكوى ولا انين ؛ هذه هي قوتهم »

انتصب عندئذ المفتش الانجليزي في كرسيه وقد بدا على ملامحه معنى الجد والاهتمام وكأنما قد افحمه بعض ما سمع . وفيما هو كذلك هبّ النسيم عليهما هبةً حملت الى اذانهما في هذا السكون التام اصوات الفلاحين يغنون عن بعد غناء جميلاً ، فاشرأب الفرنسي قليلاً ثم اشار اليهم وقال :

– هل رأيت في بلد آخر اشقى من هؤلاء المساكين ؟.. انت مفتش ري وتعلم جيداً يا مستر بلاك ، أوجدت افقر من هذا الفلاح المصري أو اهول عملاً . اني اعلم ذلك انا ايضاً فقد اشتغلت بالحفر عن الآثار في قرى الصعيد . وخالطت بعض الفلاحين وعلمت كل شيء ؛ عمل ليل نهـار في الشمس المحرقة والبرد القارس، وكسرة من خبز الذرة وقطعة من الجبن مع بعض الاعشاب من السريس وغيره مما ينبت وحده؛ تضحية مستمرة وصبر دائم . ومع ذلك فها هم يغنون اسمـع برهة يا مستر بلاك ...

وسكت الأثري الفرنسي هنيهة كأنما يستفسر روح هذه الاغنية التي تأتي مع النسيم ثم استطرد يقول :

– اسمع هذه الاصوات المجتمعة الخارجة من قلوب عدة الا تخالها خارجة من قلب واحد ؟ اني أؤكد ان هؤلاء القوم يحسون لذة في هذا الكدح المشترك . هذا ايضاً الفرق بيننا وبينهم . اذا اجتمع عمالنا على الألم احسوا جراثيم الثورة والعصيان وعدم الرضا بما هم فيه .

وان اجتمع فلاحوهم على الألم احسوا السرور الخفي واللذة بالاتحاد في الألم ، ما اعجبهم شعباً صناعياً غداً ؟...

اسند المفتش الانجليزي يده الى جبينه لحظة كالمتأمل ثم قال :

— ما كنت احسبك جاداً وانت تفهمني ان بين مصر اليوم ومصر بالامس علاقة .

فاجاب العالم الفرنسي :

— واي علاقة . قلت واقول ايضاً ان الجوهر باق ابداً. ان هؤلاء الفلاحين الذين يغنون من قلب واحـد ... المتعددين الذين تجمعهم العاطفة والايمان في واحد ... ما زالوا يعون بقلوبهم ولا يعلمون تلك العبارة التي كان اجدادهم يندبون بها موتاهم في الجنائز : وعندما يصير الوقت خالوداً سنراك من جديد لانك صائر الى هناك حيث الكل في واحد .

وها هم الفلاحون الاحفاد من جديد ... يذكرون من اعماق قلوبهم ان الكل في واحد ... وصمت العالم الفرنسي قليلاً وعندئذ يئس المفتش الانجليزي قائلاً ، وكأنه لا يزال تحت تأثير ما سمع : «شيء غريب» واجاب الاثري الفرنسي : « نعم ومع ذلك فلو ذكرت ان هـذه العواطف هي التي شيدت الاهرام لزال عجبك . والا فكيف كنت تريد ان يبني هذا الشعب بناءً كهذا ان لم يكن هذا الشعب كله قد تحول في وقت ما الى كتلة آدمية واحدة تستعذب الألم في سبيل واحد «خوفو ممثل المعبود ورمز الغاية ... »

فما كان من الانجليزي الا ان لمعت عينه لمعاناً لا احد يدري ان كان بارقة الاعجـاب او القلق وهمس وهو يفكر : « صدقت صدقت » فاردف الفرنسي الأثري يقول : وكأنما يختم مقدماته السالفة : « ان هذا الشعب المصري الحالي ما زال محتفظاً بتلك الروح » فسأله الانجليزي على الفور : « اي روح ؟.. » فاجاب بثقـة وتؤدة : « روح

المعبود »

فأنزل الانجليزي الغليون من فمه وسدد نظرات جامدة ساهمة الى النافذة ، فالتفت اليه الفرنسي وكأنما ادرك ما في نفس الانجليزى من قلق فابتسم خفية ثم وضع يده على كتف الانجليزي وقال له بغته .. اجل يا مستر بلاك ؟؟... لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليوم ان القوة كامنة فيه ولا ينقصه الا شيء واحد .

– ما هو ؟..

– المعبود .

فنظر الانجليزي اليه نظرة لا يدري امعناها الاستيضاح ام الموافقة فاجابه الفرنسي بعد هنيهة :

– نعم ينقصه ذلك الرجل الذي تتمثّل فيه كل عواطفه وامانيه ويكون له رمز الغاية عند ذاك لاتعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعدّ للتضحية اذا اتى بمعجزة اخرى غير الاهرام . »

لا ريب ان هذا النص الذي اقتبسته من رواية « عودة الروح » لتوفيق الحكيم قد كان ذا اثر بليغ في نفس الطالب جمال عبد الناصر الذي توقّف عنده طويلاً وتأمله .

والمعجزة التي حدثت سنة ١٩١٩، عندما جسّد سعد زغلول الارادة الوطنية في مقاومة انجلترة كان لا بدّ من ان تتكرر في اعتقاد جمال اذا قيّض الله لشعب مصر رجلاً يعرف كيف يوحّد صفوفه التي جزأتها الاحزاب ويُنقذه من السياسيين الذين سرقوه واستعبدوه والعائلة الملكية الغريبة والجيش البريطاني الدخيل .

وليس ما يمنع من ان يكون قد تساءل وهو فتى بعد قراءة هذه الرواية :

تُرى لماذا لا اكون انا هذا الشخص ؟؟؟

وبعد ان اصبح جمال زعيماً لبلده ، كان عليه ان يتذكّر عودة

الروح ، عندما تواطأت فرنسة وانجلترة واسرائيل على تفكيك وحدة الشعب المصري . ومن المؤكد انه تذكّرها يوم قرر بناء السد العالي ، لان هذا العمل الجبار سيستهلك مواد تساوي سبع عشرة مرة حجم الهرم الاكبر .

جمال يفتش عن حزب سياسي

في صيف سنة ١٩٣٥ تعاقب عبد الفتاح يحيي وتوفيق نسيم على التوالي مكان صدقي الذي اضطرته حالته الصحية الى الابتعاد موقتاً عن الحياة السياسية . ودُستورُ سنة ١٩٣٠ الذي حاربه حزب الوفد بضراوة عُلّق بأمر ملكي سنة ١٩٣٤. وأعلِن العزم على وضع دستور جديد للبلاد، وبسبب تأخر وضع هذا الدستور حُكِمت مصر عن طريق المراسيم الاشتراعية ؛ والحكومات كانت تتقاذفها القوى العاصفة في البلاد ، الملك فؤاد والمفوض السامي البريطاني من جهة ، والمعارضة الوطنية التي تطالب بعودة دستور سنة ١٩٢٣ التحرري من جهة اخرى .

وكان التدخل البريطاني في الشؤون المصرية الداخلية استناداً الى التحفّظات الاربعة التى كرّسها بيان سنة ١٩٢٢ يُثير الوطنيين . واذا كانت السياسة الداخلية قد فقدت صفتها الدكتاتورية الحديدية التي عرفت بها ايام صدقي ؛ فانها ايضاً فقدت صفتها الديمقراطية الدستورية لذلك كان الكبار ناقمين . والطلاب لما يجيش في نفوسهم من حماسة الشباب قد قرفوا في هذا الجدل المضطرب من سلبية الكبار الذين بدوا لهم جبناء .

تذكر جمال عبد الناصر آنئذ المظاهرات التي اشترك بها في الاسكندرية

لخمس سنوات خلت حيث تلقى الضربات المبرحة بينما كان يهتف « لتحي مصر » . فتألم من جمود مواطنيه. ومطالعاته عن امجاد العرب وبطولاتهم ابان فتوحاتهم ، وايمانه بالقوة التي تسبغها على الشعب المصري وحدةُ العمل دفعاه الى البحث عن المنظّمة التي يمكنه ان ينخرط فيها للعمل في سبيل تحرير بلاده .

لقد اتصل بالوفديين الذين قد ناضلوا طويلاً بقيادة سعد زغلول . ولكنه لمس ان وصولهم الى الحكم كان خيبة أمل للبلد ؛ وان الساسة المتهنين قد عملوا في سبيل مصالحهم الخاصة اكثر من عملهم في سبيل المصلحة العامة ومصلحة الوطن .

لقد أعجب اكثر بالحزب الوطني الذي عُرف بعناده ورفضه لكل تنازل لبريطانية وخالط ايضاً اعضاء حزب احمد حسين الاشتراكي «مصر الفتاة» الذين كانوا بقمصانهم الخضراء يقلّدون «القمصان البنية» للحزب النازي او « القمصان السوداء » للحزب الفاشستي . وهذه الاحزاب المعادية للسامية والاجانب عداء عنيفاً كانت قد استهوت الشبيبة الوطنية التي يئست من جمود الاحزاب السياسية التقليدية . ولمحاربة نفوذها في هذا الحقل اضطر حزبُ الوفد لان يخلق منظمة « القمصان الزرقاء » وكانت تجري مقابلاتٌ حماسية بين الفريقين . والجدير بالذكر ان منهج « مصر الفتاة » الذي يقول اولاً واخيراً « مصر للمصريين » كان يتضمن تأميم قناة السويس وتصنيع وادي النيل وتوحيد مصر والسودان .

وكان جماعة القمصان الخضراء يتمرنون في صحراء حلوان على استعمال القنابل في انتظار الفرصة المناسبة للقيام بالثورة ، وكان رجال الشرطة يراقبونهم . وفضلاً عن ذلك كان بين أفرادها خليط من العناصر ، حتى انه قد اندسّ بين شبابها المثاليين اشخاصٌ ألفوا عصابات تفرض على التجار الاعلان في جريدة الحزب لابتزاز الاموال :

وفي هذه المناسبة ، لا بد من ان نتساءل : « ترى هل انضمّ جمال عبد الناصر الى الحزب الاشتراكي ؟؟.. » ان الآراء متضاربة في هذا الخصوص . ويظهر انه في تفتيشه عن منظمة وطنية مناضلة قد أعجب خاصة بمنظمة « مصر الفتاة » ، ولكن نزاهته قد دفعته الى كره احمد حسين المشكوك في سيرته . ومع ذلك بقي على علاقة طيبة مع نائب رئيس هذه المنظمة السيد فتحي رضوان ، الذي أصبح فيما بعد وزيراً للارشاد القومي في حكومة الثورة .

وفي مدرسة النهضة كان جمال عبد الناصر يتناقش بحماسة زائدة مع رفاقه في الشؤون السياسية . وكان اساتذته يحاولون تهدئته اذ ان الحكومة كانت تود ان لا يهتم الطلاب ، لا سيما طلاب الكليات الثانوية ، بشيء غير دروسهم . وكانت السياسة وقفاً على الكبار ، ولكن جمال تمرد على هذا الامر ؛ لأن أوضاع بلاده السيئة أثرت فيه وجعلته لا يستطيع البقاء سلبياً ، فبحث وتحدث عن السياسة في ملعب المدرسة ؛ كما دعا رفاقه الى بيته الصغير في شارع خميس العدس ، أو حديقة مسجد الظاهر ، أو ايضاً في مسجد سيدي الشعراوي حيث اعتاد ان يدرس .

كان عمر جمال عبد الناصر آنئذ سبعَ عشرة سنة ، ولكنه كان يبدو أكبر من سنه . ونفوذه كان وليد رصانته في الاستقصاء عن الاشياء . وكان يحرص على ان يجمع حوله الرفاق الذين يشاركونه آراءه السياسية .

وقد روى حسن النشار صديق الدراسة الحميم لجمال عبد الناصر كيف حاول الطالب جمال ان يتصل برجال السياسة وبالمنظمات الطلابية :

« لقد قررنا ان نتصل بزعيم حزب سياسي . فحصلنا على موعد هو ظهر الثلاثاء في الثاني عشر من شباط سنة ١٩٣٥ . لقد كان ذلك الزعيم شخصية بارزة ، كان وزيراً .

« وعندما وصلنا كان خارجاً من مكتبه ، فأسرع جمال ليلحق به

أمام المصعد وقال له : لقد ألفنا وفداً من التلامذة ونحن نود ان نعرف رأيك عن افضل طريقة لخدمة مصر ؟!

« لقد لاحظنا جميعاً الجرأة التي اندفع بها جمال عبد الناصر ليتكلم بها مع الوزير ، دون تردد . لقد كانت هذه ميزة من ميزاته . وقد نصح الوزير في ذلك الحين الاتصال بطلاب الجامعة ، وكنا نعلم انهم كانوا يجتمعون في ناديهم .

« وبعد مضي شهر من الزمن توجهنا لمقابلة الطلاب الجامعيين ، ومع الاسف كانوا يتناقشون في أمور غير مجدية ، كانوا يبحثون في كيفية املاء مراكز اللجنة التنفيذية للطلاب ، مَنْ سيكون الرئيس ، ونائب الرئيس ، وامين السر ؟

« لقد بقينا الى آخر الاجتماع آملين ان ينتقل البحث الى معالجة الامور التي تشغل بالنا لندرس تجنيد الشبيبة ضد الفساد والاستعمار . ولكن مثل هذه الامور لم تكن لتخطر في بالهم ، ولذلك قررنا ان نعمل وحدنا ، وان نؤلف لجاناً من طلاب المدارس الثانوية الرسمية والخاصة . »

لقد عاد جمال مع رفاقه الى المدرسة فاشلين حانقين . ولكن عزيمتهم لم تثبط ، وبما ان الساسة الكبار سلبيون ، وطلاب الجامعة مشغولون بسفاسفهم ، لذلك سيجتمع الطلاب الثانويون وحدهم للاحتجاج واشعال الجذوة الوطنية في النفوس .

وكان الطلاب الوفديون يملكون الاكثرية الساحقة في لجنة اتحاد الطلاب الجامعيين ، ومع ذلك وفق عبد العزيز الشوربجي الطالب الحقوقي والعضو في الحزب الوطني الى ان ينتخب عضواً في اللجنة العليا للاتحاد ، وكان ذا علاقة بلجنة الطلاب الثانويين ، لا سيما بالطالب الثانوي جمال عبد الناصر . وقد ذهبت لمقابلته في مكتبه ، ولما أبلغته عن غرضي ، استعاد ذكريات عام ١٩٣٥ ووصف لي جمال عبد الناصر ، كما عرفه في ذلك الوقت ، فقال :

« لم يكن جمال عبد الناصر آنذاك ذا مفهوم سياسي معين ، كان ضائعاً في ذلك العالم المشوش . كان يذهب الى هنا وهناك ، ويزور مراكز الاحزاب السياسية آملاً ان يجد بينها الحزب الذي يتجاوب مع أمانيه الوطنية . وقد بدا له الحزب الوفدي فريداً في شعبيته وتنظيمه لأن الشعب كان ملتفاً حول زعيمه يُضفي عليه قوة لا يستهان بها . ولكنه كان أكثر تأثراً بمبادىء وبرنامج « مصر الفتاة » . والحزب المثالي الذي يضم العناصر الضرورية لتحقيق الاماني الوطنيـة لم يكن له وجود في نظره . »

صديق يكتب الى صديقه

مع الصيف جاءت العطلة وتفرق الطلاب . على الرغم من ذلك ظلّ جمال على اتصال بهم . كان يكتب لهم للابقـاء على جذوة الروح الوطنية في نفوسهم .

وهذه رسالة كتبها جمال عبد الناصر الى صديقه حسن النشار في الثاني من ايلول سنة ١٩٣٥ :

« صديقي حسن ، لقد اتصلت تليفونياً بوالدك لأتنسم أخبارك ، فاعلمني انك كنت في المدرسة . لذلك اكتب لك ما كنت أود ان اقوله لك عن كثب وبصراحة . لقد قال الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

فأين هذه القوة التي أعددناها لهم ؟

ان الحالة اليوم حرجة ، ومصر تعيش في الدوامة ، ويبدو لي ان البلد ينازع :

ان اليأس قد بلغ اشده . ومَنْ في قدرته ان يبدد هذا اليأس ؟

ان حكم مصر قائم على الفساد والمحسوبية ، فمَنْ يستطيع ان يغيّر ذلك ؟

الدستور معلّق ، والحماية ستُعلن ، فمن سيقول للاستعمار ، قِفْ مكانك !! لا ريب ان في مصر اناساً ذوي كرامة يأبون ان يموتوا كالحيوانات .

أين وطنية سنة ١٩١٩ اللاهبة ؟.. اين هم اولئك الذين يقبلون على التضحية بحياتهم من اجل تحرير مصر ؟ اين ذاك الذي يستطيع ان يُعيد بناء الوطن ، ليتمكن المصري الضعيف الذليل من ان يرفع رأسه ويعيش سيداً كريماً في بلده ؟؟!!

اين العزة ؟ وأين الوطنية ؟ اين تلك الروح التي نُسمّيها حيوية الشباب ، كل ذلك قد تلاشى والشعب نائم كأهل الكهف ، من يستطيع ايقاظ اولئك البائسين الذين يجهلون كل شيء عن حالتهم ؟

لقد قال مصطفى كامل « لا حياة مع اليأس » ، واليأس عندنا الآن على أشده ، اننا نتراجع يا صديقي ، واننا نتقهقر الى الوراء ، خمسين سنة الى الوراء . لقد عدنا الى عهد كرومر . وكرومر في ذلك الوقت وجد من يقف في وجهه يرغمه على تقديم استقالته ، من يستطيع ان يقاوم اليوم ويقض مضاجع امثال كرومر ؟ ان الجميع يزحفون وراء الاستعمار والشيء الوحيد الذي يجيدونه هو الرياء .

يقولون ان المصري رعديد يخشى الضجة مهما كانت خفيفة ، انه في حاجة الى زعيم يقوده في معركة النضال والكفاح من اجل بلده . عندئذ تجد هذا المصري كالصاعقة يلقي الرعب في امنع معاقل الطغيان .

وقال مصطفى كامل ايضاً : « لو انتقل قلبي من اليسار الى اليمين ، ولو تزحزحت الاهرام من مكانها وغيّر النيل مجراه لما حدتُ عن المبادىء التي آمنت بها . » .

ان جميع ما حصل حتى الآن ان هو الا مقدمة لعمل اهم واشمل ، لقد قلنا مراراً اننا سنعمل معاً لايقاظ الشعب من غفوته ، وبعث القوى الكامنة في نفوس ابنائه مع الاسف حتى الان لم نفعل شيئاً .

ولهذا انا في انتظارك يا أخي ، لتأتي الي في الرابع من ايلول سنة ١٩٣٥ في الساعة الرابعة بعد الظهر لنتداول في هذا الأمر ، آمل الا تفوت هذا الموعد . »

انه مستند فريد ذلك الكتاب المُوجه من فتى يافع في السابعة عشرة من عمره الى أحد رفاقه . إنه يبدأ بآية من القرآن هبط بها الوحي في احدى المعارك على النبي فأمر اتباعه ان يستعدوا جيداً ويستجمعوا قواهم ليصدّوا المشركين .

ان الله هو الذي امر بالاستعداد للمعركة ، على لسان نبيه ، وهذه الآية ما زالت تبعث الحيوية في النفوس وتحركها فلماذا لا يبدأ بها جمال عبد الناصر رسالته ؟؟ ولماذا لا يضعُ نشاطه الوطني تحت رعاية الله ؟ ولكن ما هي القوى التي يستطيع هؤلاء الشباب الوطنيون ان يستجمعوها ؟ اننا بعيدون جداً عن حماسة سنة ١٩١٩ ، والوصول الى الحكم ومزاولته قد افسدا حزب الوفد ولم يعد همُّه الا ان يرعى المرشحين الذين يجزلون الدفع لصندوقه ويمولون فيما بعد نفوذه في البرلمان ، لقد فقد هذا الحزب الكبير قيمته ونفوذه واصدق دليل على ذلك ان الملك وصدقي ومن ورائهما الانجليز استطاعوا ان يقيلوا النحاس مرات من الحكم دون ان يؤدي ذلك الى الثورة في البلاد . وحتى بعد اعتكاف صدقي تمكن توفيق نسيم ان يفرض السكينة على الشعب .

ان نشاط الشباب قد تلاشى . والشعب نائم نومة اهل الكهف التي دامت قروناً ثلاثة : لقد لاحظ جمال عبد الناصر بأسف ان مصر تتقهقر عوضاً عن ان تتقدم في طريق الاستقلال . والمفوض السامي البريطاني السير مايلز لمبسون كان يذكره باللورد كرومر ، ملك مصر غير المتوج ، الذي جيء به في عهد الخديوي توفيق ، بعد فشل الثورة العرابية وقبل انتشار رسالة مصطفى كامل التي بعثت الروح الوطنية المصرية .

ان مصر في حاجة الى قائد يقود الشعب الى المعركة ، قائد حديدي

الارادة يجترح معجزة تفوق معجزة الاهرام كما كتب توفيق الحكيم في كتابه « عودة الروح » . هذه الروح انبعثت سنة ١٩١٩ ثم فقدتها مصر من جديد على يد السياسيين الانانيين المأجورين .

ان الرسالة التي ذكرناها على الرغم من الانفجارات اليائسة التي تحتويها تنتهي بملاحظة ايجابية بناءة اذ ان جمال عبد الناصر لم يستسلم الى اليأس بل دعا صديقه النشار ليبحثا معاً عن الطريقة الناجعة لسد العجز الذي خلقه رجال السياسة . ان الواجب يفرض ايقاظ الشعب ، والكشف على القوى الكامنة . ولهذا « انا في انتظارك يا أخي لتأتي في الرابع من ايلول في الساعة الرابعة بعد الظهر لنتداول في هذا الامر . »

ترى الا تؤثر في النفس هذه الشجاعة التي يواجه بها الوطني الشاب المهمة الشاقة لاحياء الجذوة الوطنية المصرية مرة اخرى . انه يذكّر بـ « داود » الصغير يواجه العملاق جيلات اذ يدفع على المنحدر الصخر العائد عليه باستمرار .

جمال ينظم المظاهرات

في تشرين الاول سنة ١٩٣٥ عاد الطلاب جميعاً الى المدارس ، وفي هـذا الخصوص يروي استاذ الجغرافية في مدرسة النهضة السيد فكري ابراهيم فيقول :

« في يوم العودة الى المدارس اجتمع تلامذة مدرسة النهضة جماعات جماعات في الملعب واخـذوا يتجاذبون اطراف الحديث ويروون كيف أمضوا آخر ليلة من ليالي العطلة .

فهذا خرج مع رفاق له ، وآخر قام بتسليات اخرى . جمال وحده بقي صامتاً يستمع الى رفاقه . كان يبدو أكبر سناً منهم . ولمـا سأله أحدهم وانت يا جمال كيف امضيت سهرتك ؟... اجاب :

– لقد طالعت كتاباً عن شخصية النبي محمد .

فارتج على الرفيق وسكت. لقد كان الجواب صدمة له، فكيف يتسلى فتى في عمر جمال بقراءة كتاب عن النبي محمد نبي المسلمين . »

ان هذا الجواب الذي ورد على لسان معلم جمال عبد النـاصر يدل أبرز دلالة على المشاغل التي كانت تحتل نفس الشاب ، ويُفصح الاستاذ فكري ابراهيم بعد ذلك عن ميزتين من مميزات جمال عبد الناصر فيقول :

« تشاجر رفيقان ذات مرة فحكّما جمالاً فيما بينهما وعرضا عليه قضيتهما . ودون تردد قال جمال لأحدهما : « الحق مع صديقك .. وعليك ان تعتذر له »

« فغضب هذا وقال لجمال : « انك متحيز له لأنه صعيدي مثلك »

فابتسم جمال وأجابه بهدوء : « هل هو من العار ان يكون المرء صعيدياً ؟؟ بالنسبة لي انا ، انني فخور بكوني صعيدياً ، فالصعيدي هو رجل بكل معنى الكلمة ، لا يتنازل ابداً عن حقوقه مهما كلفه ذلك . »

وعلى أثر ذلك اعتذر الصديق واعترف بأخطائه . »

اننا يجب ان نتذكر هذه العبارة « الصعيدي هو الرجل الذي لا يتنازل مطلقاً عن حقوقه » دائماً ، لا سيما عندما نتحدث عن المفاوضات التي دارت مع الانجليز بشأن قناة السويس ، وفي المباحثات من أجل التعويضات المطلوبة لما سببته حملة خريف سنة ١٩٥٦ . وفي كل هذه المواقف بدا جمال عبد الناصر المفاوض الذي يتمسك بحقوقه ، بكل حقوقه ، لا يتنازل عن أي قسم إلا اذا تنازل البريطانيون من جانبهم . والفرق شاسع بينه وبين الخديويين الاتراك الذين كانوا يتعاملون مع اوروبا كأسياد أسخياء ، يمنحون الامتيازات ويوزعون الهدايا بكرم زائد ، في وقت كان الشعب يدفع ثمناً باهظاً لهذه السياسة الباذخة .

وهذه رواية اخرى جاءت على لسان فكري ابراهيم :

« كان استاذ الجغرافية يلقي درساً عن تأثير المناخ والبيئة على الانسان ، فقال ان سكان المناطق المعتدلة يمتازون بالحيوية والنشاط ، والارادة القوية ، والميل الى الاستقلال ؛ ولذلك هم قادرون على بسط نفوذهم وسيطرتهم على غيرهم من الشعوب . وأصدق مثل على ذلك انجلترة .

« عندئذ سمّر جمال عبد الناصر نظره بالاستاذ كأنه يريد إثارته ،

واكتفى بأن يقول بكل أدب : « انني لا أوافقك فيما ذهبت اليه يا استاذي . ان ما تسميه نزعة استقلالية ، وقدرة على السيطرة ، وما تعتبره فضيلة وميزة ، ليس في رأيي سوى تكالب خسيس : انني أرى فيه نقيصة وليس فضيلة . »

ان السيد فكري ابراهيم لا يستطيع اليوم إلا أن يوافق الوطني البعيد النظر فيما ذهب اليه .

وها نحن في تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ . لقد مضت سنة كاملة على وجود توفيق نسيم في الحكم . وعلى الرغم من وعوده التي قطعها لم يطلق الدستور من عقاله . رجال السياسة ناقمون ، والصحف تحتج باستمرار . ومع ذلك لم يكترث رئيس الوزراء الذي يدعمه القصر وبريطانيا لكل هؤلاء .

في تلك الاثناء أشعلت بريطانيا النار في البارود . ففي خطاب القاه في العاشر من تشرين الثاني في « جيلد هون » السير صموئيل هور وزير الدولة للشؤون الخارجية ؛ صرح أنه ليس صحيحاً ان بريطانيا تعارض عودة الحياة الدستورية في مصر . وقال بالاضافة الى ذلك : « عندما استشارنا أولو الامر ، قلنا لهم اننا ضد عودة دستور سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣٠ ، لأن الاول غير صالح للتطبيق في مصر ، والثاني لا يرضى عنه الشعب المصري . »

وبذلك اتضح رسمياً ان رئيس الحكومة المصرية يطلب التعليمات من لندن حتى في الشؤون المصرية الخاصة التي لا تدخل في نطاق التحفظات الاربعة . وها هي ذي انجلترة وراء الملك فؤاد تُعلن ان الدستور الذي وضعه جهابذة القانون المصريين غير صالح لمصر . وان سير مصر نحو الاستقلال التام قد توقف ، وسيطرة بريطانيا على البلاد ترسخت .

فما كان من الصحافة المصرية إلا أن ثارت . غير ان الاحزاب السياسية انقسمت على نفسها ، وكانت بعيدة جداً عن الوحدة الوطنية

التي تبلورت سنة ١٩١٩ ، ولم يكن في الميدان سوى الطلاب الذين ترأسوا حركة الثورة وقادوها ...

في الحادي عشر من تشرين الثاني غداة تصريح السيد صموئيل هور ، انطلق المتظاهرون في شوارع القاهرة يرددون هتاف : « ليحي الاستقلال وليسقط الاستعمار » فتصدى لهم البوليس عند جسر بولاق ، وارتدوا الى جسر عباس نحو جزيرة الروضة . ومن جديد صدهم عند الجسر الصغير القريب من قصر الامير محمد علي راكبو الدراجات النارية من الانجليز الذين كانوا يطلقون النار على المتظاهرين ، فسقط عدد من الجرحى ، واستشهد الطالب عبد المقصود شبكة ، واعتقل عدد من الطلاب الآخرين .

بعد بضع ساعات اجتمع جمال عبد الناصر باعضاء اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلاب الثانويين التي يرأسها وتباحث الجميع مع عبد العزيز الشوربجي مندوب لجنة اتحاد الطلاب الجامعيين ، فتقرر ان يجتمع الطلاب في اليوم التالي في ساحة الاسماعيلية (ميدان التحرير اليوم) للمطالبة بعودة الحياة الدستورية .

في الثامن عشر من تشرين الثاني صباحاً احتشد الطلاب من ثانويين وجامعيين في الساحة وتسلق عبد العزيز على مصباح هناك وبدأ يخطب في رفاقه الطلاب . فاذا بالبوليس المصري يهاجم الطلاب ويضربهم بالهراوات . وتلقى الخطيب نفسه ضربة أسقطت له نظارتيه ، فالتقطها جمال عبد الناصر وراح يتوسل الى رفاقه كي يصمدوا ويبقوا في أماكنهم ، فانطلق الطلاب يصيحون بأعلى صوتهم « تحيا مصر » ، فاذا برجال الشرطة يتأثرون بحماسة الطلاب الزائدة ، فامتنعوا عن ضربهم بالعصي ، وانضموا اليهم في الهتاف « تحيا مصر » . ثم تفرق المتظاهرون ولم يُعتقل احد منهم .

وفي صباح اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني جمع جمال عبد الناصر الفتى الرصين الرزين ، الذي يبدو أكبر من عمره ، رفاقه في ملعب

مدرسة النهضة ثم صرخ فيهم باعلى صوته « لتحيَ مصر » فردد هتافه كل الرفاق وراحوا يصرخون معه عباره « تحيا مصر الحرة » ثم حملوا علم المدرسة وخرجوا في مظاهرة الى الشوارع ، ومروا امام المدارس الاخرى فوافاهم تلامذتها .

وتقول مجلة المصور ان استاذ اللغة الانجليزية في المدرسة السيد وولي قد اخرج مسدسه واطلق على المتظاهرين وتلفن للشرطة ، وان الطلاب قد ثاروا منه فخربوا له سيارته . ان هذا الحادث لم يتأكد لديّ .

ويقول وولي انه لاحظ بكل اسى ان طلابه غير مستعدين لتقبل آرائه ، وان جمال عبد الناصر بصورة خاصة كان يبغض السياسة الانجليزية والاستعمار وما يسمى بالرسالة التمدينية لاوروبة . وكان يرى في التوسع السياسي البريطاني او الفرنسي رغبة في الاحتلال غير المشروع وجشعاً مبطناً بمظاهرات انسانية . ونفسه المتشددة كانت تثور ضد كل تعاون مع المحتل البريطاني .

لقد ايقظت مظاهرات الحادي عشر والثاني عشر من تشرين الثاني المواطنين النائمين نومة اهل الكهف ، وكي لا يصطدم الانجليز بجبهة الشعب ، وجّهوا عليها اول الامر البوليس المصري ، ولكن رجاله تراجعوا عن مهمتهم ، واستنكفوا عن ضرب شباب متحمسين يهتفون « لتحيَ مصر الحرة » وشعر جمال عبد الناصر نفسه بان مظاهرات الثاني عشر من تشرين الثاني قد سجلت نصراً ، وانه يجب اغتنام الفرصة الذهبية للبدء في الهجوم على المحتلّ البريطاني ؟

وفي صباح الثالث عشر من تشرين الثاني اجتمع طلاب مدرسة النهضة في ملعب المدرسة ، وبدأوا يرددون هتاف « تحيا مصر » ثم حملوا علم المدرسة وانطلقوا في الشوارع يقودهم الطالب جمال عبد الناصر للتظاهر في المدينة ، لقد مروا امام مدرسة فؤاد الاول فاذا بطلابها يتركون صفوفهم وينضمون الى المظاهرة تتقدمهم الاعلام المصرية .

ومر الموكب امام فندق شبرد حيث كان على الشرفة الشهيرة بضعة اشخاص من الانكليز يحتسون الويسكي ، فاذا بجمال يصرخ بالانجليزية « لتحيَ مصر ولتسقط بريطانيا » ويقود المتظاهرين الى المدينة لينضم الى طلاب الجامعة الذين ينتظرون قدومهم من الجيزة . ولما كان رجال الشرطة قد سدوا جسر بولاق فمعنى ذلك انه كان على طلاب الجامعة والمدارس المهنية المحتشدين في بستان أم درمان ان يسلكوا طريق جسر الروضة فاتجهوا نحوه .

ولكن جسر الروضة الصغير متحرك يفتح لبضع ساعات في اليوم لتمرّ المراكب النهرية ذات الأشرعة العالية . ورغبة في تفريق هذه المظاهرة فتح البوليس اذن هذا الجسر . وبذلك فصل النيل بين طوابير التلاميذ .

فما كان من جمال الا ان نزل الى الضفة واستأجر زورقاً صغيراً وانضم اليه بعض طلاب المعهد الصناعي في جزيرة الروضة ثم تسللوا الى تحت الجسر ونجحوا في ادارة الجهاز الآلي واقفلوا الجسر ، فتدافع الطلاب عليه لاجتياز النيل الفاصل بينهم وبين رفاقهم ، فاذا بالشرطة تُنذرهم ثم تطلق عليهم النار .

ومن جراء ذلك سقط الطالب محمد جميل مرسي شهيداً ، كما مزق الرصاص احشاء الطالب بكلية الآداب عبد الحكيم الجراحي الذي فارق الحياة بعد خمسة ايام في المستشفى متأثراً من جراحه . وقد اعرب الجريح الى الرفاق والاهل الذين عادوه في المستشفى قبل وفاته بانه سعيد بان يضحي بنفسه من اجل مصر وحريتها .

وكان ان شنت الصحف حملة شعواء على الانجليز ورجال الشرطة المصرية الذين تعاونوا مع المحتلين ، فاعتقل عدد من الطلبة ، الامر الذي أثار حفيظة الاهلين مما حمل المفوض السامي البريطاني على القول : « اجل ليس قتل مواطنين يافعين في السابعة او الثامنة عشرة من عمرهم

مدعاة للفخر يوماً ، ولكن ما العمل ؟... وماذا نفعل بالذين نعتقلهم من الطلاب المتظاهرين ؟.. »

عاد جمال الى بيته من أجل ان يعد الطعام لرفاقه المسجونين الذين لا يستطيعون تناول طعام السجن ، ثم توجه الى بيت الأمة ، دارة سعد زغلول سابقاً التي كانت مؤتمراً وطنياً دائماً يُحيي ذكرى ايام تشرين الثاني سنة ١٩١٩ الدامية .

وبالقرب من « بيت الأمة » حصلت معركة اخرى مع الشرطة ، اذ لاحظ احد الضباط الانجليز بين الجموع المتظاهرة شاباً نحيلاً طويل القامة يبدو عليه انه المحرض على التظاهر ، فاطلق عليه رصاصة مزقت له جبهته ، وسال الدم على وجهه فقاده رفاقه الى مكتب جريدة الجهاد المجاور لصاحبها الكاتب الوطني توفيق دياب ، وهنـاك جرى تضميد جرح جمال بعد ان رفض التوجه الى المستشفى لئلا يعتقل . ومـا زال الرئيس يحمل في جبهته حتى اليوم اثر تلك الرصاصة .

عندما كان جمال تلميذاً في الثانية عشرة من عمره تلقى ضرب الهراوات من شرطة الاسكندرية ، وفي الثامنة عشرة تلقى الرصاص في جبهته ونجا من الموت باعجوبة . تلك هي ذكريات الفتوة في نفس جمال عبد الناصر فلا عجب اذا اضمر في نفسه على مدى الحياة كرهاً لرجال الشرطة الاجانب وجيوش الاحتلال .

وتروي صحيفة الجهاد في عددها الصادر في الرابع عشر من تشرين الثاني سنة ٩٣٥ كيف لجأ الطلاب الجرحى الى مكاتبها بعد اصطدامهم بالشرطة ، وتذكر بين الجرحى اسم الطالب جمال عبد الناصر المجروح في جبهته ، والطالب عبد الحميد عزة ، والازهري الشيخ جبر .

وتُضيف بان عضواً بارزاً في حزب الوفد السيد حمدي سيف النصر الذي كان وزيراً للحربية قد ضرب ضرباً مبرحاً على رأسه من البوليس اثناء الاضطرابات التي حصلت قرب « بيت الأمة » .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه قررت الحكومة اقفال المعاهد شهراً كاملا فعم الاحتجاج الاوساط كلها ، وفي الغد لم تصدر اية صحيفة . واحس الانجليز بان الاتحاد الوطني يعود الى الظهور ، فصرحوا بانهم ليسوا ضد النظام الديموقراطي .

وفي الثاني عشر من كانون الاول سنة ١٩٣٥ اصدر الملك فؤاد أمراً ملكياً باعادة دستور سنة ١٩٢٣ ، وكتبت المصور اثر ذلك تقول « لقد انتصر انصار الحرية، لقد انتصر الشباب، بل لقد انتصرت مصر كلها » .

والواقع ان الانجليز قد تراجعوا لان الوضع الدولي كان يدفعهم الى ايجاد مجال للتفاهم مع مصر . لقد كانت ايطالية تسير بخطى ثابتة نحو النصر في حربها ضد الحبشة . وكانت تحشد جيوشها عند منابع النيل على حدود السودان من جهة ، وفي ليبيا من جهة ثانية . ولو ان موسوليني الذي اسكرته خمرة النصر دفعته اطماعه الى الاتجاه نحو مصر ، فأية مهمة عسير على بريطانية ان تواجهها في حربها معه ووراءها الشعب المصري في ثورة عليها .

وبالاضافة الى ذلك كانت قوة المانية النازية الصاعدة في أوروبة قد بدأت تنشر شبح حرب عالمية جديدة فوق العالم .

وذلك التراجع بالنسبة لبريطانية لم يكن خسارة كبرى . ان عودة الدستور تعني في نظرها اتاحة المجال امام الوفديين للعودة الى الحكم أو قيام حكومة ائتلافية ليس الا ، والدستور الممنوح مرة اخرى للمصريين يمكن سحبه وايقاف مفعوله في كل وقت بامر ملكي وايعاز من لندن .

وبينما كانت الاحزاب المصرية تحتفل بالنصر الذي جنته ولم تربحه ، اعلن الحزب الوطني عزمه على الاستمرار في المعركة حتى يتم الجلاء التام عن ارض مصر . وجمال عبد الناصر رئيس اتحاد الطلاب الثانويين حاول بدوره اقناع رفاقه والمنظمات الطلابية بضرورة متابعة الجهود حتى تنال مصر ثمن الدم المراق ، اي حتى تنال استقلالها الناجز .

كان الفتى اليافع كمواطن صعيدي يطالب بكل حقه . كان يريد ان يستمر الطلاب في اضرابهم للابقاء على روح النضال في الامة . ولكن الرأي العام كان ضد ذلك ووجه النحاس نداء الى الطلاب يدعوهم فيه الى العودة الى دروسهم ، وان كل من يستمر في اعداد المظاهرات يعتبر خائناً ، وعمله مضر بالمصلحة العامة .

طوعاً او كرهاً ، عاد التلامذة والطلاب الى صفوفهم ، وحصلت مشادات بين الطلاب الوفديين والوطنيين ، وجرت معارك بين « القمصان الخضر » و « القمصان الزرق » وكان يتزعم فريق الطلبة المتعنتين في في كلية الحقوق آنذاك نور الدين طرّاف ، الرئيس الحالي للمجلس التنفيذي في الاقليم المصري . وعندما كان الطلاب الوطنيون المتطرفون الذين يشكلون اقلية يتعرضون لهجوم الطلاب الوفديين ، كان يهب جمال عبد الناصر على رأس فريق من الطلاب الثانويين لنجدتهم .

وفي كتاب « فلسفه الثورة » يفرد جمال عبد الناصر بضعة اسطر لذكريات الشباب فيقول : « في تلك الايام قدتُ مظاهرات في مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقي اطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائي كثيرون ... ولكن صراخنا ضاع هباء وبدّدته الرياح اصداء واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور . »

واكتفى ممثلو الطلاب بزيارة زعماء مختلف الأحزاب ، طالبين اليهم ان يشكلوا حكومة ائتلاف وطني ويؤلفوا جبهة موحدة للتفاوض مع بريطانية .

المعاهدة المصرية الانجليزية

اثر ذلك افسحت وزارة توفيق نسيم المكان لوزارة علي ماهر التي دام حكمها أربعة أشهر ، ثم حكومة ائتلافية برئاسة مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد . ومات الملك فؤاد وخلفه ولي عهده فاروق يعاونه مجلس وصاية . وألف وفد وطني للتفاوض مرة اخرى مع بريطانية بشأن المسائل المعلقة ، وادت المحادثات في آب سنة ١٩٣٦ الى توقيع معاهدة صداقة بين مصر وبريطانيا ، من شأنها ان تُنهي الاحتلال العسكري والوصاية البريطانية . ولكنها استثنت بعض القواعد العسكرية البريطانية للدفاع عن وادي النيل وقناة السويس ضد كل عدوان خارجي ممكن : وفي حالة الحرب نصت المعاهدة على ان توضع الاراضي المصرية بطرق مواصلاتها ومطاراتها وموانئها تحت تصرف الجيش البريطاني . وعلى بريطانية من جهة اخرى ان تُسرع الى نجدة حليفتها فيما لو دخلت في غمار حرب ما :

وكذلك تعهدت بريطانية بان تسعى لادخال مصر الى عصبة الامم ، وتعاهد الطرفان على الا يتخذ اي منهما موقفاً بعقد معاهدة سياسية تتعارض مع مضمون هذه المعاهدة التي يجب ان يُعاد النظر فيها بعد عشرين سنة . وبخصوص السودان أُبقيَ نظام الشراكة موقتاً فيه ، اما المصالح

الاجنبية فتخلت عنها بريطانية وتعهدت بمساندة الغاء نظام الامتيازات .

تلك كانت الخطوط الكبرى لمعاهدة سنة ١٩٣٦ الانجليزية — المصرية التي وافقت عليها الاحزاب كلها ، ما عدا الحزب الوطني ، ولم يكتف انصارها بالموافقة بل عدوها معاهدة الشرف والاستقلال ...

ولعل من المفيد ان نتساءل : ماذا حل بجمال عبد الناصر في الوقت الذي كان رجال السياسة يتفاوضون مع انجلترة لتوقيع هذه المعاهدة ؟؟؟

في رسالة بعث بها في الثاني من ايلول سنة ١٩٣٥ الى صديقه حسن النشار نعلم في اية حالة نفسية كان جمال عبد الناصر في الوقت الذي أشرف فيه على الانتهاء من دراسته الثانوية .

في الفترة الممتدة بين تشرين اول سنة ١٩٣٥ وكانون الثاني سنة ١٩٣٦ خصص جمال وقته ونشاطه للدعاوة السياسية متنقلاً بين مراكز الاحزاب ، منظماً لجان الطلبة الثانويين الذين كان يتولى رئاسة لجنتهم التنفيذية .

لقد حاول اساتذته ووالده ان يهدئوه ويدفعوه الى الاهتمام بدروسه وترك مهمة الدفاع عن الدستور والنضال من اجل الاستقلال الى الساسة الكبار . ولكن جمال الذي عُرف عنه الاجتهاد والانتظام لم يصغ الى هذه النصائح ، لقد انصرف بكل جوارحه الى العمل الدعائي . كان القلق الوطني في ايلول قد تحول الى عمل محموم ، وبدا كأنه توّج بانتصار كبير عند اعلان عودة دستور سنة ١٩٢٣ . ولكن ذلك الاندفاع تلاشى عندما رفضت الاكثرية الاستمرار في النضال ، وتُركت للاحزاب السياسية مهمة التفاوض مع بريطانية مع الرغبة الملحة في الوصول الى اتفاق . وذلك لان الانتصارات الفاشستية كان تقلق المصريين ، وتدفعهم الى تمنى المساعدة البريطانية .

قرفاً من سياسة المهادنة هذه قرر جمال العودة الى مدرسة النهضة ، غير ان المدير وضع عراقيل كثيرة في وجه عودته اذ كان البوليس يراقبه

ويدبج التقارير الطويلة عن نشاطه السري واتهمه بدعوة التلامـذة الى الثورة . ولما لم يتراجع المدير اضطر جمال الى البقاء في البيت .

بعد اشتداد المعركة السياسية والمظاهرات الصاخبة جاءت الحقيقة هزيلة مخيبة للآمال ، فما هي الطريقة التي يمكن بها ابلاغ والده الموظف البريدي البسيط ، وعمه خليل حسين بأن الفتى جمال مفصول من المدرسة ؟ وما هي المهنة التي يمكنه الاستعداد لها دون شهادة الدروس الثانوية ؟

من حسن الحظ ان رفاق جمال تدخلوا وطلبوا من سليمان زكي ان يعود عن قرار الفصل ويقبل رفيقهم ، ولما رفض ثارت المدرسة بكاملها . أخرج التلامذة كل المقاعـد الى الملعب وهددوا بحرقها ، كما أعلنوا الاضراب العام . وبما ان النهضة هي مدرسة خاصة ، وموازنتها تنهار اذا ما ثار رفاق جمال ؛ لذلك عاد المدير عن قراره ، فأصر التلامذة على ان يتوجه ناظر المدرسة الى بيت جمال ويعود به جالساً عن يساره في عربة . وهكذا عاد جمال الى مدرسته في موكب من الطلاب .

وعندما اقتربت امتحانات آخر السنة أعلن المدير انه لن يسمح لجمال بالاشتراك فيها لأنه لم يداوم الا اربعة واربعين يوماً طيلة السنة الدراسية . وكان ان ثار الطلاب من جديـد ، وتراجع المدير مرة ثانية . وفي الاسابيع الاخيرة انصرف الزعيم الطلابي الى العمل الجدي المتواصل ، ونجح في امتحان البكالوريا بدرجة مشرفة .

لقد تعرفت مؤخراً الى ضابط مصري كان قد التقى بجمال عبد الناصر صدفة خلال صيف سنة ١٩٣٦ . لقد كان ذلك في دمنهور ، عند عمه خليل حسين ، الموظف في وزارة الاوقاف في تلك المدينة آنذاك . كان جمال عوضاً عن ان يشارك الاكثرية تفاؤلها بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ ثائراً على سياسة النحاس الداخلية والخارجية . وامام شاب في التاسعة عشرة من عمره ، لأول مرة تكلم جمال بجرأة ضد الانجليز ، وحكومة الوفد ، والملك . وكان محدثه يُصغي اليه مشدوهاً ، مغموراً بحماسته

الوطنية . وكان لا يخشى الا ان تصل أنباء هذا الثائر الى آذان الشرطة ويعتقلوه .

وهذا الضابط الذي يكبر جمال بسنة واحدة كُتِبَ له ان يلتقي به مرة ثانية ، بعد اثنتي عشرة سنة قرب الفالوجة اثناء حرب فلسطين : في تلك الاثناء كان التحالف المزيف بين مصر وبريطانيا يُعطي ثماره المسمومة وكان الانتداب البريطاني على فلسطين قد انتهى الى مأساة لسوء تصرف الانجليز ، والجيش المصري بلا عدد ولا مخططات ولا قادة ، ألقى بـه فاروق مستخفاً في أتون حرب فلسطين لمواجهة العصابات الصهيونية :

قبول جمال في الكلية الحربية بعد رفضه

كان على جمال عبد الناصر ، بعد ان أتم دروسه الثانوية في القسم الادبي ، ان يختار الطريق الذي سيوجه فيه دروسه العالية .

كان يهتم كثيراً بالسياسة ، ويشتعل حماسة للنضال من اجل استقلال بلاده ، وكان بسبب الاتصالات التي كان قد أجراها مع السياسيين والاحزاب يضمر اشمئزازاً لهؤلاء جميعاً ، لقد حملته مطالعاته عن ابطال العرب وسير الرجال العظام امثال الاسكندر المقدوني ، ويوليوس قيصر ، ونابليون ، وغاندي ، والمصلحين التقدميين امثال الافغاني ، والشيخ محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، حملته على ان يتعشق الاعمال العظيمة في الحقل الوطني : وفي اعماقه ، على ما يبدو ، كان يحمل أثراً من سلاطين المماليك الذين كانت تقوم مساجدهم امام مدرسة النحاسين :

وجميع ذلك دفعه الى الايمان بان استقلال مصر لن يتم بالخطب والمرافعات ، بل يجب ان تواجه القوة بقوة مثلها : وجيش الاحتلال بجيش وطني .

وهكذا قرر جمال ان يلتحق بالجيش .

تقدم الى الكلية الحربية حيث أجرت له اللجنة قبل كل شيء فحصاً طبياً دقيقاً .

بهذا الخصوص لا خوف من شيء ، إذ أن المرشح قويّ البنية ، سليم الجسم . ولكن اصحاب العلاقة أعلموه بأنّ عليه ان يعود بعد ايام لاجراء امتحان « المظهر » .

وفي اليوم المحدد اجتمعت اللجنة ، وكانت تضم كبار رجال الجيش ، ووقف جمال أمامها خافق القلب ، قلّب رئيس اللجنة ملفاً مملوءاً بالاوراق ، فلاحظ جمال بأن الملف يحمل اسمه . وبدأ رئيس اللجنة بالسؤال :

– ما اسمك ؟

– جمال عبد الناصر حسين .

– ماذا يعمل ابوك ؟

– انه موظف في البريد .

– موظف كبير ؟

– لا ، موظف صغير .

– من أين انت ؟

– من بني مر ، منطقة اسيوط .

– اذن انتم فلاحون ؟

– نعم .

– ألم يكن أحد افراد عائلتك ضابطاً من قبل ؟

– كلا .

– لماذا اذن تريد ان تصبح ضابطاً ؟

– لأقف نفسي على خدمة الوطن .

– هل عندكم أملاك ؟

– كلا ، فنحن من ابناء الشعب .

– هل أوصى أحد بك ؟

– تقصد هل تسندني واسطة ؟ كلا ..

- هل اشتركت في مظاهرات سنة ١٩٣٥ ؟
- نعم .
- طيب ، يمكنك ان تنسحب .

ذهب جمال ، وعلم بعد أيام بأنه لم يُقبل لأنه حفيد فلاح من بني مرّ ؛ وابن موظف بريدي بسيط ، ليس له أملاك ، ووطني مناضل بصورة خاصة ؛ فهم لا يقبلون في الجيش إلا الذي توحي عائلاتهم وسوابقهم الثقة الى السلطات الحاكمة . انهم لا يقبلون ثائراً في الجيش .

لقد كانت خيبة الامل قاسية في نفس جمال ، وحاول ان يُخفي ألمه ويتجلد ، وفي قرارة نفسه وُلِدَ الحقد على نظام يحول بينه وبين عزمه على التضحية في سبيل تحرير بلاده .

لقد أيقن ان مجلس الوصاية الذي يرئسه الامير محمد علي الارستقراطي الثرثار ، والحكومة الائتلافية التي يتزعمها مصطفى النحاس الصدى الرنان للزعيم الكبير سعد زغلول وصديق الملاكين الكبار الذين لا يهمهم سوى اسعار القطن ، وكبار الموظفين والضباط ، اصدقاء القواد الانجليز ، أيقن ان كل هذا العالم الذي يقدّم مصالحه الخاصة على المصلحة العامة والاستقلال الوطني . كل هذا العالم يجب ان ينحّى ليفسح المجال أمام النظام الجديد الاشتراكي الوطني الذي تدعو له « مصر الفتاة » .

وبعد رفض الكلية الحربية ، قرر جمال ان يدخل الجامعة في تشرين الاول سنة ١٩٣٦ ، وتابع مدة ستة أشهر محاضرات كلية الحقوق على الرغم منه ، لأنه حاول في نفس الوقت ان يدخل في مدرسة البوليس . ولكنه هنا ايضاً رُفض ؛ وبالتقرير الذي وضعه مركز بوليس الجمالية أورد ان جمال عضو في حزب احمد حسين الاشتراكي ، وذكر انه قد نظّم مظاهرات طلابية ، أي انه لا يقدم الضمانات الضرورية في الانتظام والطاعة السياسية .

ولحسن الحظ ان المعاهدة الانجليزية - المصرية التي اعتبرها جمال

كارثة وطنية لانها كرست بقاء قوات بريطانية في مصر – هذه المعاهدة كان فيها فجوة استفاد منها الوطني الشاب .

ان مصر قد اصبحت حليفة بريطانيا ، وصار من الطبيعي جداً ان يتضاعف جيشها ، بعد ان حال الانجليز دون ذلك منذ ثورة عرابي • وهكذا قبلت الكلية الحربية في خريف سنة ١٩٣٦ واحداً وخمسين تلميذاً بدأ تدريبهم في كانون الثاني سنة ١٩٣٧ ، وأعلنت وزارة الحربية انها ستُجري دورة ثانية للدخول الى الكلية الحربية .

وكان جمال يتحرّق رغبـة في ترشيح نفسه للدورة الثانية . ورفاقه الوطنيون في الجامعة كانوا يشجعونه على تجربة حظه مرة ثانية . وقال له أحدهم : « عندما تنتهي من دراسة الحقوق ستبقى مدى الحيـاة الاستاذ جمال ليس إلا ، أما اذا أصبحت ضابطاً فيمكنك ان تصل الى رتبة لواء ، الامر الذي يؤهلك لحمل لقب باشا . »

ذلك ما قاله رفيقه . اما الفتى الثائر فكان يرى ان العسكريين في التاريـخ قد استخدموا القوة للتخلص من الساسة الانتهازيين . ان القوة وحدها اذا دُعمت بدعاوة سياسية منظمة قادرةٌ على انتزاع السلطـة وطرد المحتلين الاجانب .

عزم جمال على ان يُعيد الكرة ، وكان يخشى ان يعرقل مشروعه تقرير البوليس السياسي .

فقرر ان يستغل كل ما لديه من جرأة ، وذهب ليقابل امين الدولة المساعد الجديد في وزارة الحربية اللواء ابراهيم خيري في بيته . وهناك قدّم بطاقته الشخصية الى الخادم الذي رفعها الى الباشا . ثم أدخل الى قاعة الاستقبال فسأله الامين المساعد :

– ماذا تريد ؟

– ألا يُقبـل الطلاب في الكلية الحربية إلا اذا كان لديهم واسطة

تدعمهم ؛ أم أن هناك قواعد عامة تسري على الجميع ؟
قال الباشا !
-- ولماذا هذا السؤال ؟ هل سبق لك وقدمت طلباً للالتحاق ؟
-- نعم ، وقد نجحت في الامتحان الطبي ، واذا كان لا بد من وجود دعامة للمرور في امتحان « المظهر » فما علي إلا ان انسحب وأبقى في كلية الحقوق .

نظر الباشا بعطف الى هذا الشاب القوي البنية ، الوطيد العزم ، وشعر بأن جمال يرغب من كل جوارحه ان يصبح ضابطاً . انه عنصر جيد للجيش .

فقال له بكل بساطة : « تقدم الى الامتحان »

وهكذا تقدم جمال عبد الناصر مرة ثانية الى الامتحان امام اللجنة ، وكان يرئسها ابراهيم خيري نفسه ، فتعرف الى جمال وحمل اللجنة على قبوله .

انهم قليلون الذين يعرفون هذه الحادثة . والرواية الشائعة ان جمال قُبل في المدرسة العسكرية في الدورة الثانية لأن شبح الحرب العالمية الثانية كان يقترب ، ولأن الجيش المصري كان بحاجة ماسة الى ضباط . والواقع ان الحاجة لم تكن ملحة الى هذا الحد عندما قُبل جمال عبد الناصر في المدرسة العسكرية في آذار سنة ١٩٣٧ ، ولذلك كان من المحتمل رفضه هذه المرة ايضاً لولا حصوله على ثقة اللواء ابراهيم خيري . وكان هذا الضابط ايضاً فضلاً عن ذلك يعمل بنشاط وحرية لرفع مستوى الجيش المصري . فقبل في الجهاز العسكري شباناً من الطبقة الوسطى ، شرط ان يكونوا أذكياء وأقوياء البنية ، حتى لا يقتصر ذلك الجهاز على ابناء الطبقة الثرية وصنائع القصر ورجال السياسة .

انه هو الذي قبل في الكلية الحربية عبد الحكيم عامر ، وزكريا محيي الدين ، وحسين الشافعي ، وكمال الدين حسين . هؤلاء الشبان

البرجوازيين الذين فرض فيهم ان يكونوا أكثر تقبلاً لدعاوة جمال عبد الناصر الوطنية ، من ابناء العائلات الارستقراطية المنصرفين الى اللهو والعبث .

وللحيلولة دون انحراف الضباط الى المقاهي ، شجع ابراهيم خيري قيام نادي الضباط ، الذي سيلعب فيما بعد ، دوراً بارزاً في اعداد الحركة الثورية .

غير ان هذا الاستقلال الذي أظهره امين الدولة المساعد في تنظيم الجيش قد أدى الى خلافات كبرى في وجهات النظر بينه وبين القصر ورجال الحكم ، مما حمله على تقديم استقالته في سنة ١٩٣٩ ، فترك المجال حراً لتدخل القصر المستمر في شؤون الجيش ، ألم يصل الامر اثر ذلك بالملك فاروق ان منح سائق سيارته الخاص رتبة نقيب في الجيش دون ان يتكبد مشقة المرور فيما يسبقها من رتب ؟؟

وقصة رفض جمال عبد الناصر ثم قبوله في الكلية الحربية كان لها صداها ايضاً في عالم السينما . والكاتب يوسف السباعي ، الامين العام للمؤتمر الاسيوي الافريقي حالياً ، كتب سيناريو فيلم عن ثورة ١٩٥٢ بطله ابن بستاني لدى أحد أمراء العائلة المالكة . وفي هذا الشريط يُنقذ الفتى القومي المجتهد يوماً حياة الاميرة من الغرق ، ويصبح خلال العطل رفيقها في اللعب ، ويعشق بذلك الفروسية . كان يحلم ان يصبح ضابطاً ، وما كاد ينتهي من دروسه الثانوية حتى تقدم الى الكلية الحربية ، ولكنه رفض لأنه ابن فلاح ، وليس له من يدعمه بين الشخصيات النافذة .

وبناء على الحاح ورجاء الاميرة الشابة تدخل الامير بشأنه لدى اللجنة العسكرية فقبل الفتى . وبعد ذلك نما الغرام بشدة بين الفارس الجميل والاميرة الحسناء . وكاد الامير العجوز يُصعق من الذهول والغضب عندما جاءه البستاني بجلابيته وتجرأ على ان يطلب منه ابنته لابنه الضابط ،
كان لا بد من ثورة سنة ١٩٥٢ لهدم هذه الحواجز الطبقية وإفساح

المجال امام الحبيبين لاشباع نهمهما .

ان هذا السناريو يجسد روح الثورة المصرية التي ارادت ان تحارب الاقطاع وتحد من الرأسمالية الكبرى ، وتتيح مجال الوصول الى اعلى المراتب للشبيبة الوطنية ، دون ان يكون لديها اي حقد شخصي ضد عائلات العهد القديم. وحصول الضابط ابن البستاني على الاميرة يبدو كأنه رمز الثورة التي قضت على تسلط الاقلية الاورستقراطية – التركية المصرية وسلّمت مقاليد الامور للضباط الوطنيين الشباب .

ان قصة جمال عبد الناصر والمساندة التي لقيها لدى ابراهيم خيري هي التي اوحت الى يوسف السباعي بلا ريب سناريو الفيلم. والحقيقة ابسط من الشريط ؛ ولم يكن هناك اميرة تركية جميلة مقتّعة بالمبادىء الديموقراطية .

-- 7

لأنه عبد الناصر هو الذى ذهب الى
الضابط ابراهيم خيرى ليتوسط له للدخول الى
الكلية الحربية وجلسا هو والضابط فى المقعد
الخلفى بينما جمال فى المقعد الامامى جانب
السائق فما كان من جمال بعد الحكم الا
ان اعتقل ابراهيم خيرى هذا بهذه الحجة
ولعن ابراهيم اليوم الذى رشح فيه جمال للكلية

تلميذان في الكلية الحربية

كان على جمال عبد الناصر الذي دخل الكلية الحربية في السابع عشر من آذار سنة ١٩٣٧ في الدورة الثانية ان يمر اولاً فيما يسمى بـ « فترة الامتحان » . وبعد خمسة اشهر اطلع خلالها على مبادىء الحياة العسكرية وامتحن لمعرفة مقدار احتماله لها من الناحيتين المعنوية والرياضية واثر ذلك اعلن مجلس الكلية ان الطالب جمال صالح للحياة العسكرية ، وسجّله في الشعبة الاعدادية ثم الوسطى :

بعد الفترة المضطربة التي عاشها الفتى في مدرسة النهضة ، ثم اثناء تمرينه القصير في الجامعة وجد نفسه سعيداً اخيراً في حياة الكلية الحربية النظامية ، اذ ان المنظمة والتمارين الرياضية ، وساعات المطالعة الطويلة في المكتبة العسكرية ، كل ذلك قد تجاوب مع حميته الوطنية. لقد اصبح له هدف معين امام ناظريه . انه يريد ان يكون ضابطاً مثالياً متحلياً بالصفات التي تؤهله للقيادة فيما بعد :

وعلى الرغم من انه دخل الى المدرسة بعد مضي ثلاثة اشهر على بدء الدروس فقد استطاع جمال ان يكيّف نفسه بسرعة على الحياة العسكرية، الامر الذي اتاح له ان ينتقل الى الشعبة النهائية ويصبح رئيس فريق . وفي السنة التالية كُلف باعداد الدفعات الجديدة . وفي الفريق الذي

كلف شؤونه كان عبد الحكيم عامر القائد العام الحالي للقوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة احد افراده . ان جمال هو الذي علّمه كيف يرتّب هندامه ويُحيي رؤساءه ويقوم بتمارينه العسكرية الاولية . وقد جعل منهما صديقين حميمين ميلُهما المشترك للمطالعة . وكان الطلاب يطلقون على عبد الحكيم عامر اسم « روبنسون » لميله الى قراءة قصص الاسفار والمغامرات الغريبة كمغامرة « روبنسون كروزويه »

وكان عبد الحكيم عامر طالباً مثالياً ، مجتهداً، يتقيّد بقانون المدرسة، لذلك انسجم مع النظام العسكري تماماً ، وكان عبد الحكيم عامر اكثر حيوية ، ولكن اقل اتزاناً من جمال الذي استطاع ان يفرض شخصيته القوية على زملائه .

ومما كتبه اللواء عبد الواحد عمار الذي كان يدرّس آنذاك المدفعية، والقانون العسكري في تقريره عن الطالب جمال قوله انه يتصرف كالرجل الكامل ، لا يبتسم الا نادراً . وهو رفيق مثالي يحبه رفاقه واساتذته جميعاً . وبفضل بنيته القوية كان يتحمل بصبر لا ينضب دروس الرياضة البدنية . وبما انه لم يقترف اي ذنب يستوجب العقاب منذ دخوله الكلية الحربية ؛ لذلك عُيّن عريفاً ، وهذا امر نادر جداً ، في الطلاب . وكانوا ينادونه « العريف جيمي » وصداقته مع « روبنسون » كانت معروفة لدى الجميع . وعندما كان جيمي يُطلّ ، فمعنى ذلك ان روبنسون لن يتأخر في الظهور والعكس بالعكس . ومكتبة الكلية كانت مكان، اللقاء المفضّل عندهما .

كان يستغرق تعليم تلاميذ الضباط عادة ثلاث سنوات ، ولكن في سنة ١٩٣٧-١٩٣٨ كان الجيشُ المصري في حاجة ماسة الى ضباط جدد لتنظيم الدفعات الجديدة من الجنود . ولذلك قبل جمال في الامتحانات النهائية بعد ستة عشر شهراً فقط من دخوله الكلية . وقد نجح في هذه الامتحانات ونال ٧١٪ من مجموع العلامات ، ومن المفيد الاشارة الى

انه لم يحصل الا على ٦٨٪ في التاريخ العسكري، المادة التي كان يعشقها، و٧٢٪ في التنظيم الوطني ، بينما حصل على ٨١٪ في الرياضيات والعلوم و٩٥٪ في التنظيم الاداري ، تلك هي صدف الامتحانات ، حيث يلمع الطالب او يمر بجهد حسب السؤال المطروح او حسب مزاج الفاحص .

في اول تموز سنة ١٩٣٨ نجح جمال عبد الناصر في الامتحانات للكلية الحربيـــة ، فعُيّن ملازماً في سلاح المشاة ، وارسل الى ثكنة منقباد ، على مسافة بضعة كيلومترات من اسيوط ، وبني مر .

وقبل ان نلحق ببطلنا الى الصعيد ؛ لا بدّ من ان نذكر الكتب التي التهمها خلال مطالعاته الطويلة في مكتبة الكلية الحربية .

جمال يدرس سير العظماء والعلم العسكري

تقع الكلية الحربية التي تضمُّ اليوم اكثر من الفي تلميذ ضابط في صحراء هليوبوليس الى الغرب من الشارع الذي يؤدّي الى مطار القاهرة على مقربة من الكلية المصرية الفرنسية ونادي الضباط .

لقد زرتها وبفضل الاذن الذي زوّدني به مدير الكلية اللواء محمد فوزي ، استطعت ان اتفحص مكتبتها الكبيرة بما فيها من كتب يعود اليها الطلاب والاساتذة من عسكريين ومدنيين .

لقد لاحظت ان الكتب التي طُلبتْ اكثر من سواها في نهاية شتاء سنة ١٩٥٩ كانت الكتب التي تبحث في القومية العربية والمسائل البترولية ، لا سيما كتاب « مبادىء القومية العربية » لحازم زكي نسيبة الاستاذ في جامعة برنستون في الولايات المتحدة . وفي اللغة العربية راجع الطلاب كثيراً كتب عبد الرحمن الرافعي المؤرخ القومي الذائع الصيت . كما طالعوا كتاب « آراء واحاديث في القومية العربية » لساطع الحصري مدير معهد الدراسات العربية العليا في القاهرة سابقاً ، والمدير المساعد في الادارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية .

ويطالع الطلاب بشغف لمحمود عيسى رئيس تحرير « مجلة الجيش » ويقرأون له « البترول في الشرق الاوسط » وكتابه « احلاف ضد

احلاف » الذي يعرض فيه التوتر الدولي الذي نتج عن تنافر الكتلتين السياسيتين العالميتين . لقد قيل لي ان محمود عيسى قد نشر اثنين وثلاثين كتاباً خلال حياته ككاتب . ويعتبر في الجيش مرجعاً في التاريخ السياسي والاقتصادي ، ومن الكتب الهامة الموجودة في المكتبة العسكرية كتاب « البترول » للدكتور راشد البراوي ، وتجد فيها ايضاً كتاب « في قلب افريقية » للكاتب الاميركي جون كونتر المترجم للعربية ، وكتابه « في قلب آسية » باللغة الانجليزية .

ولتكوين ثقافة صحيحة عن السودان يُطالع طلاب الكلية الحربية كتاب داوود بركات الذي عمل مدة طويلة رئيساً « لتحرير الاهرام » . وهناك عن اسرائيل كتب ثلاثة « عدونا اسرائيل » للماجور جنرال محمد صفوت ، الذي انتقل من الجيش الى السلك الدبلوماسي والذي يمثل اليوم بلاده في عاصمة اليابان . و « مشكلة اسرائيل » للدكتور محمد رفعت ، وكتاب « بن غوريون في اسرائيل » لبارنيت لتوينوف ، باللغة الانجليزية .

وفي سنة ١٩٣٧ عندما دخل جمال عبد الناصر الكلية الحربية لم تكن ذات ابنية فخمة حديثة ، بل كانت بناء بسيطاً عند جسر القبة ، قبيل المستشفى العسكري ، في المكان الذي تشغله اليوم ، اركان الجيش العامة .

وحتى سنة ١٩٢٧ كانت هذه المؤسسة تحمل اسم « الكلية العسكرية » وشهادة الدروس الابتدائية كانت تكفي شرطاً للقبول . ومنذ سنة ١٩٢٨ اصبحت شهادة البكالوريا ضرورية للقبول في الكلية التي اصبحت اكاديمية .

والمكتبة في مجملها بقيت في مكانها القديم اذ اصبحت مكتبة الجيش ، والسجلات التي تحوى اسماء الكتب المستعارة ما زالت هناك . والمكتبة لم تتغير منذ سنة ١٩٣٥ . لقد امضيت عدة ايام في مراجعة لائحة

الكتب التي كان قد طالعها جمال عبد الناصر ورفاقه ، في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، جالساً الى طاولة صنوبر صغيرة دهنت باللون البني ، في المكان نفسه الذي كان يحتله الفتى المجتهد ، تصفحت مجموعة من الكتب التي كان قد طالعها . فوجدت في هوامشها الكلمات العربية التي راجع المعجم بشأنها ، والكلمات التي لفتت نظره فوضع تحتها خطاً للانتباه .

وما زال امين المكتبة يذكر جيداً الكتب التي قرأها الضابط ، التلميذ جمال لانه كان افضل رواد مكتبته ، واكثرهم اعتناء بالمطالعة .

كان اثناء سني دراسته الابتدائية والثانوية ذا ثقافة عربية صرفة تقريباً ولم يخصص سوى النزر اليسير من وقته للغات الاجنبية . وفي مدرسة النهضة بصورة خاصة ، كان منهمكاً جداً بنشاطه السياسي ، وتنظيم المظاهرات ، الامر الذي حال بينه وبين الاهتمام بدراسة اللغة الانجليزية او الفرنسية .

وبعد دخوله الكلية الحربية غرق في مطالعة الكتب الانجليزية ، التي تبحث في الموضوعات التي تهمه . وفي مقدمتها سير الرجال العظماء امثال بونابرت ، والاسكندر وغاريبالدي وبسمارك ومصطفى كامل وهندنبرغ وتشرشل وفوش ، ثم الكتب التي تتناول الشرق الاوسط والسودان ، والتاريخ العسكري .

ولم يكن التلميذ جمال عبد الناصر يقرأ فقط في المكتبة ، بل كان يحمل الكتاب معه في المساء ليُعيده في الصباح . وقد روى احد الذين كان جمال عبد الناصر يشاركهم غرفتهم ، وهو ليس من اصدقائه ، انه في المساء بعد ان يحين موعد النوم وتطفأ الانوار ، كان يضع الغطاء فوق رأسه ويتابع القراءة تحته مستعيناً بقنديل كهربائي من قناديل الجيب .

وهذه لائحة بالكتب الانكليزية التي يذكر امين المكتبة ان جمال عبد كان يعود اليها عادة :

عنوان الكتاب	المؤلف
الذئب الأشهب (مصطفى كامل)	ارمسترونغ
غوردن في الخرطوم	جون بوشان
بونابرت حاكم مصر	شارل رو
حياتي الماضية	ونستون تشرشل
الاسكندر الكبير	ارثور ويفال
بسمارك	هيد لام مورلاي
فوش رجل اورليان	ليدل هارت
غاريبالدي ، الرجل والامة	بول فريشوير
هندنبرغ وساغا الثورة الجرمانية	اميل لودفيغ
لورانس والعرب	غرافز ب.
مارلبورو	اتكنسون ث . ت.
رجال واعمال	جون بوشان
نابليون	اميل لودفيغ
الجنود ورجال الدولة (جزآن)	روبرتسون
لورانس في شبه الجزيرة العربية	ليدل هارت
جغرافية الامبراطورية العسكرية	كول
ذاك البحر (المتوسط)	ج. مارتيللي
قلب اوروبا	جون غانثر
امس واليوم في سيناء	جارفيس
حملة فلسطين	وايفل
الازمة الدولية	ونستون تشرشل
غاليبولي	جون مانسفيلد
حملة المارن	لويل تينغ

الستراتيجية الالمانية في الحرب الكبرى	نيام
تاريخ الحرب الكبرى (١٩١٤ – ١٩١٨)	ليدل هارت
استراتيجية حملة مصر وفلسطين ١٩١٧ – ١٩١٨	كيارسي
غوردون والسودان	آلن ب. م.
نابليون وواترلو (جزآن)	بيك
حرب النهر	ونستون تشرشل
تاريخ فلسطين وسورية	اوليمستيد
مغامرة بونابرت في مصر	الفود
الستراتيجية البريطانية	سير ف. مورس
اعمال الابطال	كنيون وين
رحلتي الاولى الى البحار الجنوبية	كينغستون
التمرين على السلاح	المراجع الرسمية البريطانية

وباللغـــة العربية : تاريخ الثورة المصرية بأجزائه الثلاثة لعبد الرحمن الرافعي .

ومن المجلات كان يراجع :

طبعة التايمز الاسبوعية
انباء لندن المصورة
مجلة الجيش الفصلية
صحيفة مؤسسة الخدمات الملكية المتحدة
المجلة الجغرافية
القوات المحاربة
صحيفة مصر

ومن بين الكتب المستعارة خارج المكتبة تصفحت اثنين صدفة ، اعمال الابطال لكينيون وين الذي صدر سنة ١٩٢٣ وهو يبحث اولاً في « الشجاعة خلال العصور » والفصل الثاني منه مخصص لابطال التاريخ، بينما الثالث لبطلاته، ثم تأتي مذكرات عصر فيكتوريا البريطانية ، وتتبعها ثلاثة فصول عن ابطال الحرب العالمية الاولى في اساحة البر والبحر والجو .

لقد فتّش جمال الشاب الوطني عبثاً في الاحزاب السياسية عن نفحة سنة ١٩١٩ الثورية وكاد يقضي على مستقبله بتقارير البوليس التي كانت تصفه بالمحرّض الخطر ، ومن مطالعاته ادرك ان تحرير بلاده لن يتم عن طريق ثورة جماعية؛ وانّ شعب مصر كان في حاجة الى شخصية فذة، بل الى « معبود » كما كتب توفيق الحكيم في كتابه « عودة الروح » . ومنها ايضاً تعلّم كيف برز الابطـال وغيروا مجرى الاحداث . في دراسة سير الرجال العظماء راح جمال يبحث عن جواب لهذا السؤال ، كان مفتوناً بقراءة تاريخ كبار القادة العسكريين وكان يعبد الابطال والبطولة.

وفي لائحـة امين المكتبة خمس كتب عن نابوليون ، وثلاثة اخرى تأليف ونستون تشرشل ، وقد اتاحت هذه الكتب للطالب المعروف بميوله المعادية لبريطانية ان يفهم البطولة المدنية، وقوة الارادة البريطانية.

وبين الكتب التي تبحث في المشكلات المتوسطية تصفحت كتـاب الصحفي الايطالي مارتيالي الذي نشر في لندن سنة ١٩٣٨ ، لقد صدر اذن عندما قرأه جمال ، تحت عنوان « لمن هذا البحر » ويروي المؤلف فيه قصة رحلته وابحاثه في حوض المتوسط، ابتداء من فرنسة، وتونس، التي كانت ايطاليا الفاشستية تطمع فيها — ثم طرابلس الغرب ومالطـة ومصر وفلسطين والاردن وسوريا وقبرص :

وفي الكتاب نجد بين هلالين كبيرين المقطع المخصص لاحتلال تونس بالقوات الفرنسية والنصيحة المشهورة التي اعطاها اللورد سالزبوري وزير الملكة فيكتوريا الى الفرنسيين الذين كانوا يهتمون كثيراً بمصر :

«خذوا تونس» تلك النصيحة التي شجعتهم على القيام بحملة سنة ١٨٨١ كما نجد ايضاً خطاً تحت ملحوظات مارتيالي عن الصعوبات التي واجهت المدارس الايطالية في تونس سنة ١٩٣٧ .

« ان المدارس الايطالية في تونس هي احد الاسباب الرئيسية للنزاع مع السلطات الفرنسية . ذلك ان فرنسة تعلَم بان نحواً من اربعة عشر الف طالب يُربّون على الطريقة الايطالية .

« ان فرنسة لا تُريد ان تسمح بفتح مدارس جديدة ، كما حددت نمو المدارس الموجودة القائمة ، ولانزا ، المدير الايطالي يشتكي كثيراً بمرارة من الصعوبات التي يواجهها لدى محاولته توسيع احدى المدارس، لقد فهمتُ وجهة نظره وفهمتُ ايضاً وجهة نظر الفرنسيين . »

والمرجّح ان جمال عبد الناصر قد اعاد قراءة هذا الكتاب عن المشاكل المتوسطية عندما اصبح استاذاً في الكلية الحربية بين سنة ١٩٤٣ و١٩٤٦، وقد يكون في هذه المرة قد وضع اشارة على المقطع الذي اوردتُه . ومن الممكن ايضاً ان يكون جمال الطالب قد لاحظ منذ سنة ١٩٣٨ ما للتعليم من اهمية قصوى في تكوين الروح القومية . وفي كتابه « فلسفة الثورة » الذي كتبه جمال عبد الناصر فيما بعد يلح على فساد التعليم في مصر وقدم مثالاً على ذلك عائلة مصرية من آلاف العائلات مؤلفة من والد فلاح وأم تركية الاصل وابناء يتابعون دروسهم في مدارس انجليزية وفتيات يذهبن الى المدارس الفرنسية .

وفي الوقت الذي غرق فيـه الضابط جمال في مطالعة الكتب الانجليزية لم يهمل تربيته القومية وثقافته العربيـة . ولم يكن كغيره من الطلاب الفتيان الذين تأثروا معنوياً بانجلترة او فرنسة او الولايات المتحـدة ، بل ظل وطنياً مصرياً ، يراوده حلم مصطفى كامل في اعادة امجـاد الشرق . وكان يشعر بمرارة زائدة عندما يلحظ

تنافس الايطاليين والفرنسيين على تونس معتبراً اياهم دخلاء في ذلك القطر العربي .

وكتب التاريخ العسكري والستراتيجية التي مرّ ذكرها في اللائحة تبدو رصينة للغاية بالنسبة لتلميذ في التاسعة عشرة او العشرين من عمره . انها مختارة بفنّ ، فكتاب الكولونيل وايفل عن حملة فلسطين ، وكتب كارسي وأولمستيد ، وتاريخ الحرب الكونية الاولى لليدل هارت ، والستراتيجية البريطانيـة للسير ف. موريس ، والستراتيجية الالمانية في الحرب العالمية لنيام ؛ كلها كتب فوق مستوى ضابط طـالب . ودماغ جمال كان يجب ان ينفجر عندما حمل نفسه فوق طاقتها اذ قرر ان يلتهم في مدة ستة عشر شهراً كتباً كهذه تفوق بكثير نطاق برنامج الدراسة في الكلية .

في بونابرت، - بونابرت لودفيغ ، وشارل روك ، وبيلك ، والغود ، كان جمال يرى المستقبل اللامع لضابط شاب ، فقير طموح ، تجرأ على ان يزحزح الساسة ويستولي على السلطات في وقت كانت الثـورة الفرنسية غارقة في فساد الحكم والادارة . وكان جمال يرى فيه ايضاً عدواً لدوداً لبريطانية واداريا عبقرياً ومشرعاً قديراً ، فأعجب به واقتنع بان الشرق ومصر بصورة خاصة لن تسترجع استقلالها وسيادتها الا عن طريق قائد عسكري مدني لا منازع له ؛ وان وحدة الاقطار العربية لن تتم الا على يد رجل مثله ...

وما دمنا في مكتبة الكلية الحربية فَلْنتوسع في استقصائنا ولنرَ ما هي الكتب التي قرأها الضابط جمال عبد الناصر في السنوات الثماني التي تلت تخرجه عندما اصبح استاذاً في الكلية الحربية نفسها ، وسنلاحظ ، ان اهتمامه كان لا يزال ينصب على النوع نفسه :

عنوان الكتاب	المؤلف
اليابان تحارب من اجل آسيا	جون غويت
لماذا كانت اليابان قوية ؟؟	جون باتريك
غرانت ولي	ماج – جن فولر
كيتشنر	بولار
بزوغ فجر الجنرال بونابرت	ولكنسون
جاكسون الرجل الصلب (جزآن)	هندرسون كولونيل ج
عالم السلاح	ارنست دوبوي
الانسيكلوبيديا البريطانية (٢٤ جزءاً)	» »
البحر الخطر	جورج سلوكومب
بريطانيا في البحر المتوسط (جزآن)	كوربيت
جغرافية حوض المتوسط	لامبل
المتوسط في المحيط السياسي	اليزابيت مورو
مشكلات المتوسط	غوردون ايست
السويس وبناما	اندريه سيغفريد
اربعون يوماً في سنة ١٩١٤	ف. موريس
حملة بلاد ما بين النهرين اربعة اجزاء ١٩١٤–٩١٨	(المراجع البريطانية الرسمية)
العملية العسكرية (مصر وفلسطين ، جزآن – خرائط)	(المراجع البريطانية الرسمية)
العمليات الحربية (فرنسا بلجيكا ، جزآن – خرائط)	(المراجع البريطانية الرسمية)
الحرب الحقيقية	ليدل هارت
الحرب الجوية (ثلاثة اجزاء مع خرائط)	وولتر وجونز

معارك الجيش البريطاني	بلو كوود
حملة سنة ١٨٨٢ ـ مصر مع الخرائط	(المراجع البريطانية الرسمية)
المعارك الحاسمة في التاريخ	ليدل هارت
السودان المصري سنة ١٩٠٨	الغورد وسوورد
معارك الجيش البريطاني	بلوكوود ر. م.
دراسة الستراتيجية والفنون الروسية اليابانية في الحرب	كيري
التنظيم والادارة العسكريان	ليندسل
من جبل طارق الى السويس	لورد سترابولجي
الانماء الاقتصادي في الشرق الاوسط	بون
الحرب من اجل السيطرة على العالم	ستراتيجكيوس
اللنبي في مصر	وايفل
مصر والجيش	الغود
مصر منذ عهد كرومر (جزآن)	لورد لويد
قناة السويس	آرنولد ولسن
المشاكل المصرية	فالنتين شارول
بعث مصر الحديثة	كولفين
مصر الحديثة (جزآن)	كرومر
التجارة العابرة من مصر	الغود
دليل الضباط	(المراجع الرسمية في الولايات المتحدة الاميركية)
كيف تكسب الاصدقاء ؟؟؟!!	دال كارنيجي
الحرب والشروط النفسية للسلام	وليم براون
الحرب بدون بنادق	وليم براون
بُناة الستراتيجية الحديثة	ادوار فيدايرل
في الحرب (ثلاثة اجزاء)	فون كلوتز ويتز

مبادىء الحرب	فون كلوتز ويتز
حرب الغد	اسطفان بوسوني
حرب الفدائيين (في البوير)	دنيز ريتز (مذكرات)
استراتيجية الجو	نورمان ماكميلان
لغز الرايخ	وليمز
قصة الغواصة	ج. جاكسون
التربية والجيش	الكولونيل اللورد كورين
الثورة الفرنسية	بيلوك ، هيلير
اطلس اوكسفورد الحربي	— .... —
جهاز الخدمة العسكرية	مايجور فولر
امتحان الدخول الى كلية الاركان	— .... —
تاريخ امتحان الدخول الى كلية الاركان	المراجع الرسمية
التقرير المختصر عن تقدم القوات في حملة مصر (١٩١٤-١٩١٨)	— .... —
اهل الكهف	توفيق الحكيم
التخطيط الاجمالي لحملة العراق	ايفانز
السنة الثالثة من الحرب في صور	— .... —
حياة هتلر	كونراد هيدن
مغامرات في المتوسط	ريشارد ماكميلان

ولماذا يغفل الكاتب كتاب (الأمير) - ميكافيللي

عندما راجع جمال عبد الناصر الكتب التي كان قد قرأها سابقاً أكمل بذلك معلوماته عن فنون الحرب لليدل هارت، قرأ ثلاثة كتب جديدة عن «المعارك الحاسمة في التاريخ» و «أوروبة تحت السلاح» و «مبادىء الحرب» لقد تصفح الكتب الضرورية لتحضير محاضراته والدخول في

مدرسة اركان الحرب ، واهتم بمشكلات المتـوسط ، فقرأ جزءين لكوربيت عن « بريطانيا في المتوسط » و « قضايا متوسطية » تأليف غوردن ايست ، ومن « جبل طارق الى السويس » للورد سترابوبجي و « مغامرات في المتوسط » لريشارد ماكميلان ، وهذا الكتاب الاخير الذي صدر عن نيويورك سنة ١٩٣٤ كان على الماجور عبد الناصر ان يقرأه مرة ثانية سنة ١٩٥١ وهو مهدي الى مونتغمري ورجاله، ويصف فيه المؤلف المحن التي مرت بالجيش الثامن ويتحدث عن معركة طبرق وبير حكيم والتراجع حتى العلمين واعادة تنظيم الجيش على يد الجنرال مونتغمري واخيراً النصر الذي أحرزه . وفي المقدمة يقول الكاتب انه تردد في تسمية كتابه « معجزة العلمين » على اعتبار ان العلمين بالنسبة لمصر هي فردان بالنسبة لفرنسة في الحرب العالمية الأولى ، ولكن تاريخ الجيش الثامن ان هو الا سلسلة من المعجزات المتتابعة . ويمكننا ان نتحـدث عن معجزة طبرق ، كما نتحدث عن معجزة مالطة ، والقوات الجوية في الصحراء الغربية . ولا شك ان الفصل عن « جيش افريقية » قد أثار اهتمام الضابط جمال عبد الناصر بصورة خاصة ، لانه كان في العلمين سنة ١٩٤٢ كما سنرى فيما بعد . والجدير بالذكر انه كان يرى الحرب آنذاك من زاوية تختلف عن تلك التي ينظر منها الصحفي الاميركي مؤلف الكتاب .

وكذلك كان للكتابين المؤلفين عن قناة السويس ، كتـاب اندريه سيغفريد « السويس وبنما » وكتاب ارنولد ولسون « قناة السويس » اثر في نفس الضابط جمال عبد الناصر . وكذلك الكتب الكلاسيكية لكولفين وكرومر ، وكتاب اللورد لويد المؤلف من جزءين « مصر منـذ عهد كرومر » وكتاب الاقتصادي اليهودي « بون » الانماء الاقتصادي في الشرق الاوسط ، وكتاب العالم النفساني الاميركي كارنيجي « كيف تكسب الاصدقاء » وأخيراً باللغة العربية كتاب توفيق الحكيم « أهـل الكهف » هذه الكتب الثلاثة هي الوحيدة التي تخرج عن نطاق التكنيك

العسكري ، ومن المسلّم به انه لو أراد جمال عبد النـــاصر ان يقرأ روايات بوليسية وأدبية لما توجه الى المكتبة العسكرية . ولكن المطالعات التي أشرنا اليها تتطلب جهداً من شأنه ان يستأثر بكل أوقـــات فراغ الضابط النهم ، وهي تبعـــده ولا شك عن الادب والفلسفة والفروع الأخرى للنشاط الثقافي .

ولادة الحركة الثورية في منقباد

في كتاب ثورة على ضفاف النيل ، وصف الزعيم انور السادات منطقة الصعيد بلغة شاعرية ، ولم يقصر في حق هذه الارض : وصف ارض الفضائل العالية ، والتقاليد الثابتة والاساطير القديمة ، والاعمال المجيدة ، منبت الجنود البواسل ، والفلاحين النشيطين المقدامين الامناء على عادات الجدود .

في قلب هذه المنطقة تقوم القرية في السهل الاخضر بين منعطفات النيل وقناة الابراهيمية ، والمنطقة العسكرية تمتد في الصحراء على حدود المزروعات وتقودك الطريق المعبدة الى بيوت من طابق واحد تحيط بها الاشجار والحدائق ، وبالقرب منها مطعم للجنود وملاعب للتنس وكرة القدم والمكاتب والبيوت المستطيلة حيث قاعات النوم الكبرى :

عندما وصل جمال الى منقباد في تموز سنة ١٩٣٨ كتب الى صديقه حسن النشار رسالة يصف له فيها مقره الجديد ، وهذا نص الرسالة :

« لقد بدأت امس اعمالي في منقباد ، انه مكان جميل ، والجو شاعري يبعث على التأمل .

« انه مشهد متغير يتألف من صحراء ، ومزروعات وبرك واقنية ..

« في الشمال مزارع ، وفي الجنوب سلسلة جبلية تمتد من الشرق الى الغرب تحيط بها الصحراء التي تحتضنها كالام الحنون .

« ومن دواعي السرور ان ابلغك ان معنوياتي ما زالت قوية . وجمال في منقباد ، جمال نفسه الذي عرفته منذ مدة طويلة ، جمال الذي يبحث في المحنة عن اسباب الامل» .

بعد السنوات القلقة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ التي كان فيها الفتى الوطني يبحث عن طريقه بين منظمي المظاهرات ، واشتراكيي احمد حسين ، وساسة الاحزاب ، جاءت فترة السنة والنصف التي قضاها في الكلية الحربية ، فهدأت من روعه وقوت معنوياته . وكان للانضباط العسكري والتمارين الرياضية والعمل المتواصل في جو من التعاون ، وتقدير اساتذته، كل ذلك كان لديه كبير الاثر اذ جعل الوطني الشاب اكثر اتزاناً وجرأة ، والاوضاع السياسية مع الاسف لم تكن لتُرضي جمال عبد الناصر .

خلال سنة ١٩٣٧ بدأت مصر في مونترو المفاوضات مع بريطانية من اجل الغاء نظام الامتيازات البالي ، وبعد اخذ ورد زالت الامتيازات القانونية التي كانت تستفيد منها الجاليات الاجنبية .

ولكن حزب الوفد الحاكم ، قبل في لجنته التنفيذية فريقاً من كبار الملاكين الذين يفضلون مصالحهم المالية الخاصة على العناية بأمر الفلاح ، وحشد انصاره في المراكز الحساسة في ادارات الدولة ، واستصدر قانوناً يحرم بموجبه على الطلاب تعاطي السياسة ، كما سمح لمنظمة « القمصان الزرق » التابعة له ان تستبد بمناوئيها ، وأقصى النقراشي وغيره من السعديين عن الحكم لانهم حاولوا معارضة الاعمال غير القانونية التي قام بها مستغلو العهد ، دام ذلك سنة ونيفاً ، وكان ان بلغ الملك الشاب فاروق سن الرشد ، فعين علي ماهر رئيساً للديوان رغم معارضة النحاس؟ لقد كان الملك يريد ان يكون له الكلمة الفصل في تعيين كبار الموظفين

ومنح الالقاب والاوسمة . لذلك حل منظمة « القمصان الزرق » .

بكلمة موجزة لم يكن فاروق ليرضى بأن يملك دون ان يحكم . ولما شعر بعدم ارتياح الرأي العام للسياسة التي اتبعتها حكومة النحاس لم يتوان عن الدخول في نزاع مع رئيس وزرائه الذي يستند الى اكثرية ساحقة في المجلس ، وفي كانون الاول سنة ١٩٣٧ اقال وزارة النحاس وعين وزارة جديدة برئاسة محمد محمود رئيس الاحرار الدستوريين . ثم تلا ذلك حل المجلس ، واجريت انتخابات مزورة رفض الوفد ان يشترك فيها ، وحكم محمد محمود مدعوماً بتأييد الانجليز له ، مع مجلس مزور .

وفي تموز سنة ١٩٣٨ عندما ارسل الملازم الشاب الى منقباد ، القاعدة العسكرية الرئيسية في الصعيد ، كانت الحالة السياسية مضطربة من جديد ، ووجد الضباط الشباب انفسهم فجأة في الريف ، فأخذوا يتتبعون اخبار العاصمة بواسطة الصحف ، لقد اصبحوا في موضع يُتيح لهم ان يحكموا بتجرد على سياسة الملك والاحزاب . وجمال المقيم على مسافة كيلومترات من مسقط رأسه وجد في بني مر اصدق صورة لحياة التعاسة التي كان لا يزال يتردى فيها الفلاح المصري .

وكان الضابط المصري يرد هذه التعاسة قبل كل شيء الى « الاستعمار » ، لقد كان مقتنعاً تمام الاقتناع بأن بريطانية تستغل مصر كأنها مزرعة توفر القطن لمعامل لانكشاير وكانت لا تكتفي بذلك بل تحول دون تصنيعه ايضاً .

ويتحدث انور السادات في كتابه عن ذكرايات تلك الحقبة فيقول :

« لم نكن سوى ضباط صغار .. كان لنا رؤساء .. وكان يوجد ايضاً انجليز .. ولم يكن لرؤسائنا المصريين سوى هم واحد ، هو اذلالنا والاستخفاف بنا من جهة ، واظهار اسمى آيات الاحترام للانجليز من جهة ثانية .. لقد كنا شهود عيان لهذه المشاهد المزرية التي تحز في نفوسنا وتثير سخطنا ، ولم يكن في ايدينا حيلة .

« وماذا يستطيع ان يفعل ملازم مقيـد" بالانضباط العسكري ازاء حالات كهذه سوى السكوت والاحتراق من الغيظ ؟؟

« لقـد كنا نبذل جهدنا للمقاومة في ساعات الراحة . كنا نغني ونمزح ، ولم نكن نوفر أحداً من لساننا اللاذع ، وحياة رؤسائنا الكبار ، كان الموضوع الذي نتندر به .

« وشاءت سخرية القدر ان تطلع علينا ذات يوم بمقدم جديد يشبه الغزاة الاتراك ، كان جل همه ان يقلد السلطان عبد الحميد ، ألا وهو محمود سيف . ووجوده في الحامية كان كافياً لجعل حياتنا أكثر تلبداً . لقد كان مستبداً قاسياً واحمق ، لا يقبل عـذراً ولا نقاشاً . كان يفرض علينا بالطبع التقاليد السلطانية . وكنا ، مقابل ذلك ، من قبيل الهزء والسخرية نلقبه بـ « السلطان . »

« بدأنا حينئذ نشمئز من الخدمة العسكرية ؛ وبعضنا قد أعدوا فعلاً كتب استقالتهم من جيش يضم بين ضباطه أفراداً كالسلطان عبد الحميد ؛ وكنا مذهولين من صبر جمال وتجلده وهدوئه ، أمام هـذا الاذلال الطويل ، الذي فرض علينا . وكنا نهدىء أنفسنا برؤية جمال يعيش في أمل لم يخطر في بالنا في تلك الحقبة من حياتنا :

« انني الآن أذكر تلك الايام والليالي ، أذكر مسراتنا وآلامنا ، وأذكر ألفتنا ، والسلطان عبد الحميد الذي أراد ان يذلنا وأذل نفسه أمـام أصغر البريطانيين . وأذكر جولاته في منطقة منقباد ، والابهة والقوة اللتين كان يضفيهما على جولاته . انني أذكر كل ذلك ، وأذكر ايضاً انه خلال هذه الفترة من سن الشباب ، حيث كل شيء حلم ؛ بدأنا نفكر . واذكر ان جمال قال : « ان الانجليز سبب جميع ما نقاسيه من تجارب . »

« لم يكن أحد منا يجهل ان الانجليز هم سبب تعاستنا ، وكنا جميعاً نبغضهم . ولكن جمال هو الذي قالها ، وبقوله آنئذ كأنه كلفنا بمهمة

كبرى لا يجوز لأحد منا ان يتهرب من الاشتراك فيها .

« ولدى القيام بالمناورات ، كان الضباط الشباب ينامون تحت الخيام على منحدر تلة الشريف ، وهي مرتفع كلسي يطل على وادي النيل ؛ وفي احدى الأمسيات من فصل الشتاء احتفل هؤلاء بعيد الميلاد العشرين لزميلهم جمال ، وكان ذلك في الخامس عشر من كانون الثاني سنة ١٩٢٨ » .

ويروي أنور السادات كيف اغتنم جمال هذه الفرصة ليحدثهم بجدية أذهلتهم فيقول :

« في إحدى أمسيات الشتاء سنة ١٩٣٨ كنا على جبل الشريف ، نعد وليمتنا المتواضعة ، وكنت آنذاك ملازماً في الفوج الخامس للمشاة . وكان معنا في تلك الأمسية زكريا محيي الدين واحمد انور وغيرهما من الضباط . كنا نحتفل بعيد ميلاد جمال عبد الناصر ، وعلى مائدتنا الكبيرة كان يوجد العدس المشهور الذي طبخناه بأيدينا . وبالقرب منا كانت كومة من قصب السكر ، وكي نعطي هذه المناسبة حقّ قدرها من التكريم جلبنا الكستناء من اسيوط . وبينما كنا نمزح بدأ جمال حديثه بصوت هادىء رزين فقال :

— « لنغتنم هذه الفرصة ونخلق فيما بيننا رابطاً متيناً . ليكن اجتماعنا هذا تاريخياً وليحرص كل منا على ان يبقى أميناً للصداقة التي تربطنا وتوحد فيما بيننا . »

« وبفضل هذا الاتحاد سننتصر ونذلل جميع العقبات . »

« لقد كان ذلك اول لقاء مع جمال . كنت قد قابلته عرضاً من قبل ، ولم أمِلْ اليه لأنه كان رصيناً ، حتى في ساعات المزاح . وكنت قد احتفظت بنظرتي هذه عنه حتى في يوم احتفالنا بعيد ميلاده . »

وهكذا في منقباد حول نار المعسكر الذي أقيم على سفح جبل الشريف تعرف الضباط الى بعضهم وارتبطوا بوشائج الصداقة . أجل ، لقد كانوا

يافعين في العمر ، صغاراً في الرتب ، ولكنهم مفعمون بالآمـال والحيوية . كانوا يتناقشون في حالة مصر السياسية والاجتماعية ، تجمعهم النقمة على النظام .

ويقول انور السادات : « وكنا نتكلم عن البلد المريض ، وكنا مجمعين على انه يلزمه نفحة قوية جديدة لاستعادة صحته . وكنا نحلم في اعادة بناء الوطن بشكل تُضمن الحرية فيه للجميع . وفي هذه السهرات حيث كنا نبحث سراً عن المعنى والتعريف السياسي لحركتنا استطعنا ان نرى بصيص النور ينبعث من المستقبل البعيـد . ووراء أحلام منقباد وآمالها كان قد أصبح من الممكن في كل مكان في البـلاد ، الشعور بوجود ارادة جماعية تختمر في النفوس وتستعد للظهور . لقد كان ذلك بمثابة بشائر .

« ان النظرة الحماسية للثورة الفرنسية كانت تلهب حواسنا من سقوط الباستيل وتدفق القوات الشعبية ، هرب فارين ، وزوال الملكية ، وأبطال هذه المأساة الكبرى ، روبسبيير ، دانتون ، سان جوست ، كانوا موضع اعجابنا ، لا سيما بونابرت الذي كان صعوده الصاعق نـداء القدر ، والميل الشديد الى الحرية والعدالة حملنا على ان نرى الثورة الفرنسية عملاً عظيماً ، وأفكارها اللاهبـة وانتصاراتها الرائعة ، شددت من عزيمتنا الثورية وارادتنا . كنا معجبين بهذه الملحمة الكبرى ، واستخلصنا منها بكل تأكيد دروساً مفيدة . لقد أبعدتنا آلامها عن الناحية السلبية المخربة منها ، ولم نحتفظ إلا بما هو صالح منها : ان اعادة بناء المجتمعات الحديثة يتم حسب الافكار والتكنيك التقدميين للثورة الفرنسية : والخطوة التي تتمتع بها الافكار التحررية في يومنا هذا يعود الفضل فيها للثورة الفرنسية نفسها . »

يلاحظ المراقب المدقق ولا شك فيما كتبه انور السادات صدى المطالعات التي يتغذى بها الطلاب في الكلية الثانوية ومكتبة الكلية الحربية :

ان طالباً فرنسياً أو سويسرياً قطعت بلاده منذ زمن طويل مرحلة التحرر والثورات ضد الامتيازات الطبقية يجد صعوبة قصوى في فهم الصدى الذي تتركه في نفوس شباب بلد إقطاعي خاضع للسيطرة الاجنبية اسماء روسو وروبسبير ودانتون وبونابرت . ان اسماء عرابي ومصطفى كامل وماركس ولينين وسن يات سن ونهرو ، كان لها منزلتها الخاصة في نفس جمال عبد الناصر ورفاقه .

انها كانت تعني النضال ضد الطغيان السياسي الاجتماعي . والثورة بالنسبة لهم ، لم تكن حدثاً تاريخياً قابلاً للدرس والنقد ، والتحليل ، بل مرحلة من مراحل الحياة الوطنية ، يجب تنظيمها وتحقيقها . لقد كانت عملاً من اعمال الغد ..

كان جمال عبد الناصر في فريق الملازمين يبدو أكثر نضجاً وتفكيراً من رفاقه . وانور السادات الشاب الديناميكي المرح لم يستلطف في البدء هذا الشاب الرصين ، الذي كان الجميع يشعرون بالحرج أمامه اذا أرادوا المزاح . ولكنه سرعان ما تأثر بشخصية ذلك الرجل الذي أصبح القلب النابض لفريق الشبان الوطنيين ..

لقد سبق لي وأشرت الى ملاحظة أنور السادات على ستار الحزن الذي أسدله على فتوة جمال موت امه المبكر . وكان يبدو في نظر اخوانه الشبان الهازجين العابثين كئيباً منكمشاً على ذاته ، ولكنك اذا عاشرته شعرت بأنه ، على الرغم من تحفظه ، ليس فيه شيء من البرودة ، بل أن حساسيته مقيدة مكبوتة . أجل لقد كان في امكان هذا الفتى ان يندفع وراء عاطفته وميوله ، لا سيما انه شاب ممتلىء الجسم ، لكنه لم يفعل ذلك ، بل اندفع وراء البحث عن الايديولوجيات القومية ، والاجتماعية ، التي كونها لنفسه .

لقد قال فوفنارغ يوماً : « ان المشاعر تخلق الميول . وبالتالي الاعمال » . وابن الست فهيمة ، هذا اليتيم الذي فقد أمه وهو في

الثامنة عشرة من عمره والذي فرضت عليه الظروف الابتعاد عن عائلته لسنوات طويلة من اجل الدراسة خلق لنفسه عالماً ، أخذ عوامله من قراءته ومن دروس بعض اساتذته . لقد رأيت عند السيد محمد احمد القرآني الذي درّسه مدة سنة اللغة العربية في مدرسة النهضة رسالة من جمال عبد الناصر « رئيس الجمهورية العربية المتحدة » تؤكد اعترافه بفضل استاذه عليه للدروس القومية التي كان يلقيها خلال درسه . ان الشيخ القرآني هو الذي دفعه الى قراءة كتب مصطفى كامل وطبائع الاستبداد، للكواكبي ، وغيرهما من الكتب التي تمجد الامة العربية وتدعو الى بناء مجتمع عربي سليم يقوم على العدالة الاجتماعية .

لقد بقي والد جمال عبد الناصر الموظف النزيه المنضبط المتمسك بالتقاليد بعيداً عن عالم هذه الافكار الثورية الحادة . وكان جمال يفضل ان يبوح بأفكاره هذه الى عمه خليل حسين او الى اصدقائه الحميمين من مدرسة النهضة خاصة حسن وعلي النشار . وبقي فضلاً عن ذلك على اتصال وثيق مع حسن النشار عندما دخل الكلية الحربية ثم خلال حياته في سلك الضباط . والزمالة المدرسية هذه اشار اليها جمال مراراً في رسائله المتعددة التي كان يرسلها الى صديقه من منقباد ومن الثكنات العسكرية الاخرى التي أقام فيها :

لقد عاش الطالب جمال في الكلية الحربية منعزلا جداً عن رفاق دورته وعلى الرغم من قيوده الاجتماعية التي فرضها أصله عليه كان ذلك المجدّ فغرق في الكتب التي تدخله الى عالم جديد بالنسبة له عالم الفنون العسكرية والسياسيه الدولية . ولم يكترث لمعاشرة زملائه الا عندما انتقل الى صف المنتهين . عندئذ وجد جمال رفيقاً يستطيع ان يقاسمه كراهيته وحماسته وميوله الوطنية .

وكانت المبادرة في منقباد من قبل انور السادات : ان جمال كان يحب ان يكون غامضاً جداً غير قابل للانقياد فيما يختص بصداقة الآخرين ؟ وفي كتاب « ثورة على ضفاف النيل » يضيف انور السادات بعد ان

يصف ولادة منظمة الضباط الشباب الوطنيين انـــه في سنة ١٩٣٩ رأى جمال يقدم على تسجيل اسمه في لائحة العسكريين الراغبين في الخدمة في السودان ، فألحق بفوج المشاة الثالث ، وهناك حصل لقاء رجال كأنه لقاء أفكار ، فتعرف جمال عبد الناصر الى الملازم الاول عبـــد الحكيم عامر ... لقد خدما معاً ثلاث سنوات في السودان توطدت خلالهـــا العلاقة بينهما :

ان عالم الافكار الموجهة الذي عاش فيه طالب كلية النهضة والذي غذته مطالعات الكلية الحربية تغربل وتبلور في عزلة منقباد ، ثم في السنوات الثلاث التي أُمضيت في السودان .

الملازم عبد الناصر في السودان

لم يبق الملازم جمال عبد الناصر الى ما شاء الله في منقباد تحت امرة « السلطان عبد الحميد » بل طلب ان يُرسَل الى السودان رغبةً منه في التعرف على معالم البلد الشقيق الذي يحكمه حاكم انجليزي باسم الحكم الثنائي الانجليزي – المصري .

وعندما نُقل الى الاسكندرية مع السرية الثالثة التي فُرض عليها الذهاب بسرعة الى السودان وطّد جمال صداقته مع زكريا محيي الدين الذي كان التقى به في الكلية الحربية ، ثم في منقباد دون ان تتاح له اقامة روابط معه . وهكذا بعد صديقه حسن النشار وبعد عبد الحكيم عامر وأنور السادات اصبح زكريا محيي الدين الصديق الرابع الذي اجتذبه جمال الى مبادئه الوطنية .

أثر ذلك ذهب جمال الى القاهرة ليتسلم أمر نقله ، ومنها ركب القطار الى الخرطوم . وفي ٣ آذار سنة ١٩٣٩ بعث برسالة الى صديقه حسن النشار يصف فيها باسلوب مرح المقابلة التي تمت في القطار بينه وبين أحد أعضاء مجلس الشيوخ المعروفين بالثرثرة ، وهي تظهر لنا الملازم عبد الناصر قاصاً مُسلياً وتدل على مدى هزئه بالبرلمانيين الثرثارين :

وهذا نص الرسالة :

« آذار سنة ١٩٣٩

« في محطة الجيزة ، فتح باب القطار ليدخل منه عربي متمنطق ببندقيته ، وحوله الخدم يرددون : حاضر يا سعادة الباشا !

« القى عليّ التحية فرددت عليه ... ثم أخذ مكانه الى جانبي ؛ بعد ان وضع امتعته على المقعد المقابل وقـال : « انني عضو في مجلس الشيوخ ، ويقولون انني ثرثار كذّاب . فقلت له : « تشرفنا »

– « وأضاف ... انني انا الوحيد الذي عارضت معاهدة سنة ١٩٣٦ ثم راح يروي قصة حياته منـذ سنة ١٩٠٧ ، ولست أدري حتى أي سنة . كان يسرع في الكلام وكل مرة كنت احـاول فيها ان انبس بكلمة كان يقول « انتظر ، انتظر ... » متابعاً كلامه بصوت مرتفع ؛

« وعندما رأيت انني لن استطيع النوم : وأنه فُرض عليّ الاستماع ، بدأت أنظر اليه دون أن أفهم كلمة واحدة ممّا يقول ؛ حتى شعرت بألم فى عنقي . واغتنمت لحظة سكوت لأسأله اين سينزل ... وذلك كي أطمئن نفسي : ولكنه قال لي :. أشكر ربك الكريم الذي رزقك من يرافقك حتى بني سويف ؛

« وفي بني سويف أنزلت أمتعته . وخلال ذلك أعطاني نصائح طالباً اليّ أن أنتبه الى الجماهير ، وبدأ في سرد قصة ثانية ، فخفت ان يكون قد غيّر رأيه وقرر ان يتابع سفره الى محطة أخرى ، ولكن الله سلم فحفظني وانزله ... حتى الآن ما زال رأسي يتألم من حديثه ولا أدري كيف الخلاص من ذلك ... »

في الخرطوم وجد جمال عبد الناصر نفسه تحت امرة ضباط لم يشعر بميل نحوهم ولحسن حظه جاء عبد الحكيم عامر يؤنس وحدته هناك ؛ وبسبب اصطدامهما برئيس صلف سكّير نُقلا معا مـدة شهر الى جبل الأولياء، وهو مركز ضائع في الريف السوداني . بالقرب من سد مصري

على النيل . وكان ذلك بمثابة نفي أكبرَهُ المصريون :

وفي الخرطوم ، كما في جبل الأولياء لم تتح الظروف امام جمال عبد الناصر وزملائه المصريين ان يوثقوا روابط الصداقة بينهم وبين الضباط السودانيين ، اذ ان الوحدات السودانية التي يُشرف عليها ضباط بريطانيون بقيت معزولة ، والبوليس الحربي البريطاني كان يحرص على الاّ يتم أي اتصال بينهما وبين الوحدات المصرية . وفضلاً عن ذلك جاءت الحرب العالمية التي أسهمت فيها القوات السودانية بحراسة حدود السودان من الايطاليين في الحبشة والارتيريا ، ثم بالتعاون مع الانجليز في مختلف الجبهات العالمية .

وهكذا اشترك اللواء ابراهيم عبود رئيس وزراء السودان حالياً مع جيوش الحلفاء في احتلال شمالي افريقية سنة ١٩٤٢ على رأس كتيبة سودانية تعمل مع القوات البريطانية .

وفي أول ايار سنة ١٩٤٠ رقي جمال عبد الناصر الى رتبة ملازم أول ؛ ولاحظ رفاقه انه اذا كان لا يضحك فهو دائم الابتسام ويحب الحيوانات، وكان يربي قرداً كبيراً في غرفته . وقد روى لي أحد رفاقه كيف جاء لزيارته يوماً فاذا به يشعر شعوراً غريباً عند مروره في الشرفة المظلمة المؤدية الى غرفه جمال، اذ امتدت اليه يد طويلة باردة من السقف وأمسكته بلطف عند ذقنه :

لقد كانت تلك اليدُ يد قرد جمال الذي يداعب الزائر على طريقته الخاصة .

في السودان قاد جمال فصيلةً ثم خدم كتائب ضابط في الفوج المصري الاول في الخرطوم . ومع ذلك بدأ الملازم الاول يملُّ ويتعب من الحياة في بلد يسهل عليك ان توطّد علاقتك مع القرود أكثر من البشر :

وبسبب قرفه من السياسة ورجالها أيقن انه في الجيش يمكن ان يجد

الرفاق الذين سيُصلح معهم بلده ويحرره من الاحتلال البريطاني ، ولكن المستوى المعنوي لدى الضباط كان يثبط عزيمته . فهو لم يجد فيهم فرسان النظام الجديد ، ورفاق النضال الذين يُقبلون على التضحية بكل ما لديهم وما يحلمون به من هناء في سبيل اهدافهم القومية .

أنور السادات يتآمر في مصر

بينما كان جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر في السودان بعيدين عن الحياة العامة المصرية حصلت احداث جسام في العالم بصورة عامة ، وفي مصر بصورة خاصة :

ففي اوروبة بعد «الحرب الهزلية» ، بدأت المانية حملتها المظفرة واحتلت فرنسة . وفي حزيران سنة ١٩٤٠ دخلت ايطالية الحرب : وفي ايلول اطلق موسوليني جيوشه من ليبيا ضد الانجليز المقيمين في مصر معلناً انه انه لا يريد الا الخير لمصر : ولا ريب انه لو قُيّض له واحتل وادي النيل لحل الاستعمار الفاشيستي محل الاستعمار البريطاني :

كانت المشاعر في الجيش المصري مختلطة . كل واحد كان يريـد الخلاص من الوصاية البريطانية . ولكنه يخاف من ان تحوّل ايطاليـة وادي النيل الى مستعمرة سكنية كما هي الحال في ليبيـة والحبشة ، فتخسر مصر من جديد جزءاً من الحريات التي قاست الكثير حتى حصلت عليها بعد الحرب العالمية الاولى :

لقد استطاع المرشـال غرازياني ان يتغلب على طلائع الجيش البريطاني ، فاحتل السلوم في ايلول ، ثم وصل الى سيدي براني على مسافة مئة كيلو متر داخل الاراضي المصرية . وعوضاً عن ان يتابع

بجدية هجومه على الاسكندرية والقاهرة ، اقام في سيدي براني وترك للانجليز الوقت الكافي لاعادة تنظيم صفوفهم ، وتلقي الامدادات للقيام بهجوم معاكس : وكانت الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال « وايفل » الذي كان جمال قد قرأ له وهو في الكلية العسكرية كتبه عن حملة فلسطين »

بدا « وايفل » هجومه في اواسط كانون الاول : وفي مدة شهرين استطاع على رأس خمسة وعشرين الف رجـل ان يرد في « برقـة » جيشاً ايطالياً من مائتي الف رجل ، قتل وأسر نصفهم .

وخلال هذه العمليات العسكرية اشتركت القوات المصرية مع القوات البريطانية في تنظيم الدفاع عن الاراضي المصرية : وفي منطقة مرسى مطروح كان الجيش المصري يحتل قطاعين وممرين داخليين ، بينما كان الجيش البريطاني يتولى الدفاع عن القطاع الساحلي وهو الاهم في صد الاعداء .

وفي تشرين الثاني سنة ١٩٤٠ كان تشرشل قد تبلغ نقمة اكثرية الضباط المصريين على بريطانيـة وميول عزيز المصري رئيس الاركان العامة في الجيش المصري نحو المانية ، فطلب من حكومة القاهرة عزل هذا الضابط ، وخوفاً من ان يضرب الجيش المصري القوات البريطانية من الخلف طلب تسريحه وتسليم اسلحته للسلطات العسكرية البريطانية .

ولكن هذه الاجراءات المهينـة لم ينفذ الا قسم منها . فتراجعت القوات المصرية الى القاهرة محتفظة بأسلحتها . ويقول انور السادات الذي شارك في احتلال قطاع مرسى مطروح ان المطالب البريطانية قد اثارت نفراً من الضباط المصريين : فتآمروا من اجل قلب حكومة سري واعلان بطلان المعاهدة الانجليزية المصرية وفكروا في وضع ايديهم على طرق المواصلات والمباني الرئيسية العامة ، والمطالبة بحكومة يرئسها علي ماهر الذي ابعدته بريطانية عن الحكم متهمة اياه بأنه موالٍ « للمحور » ولكن

الفريق الصغير من الضباط الوطنيين كان قد تفرق ، ولم يكن لأي من اعضائه السلطة الكافية لاتخاذ قرار . ان الميول الثورية لم تتجسد بعد .

ويضيف بالحرف الواحد . « ان كل ثورة في التاريــخ تمر على العموم بمرحلتين . في المرحلة الاولى يبرز الرجال لقيادة الثورة . وفي المرحلة الثانية تندلع الثورة فتقود الرجال وتوجههم . وكنا آنذاك ، ولا نزال في المرحلة الاولى . واذا كانت الآمال الوطنية الدفينة قد تحددت معالمها ، فان القائد الذي سيجسدها لم يكن قد ظهر بعد . »

« ان همنا كان محصوراً آنئـذ في تكتيل رجال نزيهين اصحاب ضمير حي قادرين على تسيير عجلة هذه الثورة . لقد كلفتني اللجنة الاتصال بشخصيتين مصريتين بارزتين هما الشيخ حسن البنا المرشد الاعلى للاخوان المسلمين ، واللواء عزيز المصري رئيس اركان الجيش المصري سابقاً » :

الاتصالات مع الاخوان المسلمين وعزيز المصري والالمان

في احدى الليالي بينما كان انور السادات في المعادي ، الضاحية القاهرية الفائقة الجمال يتناول طعام العشاء مع بعض الرفاق ، ظهر امامهم شيخ مُلتح يرتدي معطفاً احمر فضفاضاً ، فدعوه الى مشاركتهم الطعام، فشكر لهم لطفهم وجلس بينهم ، ثم اخذ يتحدث . كان حديثة شيقاً، وهيئته وقورة ، ومن خلال نظراته الحزينة الحالمة كانت تنفجر طيبة القلب التي جعلتنا نشعر كأننا في حضرة قديس (ثورة على ضفاف النيل) :

لم يكن حسن البنا ليتحدث كالمبشرين بعبارات منمقة فحسب ، بل كان بسهولة مذهلة يعبر مباشرة الى الموضوع المقصود .

ومنظمة الاخوان المسلمين كان قد اسسها في الاسماعيلية في منطقة القناة حيث كانت الجالية الفرنسية تؤلف دولة ضمن الدولة بغناها ونفوذها وحيث انشأ البريطانيون بدورهم مستعمرة عسكرية قوية كانت تهدف الى تربية الفرد المعنوية ، واعادة تنظيم المجتمع الاسلامي حسب ما جاء في القرآن .

لقد استطاع الشيخ البنا بفضائله وفصاحته اللاهبة ، استطاع بسرعة

والنخبة من الشباب بصورة خاصة.

انفائقة (بتسلط) على عواطف الجماهير والعمال والاغنياء والفقراء انضموا جميعاً الى حركة الاخوان فانضم المثقفون والعمال والاغنياء والفقراء انضموا جميعاً الى حركة الاخوان المسلمين التي كانت بوقارها ومبادئها الدينية والمدنية تتناقض مع تردي العادات السياسية والتفكك الاخلاقي لدى الطبقات الموجهة.

بعد المقابلة بأيام ذهب انور السادات لزيارة المرشد العام في مقر الجمعية العام الكائن في قصر قديم محاط بالاشجار. واليكم ما كتبه انور السادات في كتابه « ثورة على ضفاف النيل » عن هذه الزيارة.

« لقد دار بيننا حديث طويل، وكان المرشد العام قلقاً يبحث عن الدواء لامراضنا في الايمان وطهارة النفس. وشعرت بانني متفق معه كل الاتفاق بشأن المذهب القائل باحترام الانسان وكرامته. وما من مذهب يمكنه ان يكون اسلم من ذلك في حقبة تدنت فيها القيم الروحية وساد الفساد وانحطت الاخلاق. كان يشتكي من الانحطاط المخيف الذي لحق بالدين والعادات، ومن عدم التقيد بتعاليم الاسلام. لذلك شدّد على ضرورة ارساء نهضتنا على الايمان ونشر مبادىء الدين بين صفوف الجيش:

« وعن الحالة الراهنة في مصر، كان يبدي آراء صائبة واستنتاجات رائعة، وكان نظره ثاقباً يصل الى البعيد، وكان يحس بانه يعيش نهاية حقبة من حقب التاريخ المضطرب. وكان موقناً في نفسه القلقة المطمئنة معاً من ان كل شيء سيتعوّض.

« ومن ذلك الحين تأكدت من ان ذلك الرجل يعدُّ في مخيلته مخططات رصينة ضخمة. لكنه يصرُّ على ابقائها سراً بينه وبين نفسه، وادركت ايضاً انه يدير وحدَهُ وبطريقة (ديكتاتورية المنظّمة) ويخطط لها سياستها كما يشاء. واقرب المقربين اليه كانوا يجهلون كل شيء عن المخططات التي يضعها والاهداف التي يقصدها. كان يحرص على ان يبقى وحده الرئيس والسيد. ومنذ تلك الحقبة، بدأ تنظيم تشكيلات

شبه عسكرية وفرقاً للقتال ، وبناء مستودعات للاسلحة والذخيرة .
وكان يلجأ الى اصغر الاعضاء سناً في المنظمة للقيام بهذه العمليات .
وبين هؤلاء كان بالضبط المتطوع الذي قادني اليـه لاول مرة في المعادي .

« وقد شعرت بذلك يوماً عن طريق الصدفة . واذكر انني كنت في مقر الجمعية عندما دخل جندي فجأة ؛ ووضع بعناية صندوقين مقفلين امام المرشد العام ، وعندما عرفني اضطرب ولكن رئيسه طمأنه بحركة منه . فغضّ المتطوع الشاب طرفه وابتسم ابتسامة الرفيق وأخوة السلاح . ثم فتح الصندوقين فاذا بهما يحويان عينات من المسدسات .

« احسستُ في داخلي آنئذ بغبطة زائدة ، وقلت في نفسي .. ان اليوم الذي سنُعطي فيه نحن اشارة البدء في المعركة آت لا ريب فيه . وعنـدما سنفعل ذلك سنستطيع ان نعتمد على قوة « شعبية » هائلة متحمسة مناضلة ، تساندنا في معركتنا . »

لقد كان انور السادات اذن ضابط الارتباط بين جماعة الضباط الاحرار والمرشد العام للاخوان المسلمين. وحسن البنا هو الذي جمعه بعزيز المصري الذي كان قد اقاله سرّي رئيس الوزراء من منصبه في رئاسة اركان الجيش بناءً على طلب الحكومة البريطانية .

كان عزيز المصري ضابطاً في الجيش التركي . وقد أبلى بلاء حسناً في حروب البلقان واحرز انتصارات مجيدة على الايطاليين في ليبيا ، ولا عجب فقد تلقن الفنون العسكرية الالمانية وسبق له وطاف في المانيـة وفرنسة وانجلترة وهو صغير القامة ، نحيل عصبي فائق الحيوية وطني متطرف يُضمر للانجليز حقداً لا يجاريه حقد .

وكان جمال عبد الناصر وانور السادات ورفاقهما قد التقوا به لاول مرة سنة ١٩٣٨ في الكلية الحربية حيث ألقى على الطلاب محاضرةً عن القوى الآلية ووسائل الدفاع لمجابهتها ، أطرى فيها طريقة جديدة لشل

عمل المصفحات عن طريق جنود متفرقين مزودين باسلحة وقنابل خاصة.
وقد لاقت هـذه النظرية الضحك والهزء من ضباط البعثة العسكرية البريطانية . ولكنها مع ذلك اثبتت صلاحيتها بعد التجارب خلال الحرب العالمية الثانية، عندما استطاع المقاتلون الشجعان ان يشلوا حركة المصفحات ويبقوها خارج المعركة باستعمالهم قنابل « مولوتوف » اليدوية .

كان عزيز المصري قد ازعج الانجليز باتباع نظام الادلة الالماني في الجيش المصري كما كان قد انتقد نشاط البعثة العسكرية البريطانية ، وقد اغاظهم جداً عندما اثبت ان رشاشات « البرن » المشتراة من انجلترة ، كانت تُباع الى مصر باسعار اعلى بكثير من تلك التي كانت تطلبها تشيكوسلوفاكيا .. حتى انه صرخ مرة في وجه اعضاء البعثة : « انكم اعضاء بعثة تجارية ولستم بعثة عسكرية . »

ولم ينزعج القادة العسكريون الانجليز من ذلك فحسب ، ومن عداء عزيز المصري لهم وميوله الالمانية ؛ بل انهم اشتبهوا في ان رئيس اركان الجيش المصري كان على اتصال بالعدو وقد ازدادت هذه الشكوك في كانون الاول سنة ١٩٤٠ ، عندما فاجأت القوات الحليفـة القوات الايطالية المعسكرة في سيدي براني بهجوم صاعق حيث كان الايطاليون منهمكين باعداد العدة للزحف المظفّر على وادي النيل .

على اثر الهجوم وجد في محفوظات الاركان الايطالية جميع الخطط العسكرية المعدة للدفاع عن الصحراء الغربية التي كان اللـواء ميتلاند ولسون قائد العمليات الحربية في مصر تحت امرة المارشال « وايفل » قد سلّمها بيده الى اللواء عزيز المصري ، تُرى مَنْ أوصل هذه الخطط الى الاعداء ؟..

هل وصلت عن طريق رئيس الاركان العـامة المصرية ؟. ام عن طريق رئيس الوزراء ؟. ام الملك فاروق نفسه ؟.. ومهما يكن من امر فانه من غير الممكن ان تصل تلك المعلومات الى الاعداء عن طريق

موظف صغير غير مسؤول ، ومن العسير جداً في وضع كهذا تحديد المسؤولية .

ومن رواية انور السادات في كتاب « ثورة على ضفاف النيل » نفهم ان الانجليز لم يكونوا مخطئين كل الخطأ في حذرهم من عزيز المصري ، فأحيل الى التقاعد وحكم عليه بالبطالة ، فما كان منه الا ان أفصح عن ميوله القومية للضباط الشبان الذين كانوا يجتمعون به سراً . بعد أخذ كل الاحتياطات اللازمة حتى لا تقع عليهم عين قلم الاستخبارات البريطانية ، أو البوليس الحربي المصري . لقد قابله انور السادات في المرة الاولى في مكتب مجاور لعيادة طبيب في حي السيدة زينب الشعبي ؛ وبعد ذلك قام الملازمون الشبان بعملية تسلق أسوار حديقة عين شمس حيث كان عزيز المصري يسكن قصراً قديماً محاطاً بأشجار المنجه . كان اللواء عزيز المصري المبعد عن الجيش يعتمد على الضباط الشبان للقيام بانقلاب عسكري يحرر البلاد من الوصاية البريطانية . وكمرافق سابق لمصطفى كمال ، كان بالطبع يستهويه نجاح حركة جماعة « تركيا الفتاة » وكصديق للشيخ حسن البنا ، كان يأمل في مزج الحيوية الدينية للاخوان المسلمين بالحيوية الوطنيـة القومية للضباط الاحرار . وكثيراً ما تحدث ، كما يقول انور السادات عن بونابرت الذي استطاع في الثلاثين من عمره ان يقوم بانقلاب الثامن عشر من « بروميـر » ويعيد بناء فرنسا ويحكم امبراطورية .

وقـد أحيت الصعوبات التي واجهتها بريطانيا في الشرق الاوسط سنة ١٩٤١ آمال الوطنيين المصريين . فرشيد عالي الكيلاني كان قد بدأ الثورة عليهم في العراق ؛ والالمان الذين اسرعوا لنجدة الايطاليين في ليبيا تمكنوا من ان يستعيدوا المناطق التي خسرها الايطاليون . وجيش افريقيا الذي كان يقوده رومل بات يهدد تهديداً مباشراً الجيوش البريطانية المعسكرة في مصر . والهجوم الجوي المستمر على مالطة وعلى الامدادات

القادمة الى الاسكندرية جعلت الامبرالية البريطانية تفكر في الانسحاب من الحوض الشرقي للبحر المتوسط وحصر الدفاع في جبل طارق .

ويقول السادات في ذلك : « ان الفشل كان يتربص بالبريطانيين ، وعلى مصر ألاّ تفوت هذه الفرصة الذهبية . ان معنويات قواتنا كانت مرتفعة جداً . وقد حان الوقت الذي يجب عليها فيه ان تثبت شعورها الوطني وتسفر عن وجهها فيه بدخول المعركة . »

في ذلك الحين قام انور السادات باتصالات مع القيادة الالمانية العامة في ليبيا وبحث أمر انضمام القوات المصرية الثائرة الى قوات المحور . وفكّر الالمان في ارسال عزيز المصري الى العراق ليقود القوات العربية، ويذلل العقبات السياسية والعسكرية التي أخذت تواجه حركة رشيد عالي الكيلاني وتهددها بالفشل . وبخصوص ذلك كان اللواء العجوز لا يشارك الضباط الشبان رأيهم وتفاؤلهم وحماستهم للتدخل في ثورة بغداد ، بل قال لهم ؟

– « انكم لا تعرفون مثلي الساسة العراقيين »

لقد قاسى الكثير من الزعماء العرب الذين كان قد أتيح له التعرف اليهم في عهد الاتراك . وكان موقناً من انهم يتآمرون مع الانجليز على قومهم ، ولن يترددوا في طعن السياسي الجريء رشيد عالي الكيلاني بالخنجر في ظهره .

وفي آذار سنة ١٩٤١ جاء أحد موظفي « الفيرماخت » لزيارة عزيز المصري في منزله وسلمه رسالة اختصرها انور السادات بما يلي : « ان الالمان يقدرون ، كما ينبغي التقدير ، نشاط عزيز المصري الوطني ، ويعلنون له رغبتهم في التعاون معــه والاستفادة من خبرته العسكرية وتجاربه ، فاذا هو أراد من جانبه ان يتعاون معهم ، فما عليه إلا ان يبلغهم عن رغبته ومشروعاته ، وهم يأخذون على عاتقهم التنفيذ »

قبل عزيز المصري مبدئياً العرض الالماني ، وبحث مع انور السادات

وسيلة الهرب من مصر ، واقترح ان تأتي غواصة لأخذه عند بحيرة « البرلس » وتنقله الى بيروت . والملازم في الخيالة اسماعيل مظهر الذي كان من بين الذين ألفوا اولى خلايا حركة الضباط الاحرار ، كان يعسكر بالقرب من بحيرة البرلس في منطقة قناة السويس . لذلك توجه الى هناك ليتعرف الى المكان . وبعد بحث المشروع بحثاً دقيقاً تبين انه من غير الممكن تنفيذه .

وكان الهرب بطريق الجو أكثر قابلية للتحقيق ، فاتجه عزيز المصري وانور السادات الى مطار الحطاطبة ، وقصدا المكان للتعرف اليه بصحبة الطيار عبدالمنعم عبد الرؤوف ؛ ولكنهم عندما وصلوا الى الصحراء ذهلوا لما رأوا على جانبي الطريق مستودعات لا حصر لها ومعسكرات تعج بالجنود البريطانيين . فاقترح الالمان مكاناً آخر للهبوط في الصحراء الليبية قرب جبل « رزة » على طريق الواحات . واتفق الجميع على تاريخ وصول الطائرة والاشارات التي يجب تبادلها معها . كان على هذه الطائرة ان تهبط عند غروب الشمس ، كما كان عليها ان تحمل شارات سلاح الجو الملكي البريطاني .

ذهب عزيز المصري في السيارة مع عبدالمنعم عبد الرؤوف حسب الموعد المحدد . ولكن احد دواليب السيارة انفجر عند الاهرام ، وكان من المستحيل اصلاحه بسرعة . فوصلت الطائرة وحطت لتعود من حيث جاءت دون ان تحمل اللواء .

اتفق عزيز المصري مع قائد السرب حسين ذو الفقار صبري نائب وزير الخارجية للهرب هذه المرة على متن طائرة مصرية . ولكن طيران الليل توقف بحادث اصطدام . فقد اصطدمت الطائرة بأحد الاعمدة وسقطت على الارض . والهاربون الذين نجوا بأعجوبة ألقي القبض عليهم وسجنوا؟ وحكموا بالاشغال الشاقة لتآمرهم على سلامة الدولة .

وكتب انور السادات بهذا الخصوص يقول : « لو ان القدر لم

يلعب ضدنا ، ولو نجحنا في ضم قواتنا الى المحور ربما كان تغير مسير الاحداث . »

ان لنا ملء الحق في ألا نشاطر انور السادات هذا الرأي . ويبدو واضحاً جلياً من مراحل الفشل المتتالية ان حركة الضباط الاحرار لم يكن أمامها أي أمل في الوصول الى نتيجة ايجابية ، لأن الضباط الذين انخرطوا في خلاياها يعملون منعزلين . ان الميل الثوري ومحاولات محاربة الاستعمار البريطاني بالاستعمار الالماني لا يمكن ان يؤدي في حال من الأحوال الى تحرير مصر .

وكان لا بد من اجل زحزحة الوصاية الاجنبية من ان تقوم ادارة موحدة ذات ارادة حازمة تجمع ذوي النوايا الطيبة المتفرقين . ويجب ان يمحص كل فرد في الجيش حتى يصبح بالامكان الاتصال بعدد كاف من الضباط الذين يقدمون على المخاطرة بمراكزهم ، بل بحياتهم ، للاشتراك في عملية احياء وطنهم . ويجب الحصول على تعهد بالكتمان التام وقبول أي امر يصدر عن لجنةثورية مصغرة :

وقد كرس جمال عبد الناصر جهوده لتنظيم حركته بدقة ونهج وصبر . وكان من شأن الحماقة السياسية التي ارتكبتها السلطات البريطانية ان تسهل له مهمته ، اذ ان عملية عرض العضلات في الرابع من شباط سنة ١٩٤٢ ضد الملك فاروق من جانب القوات البريطانية كان من نتائجها مضاعفة مشاعر العداء نحو بريطانيا في صفوف الجيش ، فازداد الميل الوطني لتشكيل حكومة قوية ، حرة من كل قيد مع الاجنبي :

هجوم المصفحات البريطانية على قصر عابدين
وأثره في تقوية الحركة الثورية

في عام ١٩٤١ بينما كان أنور السادات وعبد المنعم عبد الرؤوف وأحمد مظهر وحسن عزت يتصلون ويجتمعون مع حسن البنا وعزيز المصري للتخلص من العرش والانجليز، كان الملازم جمال عبد الناصر في السودان يعيش حياة عسكرية صرفة لانه في أوساط الضباط المصريين كان الانتهازيون يقدّمون مصالحهم الشخصية العاجلة التافهة على مصلحة مصر التي كانت تتوق الى التحرر والعدالة الاجتماعية .

وكان لا يمكن ان يُسمع له رأي ممن هم اعلى منه رتبة ، لأنهم كانوا يبدون اذلاء مع الانجليز متعجرفين متغطرسين في علاقاتهم مع من هم ادنى منهم رتبة من أبناء بلدهم :

وهذه رسالة بعث بها جمال من الخرطوم في آب سنة ١٩٤١ الى صديقه حسن النشار تعكس لنا يأسه الموقت . وهذا بعض ما جاء فيها :

« .. ان عيبي الوحيد هو صراحتي ، فأنا لا أعرف اللف والدوران كما انني لا أجيد التملق . ولا استرضي رؤسائي :

« .. ان الحياة الحاضرة تختلف بكثير عما كانت في السابق . فلا

اخلاص ولا وجدان في حياتنا اليوم .. وبوصفي المؤمن الوحيد في محيطي هذا بالوجدان والاخلاص . لذلك اُضطهدت والعقوباتُ تنصب عليّ . ان المؤمن مُبتلى ..

« .. أما زلت تذكر مناهجنا الاصلاحية التي كان يجب ان ننفذها في عشر سنوات ؟ لقد صرت اعتقد الان بأنه ينبغي الف عام لتنفيذها. ستقول بان جمال قد تغير أؤكد لك ان كلامي هذا هو وليد تجاربي واتصالاتي مع فريق كنت اظن خيراً فيه ، وآمل ان يتحقق أمل الوطن على يديه . »

في نهاية عام ١٩٤١ عاد الملازم جمال عبد الناصر الى مصر .

وكانت الاوضاع العسكرية قد تبدلت . في شهر حزيران قُطعت العلاقات الروسية الالمانية ، وأدى ذلك بروسية الى الوقوف الى جانب أعداء المانية . وفي تشرين الثاني وكانون الاول استطاعت القوات البريطانية التي يقودها « أوكنلك » ان ترد هجوماً معاكساً المانياً – ايطالياً عن الشواطىء الليبية .

وفي السابع من كانون الاول سنة ١٩٤١ دخلت الولاياتُ المتحدة الحرب .

وفي كانون الثاني سنة ١٩٤٢ بدأ « الفيلق الافريقي » بقيادة الجنرال رومل عمليات حربية على أوسع نطاق ضد القوات البريطانية التي كانت قد انضمت اليها قوات نيوزلاندية وجنوب افريقية واسترالية وهندية وبولونية ويوغسلافية وفرنسية (ديغولية) .

وكان ان تعاونت حكومة حسين سري مع الانجليز في الدفاع عن الاراضي المصرية . ولكن الجيش والشعب كانا لا يشعران بأي تضامن فعلي مع البريطانيين ، وانجلتره في نظر المصريين كانت الدولة المستعمرة .. والاكثرية الساحقة كانت تتمنى انتصار المانية التي كانت محطات اذاعاتها تَعِدُ المصريين بالاستقلال .

وفي أول شباط سنة ١٩٤٢ بعد مرور أيام فقط على استعادة الجيوش الالمانية لمدينة بنغازي انطلقت المظاهرات الطلابية في شوارع القاهرة مطالبة بحكومة يرئسها علي ماهر الذي كان الانجليز يعتبرونه موالياً للمحور وفي اليوم التالي أقال الملك فاروق حكومة حسين سري متهماً اياها بأنها قطعت دون علمه وبناء على رغبة السفير البريطاني العلاقات الدبلوماسية مع حكومة فيشي الفرنسية .

ثم انطلق الأزهريون جماعات جماعات في شوارع القاهرة ينادون « الى الامام يا روميل » ويتظاهرون ضد الانجليز دون ان يحاول رجال البوليس ان يتدخلوا لتفريق المتظاهرين .

وفي الثالث من شباط وقبل ان يجتمع الملك فاروق بعلي ماهر ويبحث معه بشأن تأليف الحكومة الجديدة اتصل به هاتفياً السفير البريطاني السير مايلز لمبسون (اللورد كيلرن حالياً) بقصر عابدين . واعلم الملك بأنه نظراً للحالة العسكرية الراهنة فان الحكومة البريطانية تصر على ضرورة تشكيل حكومة برئاسة مصطفى النحاس الذي تثق به بريطانيا ، وبأي ثمن يجب اقصاء علي ماهر فأجاب فاروق على مكالمة السير ولمبسون انه قبل اعطاء الجواب سيستشير الشخصيات السياسية ومن بينها علي ماهر ومصطفى النحاس .

وفي صبيحة الرابع من شباط قبل ان يعرف قرار الملك وجه السير لمبسون اليه التهديد التالي .. « اذا لم يُكلف مصطفى النحاس قبل السادسة مساء من هذا اليوم تأليف الحكومة المصرية الجديدة فان على الملك فاروق ان يتحمل نتائج رفضه لتنفيذ الرغبة البريطانية . »

وفي الساعة السادسة اتصل هاتفياً السيد احمد حسنين رئيس ديوان الملك بالسفارة البريطانية ليكلم السير مايلز لمبسون ويخبره بان الملك قرر بعد التشاور مع عدد من السياسيين ان يرفض الانذار البريطاني . فأجاب لمبسون على الهاتف بانه سيزور الملك في التاسعة مساء :

وتماماً في الساعة المعينة اقتحمت كتيبة من المصفحات البريطانية تواكبها قوة آلية قصر عابدين ، ودكت مدخل باحة الشرف . ولم يحرك الحرس الملكي ساكناً لان أوامر الملك كانت تقضي بأن لا يأتي باية حركة مقاومة.

ثم ارتقى السفير مصحوباً باللواء « ستون » قائد القوات البريطانية في مصر وضابطين افريقيين والمسدسات في أيديهم ، ارتقوا الدرج المؤدي الى الاجنحة الملكية ، فتقدم ياور الملك منهم ، فكان أن أبعده السفير بيده قائلاً : « انني أعرف طريقي » .

وعندما وصل السفير الى القاعة التي يشغلها مكتب الملك اعلمه بأنه سجين القوات البريطانية ، وخيره بين التوقيع على الكتابين اللذين عرضهما عليه . وكان الاول أمراً بتكليف مصطفى النحاس تأليف الحكومة الجديدة . والثاني ينص على التنازل عن العرش . فوقع الملك الامر الاول وعين مصطفى النحاس رئيساً للحكومة .

وفي اليوم التالي وقبل ان يتسلم مصطفى النحاس سلطاته ، اعلم السير مايلز لمبسون بانه لا داعي للايضاح بان معاهدة سنة ١٩٣٦ لا تعطي بريطانية حق التدخل في شؤون مصر الداخلية وخاصة تشكيل الحكومات وحلها . كان ذلك ذراً للرماد في الأعين .

وهذا التصريح لا يغير من الواقع شيئاً ، لقد أرغم السفير البريطاني بالقوة المسلحة على تكليف رئيس حزب الوفد بتأليف الحكومة ، ولا ريب ان قبول رئيس اكبر حزب مصري تسلم الحكم في ظروف مذلة كهذه كان لطخة عار في جبين مصر .

لقد اعتبرت هذه العملية في طول البلاد وعرضها اهانة للشعب المصري كله . وكتب انور السادات يقول :

« لقد اراد الجيش ان يثأر لكرامة الوطن التي اهينت في الرابع من شباط ويضرب ضربته ، وعقد ضباط فريقنا الذين اشتعلوا غيظاً اجتماعاً في النادي العسكري في الزمالك ولكن مصر لم تكن مستعدة بعد للنزول

الى الحلبة . وأي تدخل في الوقت غير المناسب من شأنه ان يفسد النتائج المتوخاة .

« والعقول الراجحة بيننا دعت الى التعقل فاستجبنا الى ندائها ... »

« واذا كان هذا الجرح الذي اصاب الوطن لم يشعل ثورة في البلاد فانه اعطى الحركة الثورية قوة جديدة دافعة وانتقلت الحركة من المرحلة الشكلية الى مرحلة الجهاد وتضاعف عدد الخلايا تضاعفاً كبيراً .

وقدم كثير من الضباط استقالاتهم عشية الرابع من شباط . وقد كتب اللواء « محمد نجيب » في « مستقبل مصر » عن تلك المناسبة يقول : « لقد بلغ السخط بي درجة دفعتني الى ان اوجه الى الملك فاروق المذكرة التالية : بما ان الجيش ليس لديه امكانية الدفاع عن جلالتكم ، فانني اخجل لذلك ان البس الزي العسكري ، وأرجوكم ان تتقبلوا استقالتي من الجيش المصري » . فأرسل الملك مرافقه العسكري السوداني اللواء عبد الله النجومي يشرح لمحمد نجيب ، انه طالما هو نفسه طلب الى الحرس الملكي ان لا يقاوم البريطانيين فهو لا يستطيع ان يقبل استقالة اي ضابط في الجيش ؟

وتستطيع ان تعرف رد الفعل لدى جمال عبد الناصر من قراءة رسالتين كان قد ارسلها الى صديقه حسن النشار من العلمين حيث كان يعسكر :

في الرسالة الاولى التي كتبت بعذ الرابع من شباط يقول الملازم الاول عبد الناصر :

« .. انني لأخجل كيف ان الجيش قبل هذا التطاول ولم يقاومه . ولكنني سعيد من ان ضباطنا الذين كانوا حتى اليوم لا يفكرون الا في لهوهم ، قد بدأوا يتحدثون عن الاخذ بالثأر » .

وبعد ان عرف جمال عن طريق صديقه تفصيلات الحادث الذي هز مصر ، كتب الرسالة التالية :

العلمين في ١٦ شباط سنة ١٩٤٢

عزيزي حسن ،

« لقد تلقيت رسالتك ، وما ذكرته فيها اشعلني غيظاً ، ولكن ما العمل ازاء الامر الواقع ، لقد قبلنا ورضخنا جميعاً ، وانني اعتقد حقاً ان الانجليز يلعبون في ايديهم ورقة واحدة ، انهم لا يريدون سوى ارهابنا – وتهديدنا :

« ولو انهم شعروا بأن هناك نفراً من المصريين مستعدون لاهراق دمائهم ومواجهة القوة بالقوة لانسحبوا كالعواهر . تلك طريقتهم في العمل ، وتلك عاداتهم ، اما نحن ، اما في الجيش فان هذا الحادث قد اقلقنا ، وأثارنا ، حتى اليوم لم يكن الضباط يتحدثون الا عن الملذات والتسلية ، اما الآن فانهم يتكلمون عن التضحية والموت ، دفاعاً عن الكرامة ... انك تراهم نادمين لانهم لم يتدخلوا على الرغم من ضعفهم الشديد ، من اجل الثأر لكرامة الوطن وغسل العار الذي لحقه بالدماء . ان المستقبل لنا .

« لقد حاول البعض ، بعد هذا الحادث ان يقاوموا ويثأروا .. بعد فوات الاوان .. اذ كانت القلوب مملوءة حقداً ومرارة .

« لقد اعاد هذا الحادث ، او هذه الصدمة على الأصح ، اعاد الروح الى بعض الاجسام . لقد تعلموا ان هناك شيئاً اسمه الكرامة ، وان علينا ان نكون دائماً على اتم الاستعداد للدفاع عنها .. وهذا درس ولكنه درس قاس .. »

يتبين لنا من هذه الرسالة العجيبة انه لو كان لدى فاروق الشجاعة الكافية لمقاومة الضغط البريطاني لوجد نخبة الجيش في جانبه ، لقد وصل غضب الملازم الاول جمال عبد الناصر الى درجة حملته وهو المتحفظ المتعفف في لغته على ان ينعت الانجليز « بالعواهر » . من الضروري ان يكون جمال عبد الناصر في اقصى درجات الغضب ، والثورة

النفسية ليستعمل كلمة كهذه . لقد حاولت المصور التي نشرت نص هذه الرسالة ان تطمس هذه العبارة ولكنها تبدو واضحة في النسخة المصورة من الرسالة .

ولو فكرنا في الحالة الحرجة التي كانت تعانيها بريطانية آنذاك لادركنا السر وعرفنا ان القادة العسكريين الانجليز كانوا حريصين على ان يكون على رأس حكومة مصر رجل سياسي لا علاقات له بالايطاليين والالمان . ومن المحتمل ان تكون مظاهرات الايام الاولى من شباط التي بررت الى حد ما تصرف الانجليز في الرابع منه ، قد نُظمت من قبل عملاء بريطانيين .

ومهما يكن فانها كانت تُعبر مع ذلك عن شعور الاكثرية الساحقة من المصريين . وسكان وادي النيل لم يكونوا يشعرون بأي ميل لأي جهة من الجهات المتحاربة . وجل ما كانوا يرغبون فيه البقاء في منجى من الحرب . ولا يريدون ان يُزج بهم في هذا الاتون ، وبما ان الانجليز هم الذين كانوا يحتلون مصر ، لذلك كانت البلاد تتمنى ان يخسروا الحرب ويتم طردهم على ايدي الالمان .

وخلال صيف سنة ١٩٤٢ تفاقمت حالة الحلفاء سوءاً . فقد وقع القسم الاعظم من الشرق الاقصى في ايدي اليابانيين ، وفي المتوسط خسرت البحرية البريطانية افضل قطعها . وفي روسية احتل الالمان اوكرانيا وتقدموا نحو منابع النفط في القفقاس . وفي ليبيا سقطت طبرق في ايدي المحور بعد حصار طويل ؛ واندفع رومل بجيوشه نحو الحدود المصرية آسراً اربعين الف جندي بريطاني . ولم يتوقف الا عند العلمين .

وفي القاهرة والاسكندرية ، بدأوا يحرقون المستندات المعرضة للخطر . وراحوا يعدون كيفية اخلاء سفارات الحلفاء ومقر القيادة البريطانية العام .

وفي الجيش المصري ، راح الفريق الثوري يستعد للقيام بانقلاب

عسكري ، وكان المقصود قلب الحكومة - حكومة مصطفى النحاس - والمجيء بعلي ماهر . الى الحكم ؛ ثم الوقوف الى جانب قوات المحور ضد الجيش البريطاني .

وكلفت اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار أنور السادات الاتصال بحسن البنا لتنسيق عمل القوى المسلحة مع عمل الاخوان المسلمين . وقد استقبله المرشد العام للاخوان المسلمين بسرية تامة . وهذا ما يرويه انور السادات نفسه عن تلك المقابلة في كتابة « ثورة على ضفاف النيل » : لقد اخبرته ان ساعة العمل ستدق ، وشرحت له ان مشروعنا قد أشبع درساً ، وان تنفيذه سيتم بالتعاون مع الالمان ، وحدّدتُ له الدور الذي نأمل ان يقوم به الاخوان المسلمون في هذه المهمة ، وحدود ذلك الدور . وكان الشيخ يصغي بانتباه زائد لما أقول . ولفرط تأثره تمتم بصوت منخفض بضع كلمات كأنه يتكلم مع نفسه ، ثم انفجر باكياً ، وبعد ان هدأ وتمالك نفسه نظر الى وعلى وجهه امارات الامل المفاجيء وراح يتدفق الكلام الحماسي من فيه قائلاً : « ... ان رؤية مصر في معركة النضال من اجل الاستقلال قد حركت في الاعماق مشاعر الوطنية ، ومصلحة الامة وسعادتها هما جل ما اتمناه في هذه الدنيا » .. ثم أطرق يفكر لحظة وقال مبتسماً لاخفاء قلقه الظاهر : « .. اننا مستعدون للوقوف الى جانبكم في أي وقت تريدون » . لا ريب ان قلبه كان معنا ولكنه لم يتفوه بالكلمات التي كنت انتظرها منه ... »

« لم يُطَمْئِنِي انه يتبنى مشروعنا ومخططنا . ولم يقل انه سيصدر أوامره الى جماعته بالانضمام الينا فور صدور اشارة البدء بالمعركة .. »

وفي ذلك الاجتماع خرج المرشد العام عن تحفظه ، واعطى أنور السادات جميع التفصيلات عن التشكيلات شبه العسكرية التي تعمل تحت لوائه ، وعن الاسلحة والتدريب . واقترح دمج حركة الضباط الاحرار بجمعية الاخوان المسلمين . فرد انور السادات بان الايدلوجية العقائدية

تختلف عند الفريقين ، وان رفاقه الضباط انطلقوا من مبدأ يقول بضرورة عدم الانتساب الى أي حزب ، وانه يكفي ان يتفقوا فيما بينهم لقلب نظام الحكم دون تحديد الشكل السياسي للحكومة المقبلة ، وان هدف الوطنيين هو واحد . انما هو تحرير الشعب ورفع مستواه المعيشي .

ولكن الشيخ حسن البنا لم يقتنع بهذه الحجج : وحالته النفسية حيث كان يمتزج القلق بالامل لم تكن لتسمح لمرشد الاخوان المسلمين العام بان ينظر الى الامور نظرة موضوعية . ففهم الضابط الشاب ان ايقاظ الجماهير عن طريق تحريك الايمان الديني شيء ، وتحريك هذه الحماسة الجماهيرية ودفعها الى العمل الفعلي شيء آخر ..

وكان على الضباط الاحرار ان يتوصلوا الى الاستنتاج القائل انه من الأفضل لهم الاعتماد على انفسهم فقط لتنظيم الثورة : وفضلاً عن ذلك على اثر تلك المقابلة مع الشيخ حسن البنا اعتقلت السلطات الضابط أنور السادات وزجت به في احد المعتقلات :

لذا المتابع لخطب وشخصية وصعود
وهبوط حسن البنا لا يمكن بأي حال من
الاحوال تصديق كلمة واحدة مما قاله
السادات والدليل أن السادات كاذب هو أن كتابه هذا
(ثورة على ضفاف النيل) والذي فيه ناقض جمال انتهى بكتاب
(البحث عن الذات) فيما بعد حيث ناقض فيه كل هذه الاقوال
ويتوجه بالزعامة
الثورية الى نفسه .. ان السادات كاذب وينافق جمال.

جاسوسان عند راقصة

ليس ما يرويه أنور السادات عن اتصالاته بالجواسيس الالمان سنتي ١٩٤١ و١٩٤٢ من نوع القصص الخفيفة المسلية على هامش المأساة المفجعة التي كانت عليها الحرب العالمية الثانية بل هو أيضاً مستند سيكولوجي يبرهن ان الممثلين المدنيين والعسكريين لبريطانيا في مصر وعلى الاخص الضباط الانجليز. على الرغم من اتصالهم المباشر اليومي بالضباط المصريين لم يستطيعوا ان يكسبوا ثقتهم وعطفهم ولم يتمكنوا من اقامة علاقات الحليف مع الحليف :

كان على معاهدة سنة ١٩٣٦ شكلياً ان تضع نهاية للحقبة الطويلة التي كانت بريطانية خلالها تفرض على مصر الاحتلال العسكري. وكان يجب ان تتحول المعاهدة غير المتكافئة الى حلف يقبله الفريقان لمصلحتهما المشتركة .

كان البريطانيون يعتقدون انهم لحماية مصر من كل اعتداء ، وخاصة من الاستعمار الفاشيستي يقدّمون الى مصر خدمة جليلة ، وعلى الشعب المصري لقاءها ان يتعاون باخلاص مع بريطانية في حربها ضد المحور ؟ ولكن الضباط المصريين الشباب الذين دخلوا الكلية الحربية العسكرية بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ لم يكن لديهم أي ثقة في أن يُنفذ بشرف ما

جاء في بنودها .

وبقاء القوات البريطانية الفعلي في منطقة القناة بـدا لهؤلاء الضباط استمراراً للسيطرة الأجنبية كشوكة في جسم مصر . ولاحظوا ان بريطانية ما زالت تتدخل في شؤون مصر الداخلية والخـارجية ، ولم يرسخ في رؤوسهم سوى فكرة التخلص من الدول الأجنبية التي فرضت وجودها في وادي النيل بحجة الحماية .

ولم يكن في نية أنور السادات مطلقاً عندما بـدأ اتصالاته بجهاز الجاسوسية الالمانية ان يخون دولة حليفة ، بل كان يفتش عن مساندة موقتة من دولة قوية عسكرياً لتحرر بلده من الاستعمار البغيض . والمظاهرة الطريفة التي قصد بها في الرابع من شباط سنه ١٩٤٢ تهديد الملك وإذلاله زادت مشاعر الحقد ضد بريطانية تأججاً في نفوس الضباط الوطنيين .

وفي حزيران سنة ١٩٤٢ في الوقت الذي كانت المقـاومة البريطانية تشتد فيه عند العلمين ضد الهجمات المخيفة التي كان يقوم بهـا الفيلق الافريقي الالماني استقبل المقدم المصري حسن عزت في القاهرة مبعوثين من قبل الماريشال رومل . أحدهما هانز أبلر ، وكان يعرف مصر معرفـة تامة ، اذ ان هذا الألماني المولد كان قد انضم في القاهرة الى عائلة أحد القضاة الذي كان قد تزوج من أمه ، مما اتاح له ان يتقن العربية ، وانقلب اسمه من هانز ابلر الى حسن جعفر . ولكنه عوضاً عن ان يتابع دروسه في مصر ، عاد لمتابعتها في المانية .

ولدى اعلان التعبئة العامة في المـانية عين هانز ابلر في جهاز « الفيرماخت » كاختصاصي في الشؤون المصريـة . وفي أول حزيران سنة ١٩٤٢ أرسله رومل الى القاهرة في مهمة خاصة مـع رفيق له متسترين بلباس ضابطين بريطانيين ، فاجتازا الصحراء جنوبي واحـة سيوة في طريق شبه مهجورة تؤدي الى الواحات الخارجية . ومن هناك الى اسيوط على الطريق العادية . وقد قطعا هذه المسافة في سيارة تابعة للجيش

التي كانا يبرزانها في مراكز التفتيش البريطاني ومعهما أوراقهما المزورة :
وقد حصلا على البنزين من الجيش البريطاني عندما فرغ مخزونهما من الوقود . وكانا يحملان مبالغ كبيرة من المال ، اذ اعطيا في ليبيا اربعين الف ليرة استرلينية بنكنوت ، كان الالمان قد طبعوها في اليونان .

لقد اجتاز الجاسوسان الالمانيان وادي النيل من أسيوط الى القاهرة دون أي حادث ، وكان يُستقبلان بحفاوة في مراكز التفتيش من الحراس البريطانيين والمصريين . وعند وصولهما الى العاصمة تخلّيا عن اللباس العسكري وظهرا بالثياب المدنية .

وبعد ان قادهما المقدم حسن عزت الى أنور السادات أبرز المبعوثان مستندات تثبت تابعيتهما الألمانية . وتُفصِحُ عن المهمة التي جاءا من أجلها . ثم طلبا ان يقابلا « زعيم » الوطنيين المصريين . فافهما ان المنظمة سرية لا تفصح عن اسماء رؤسائها . وقيل لهما ان علاقتهما ستقتصر على أنور السادات صديق عزيز المصري وكاتم اسراره ، وعلى الملازم الأول عبد المنعم عبد الرؤوف أحد أعضاء منظمة الأخوان المسلمين :

وبفضل هذه الاحتياطات ، نجا الضباط الأحرار من الوقوع في الشبكة التي كان قلم الاستخبارات البريطاني بالتعاون مع البوليس السياسي المصري يعدها للقضاء على حركة المقاومة ، ذلك لان الجاسوسين الألمانيين لم يكونا حذرين مطلقاً .

كان النازيان الشابان قد اختارا منزلهما على النيل في بيت عائم « الذهبية » لراقصة تدعى حكمت فهمي . وكانا قد استبدلا بالليرات الاسترلينية المزيفة بأربعين الف جنيه مصري بواسطة عميل يهودي خاص تقاضى ٢٠٪ من المبلغ بدل اتعابه . وفي باحة البيت العائم أقاما جهاز راديو ومدّا الى فوق الجسر الاسلاك اللازمة لمحطة الارسال .

وعندما قام انور السادات بناء على طلب المقدم حسن عزت، بزيارة المبعوثين الالمانيين صعق لعدم حذرهما.

اجل ، لقد كان جهاز الراديو داخل المركب مخبأً باحكام ، كان يجب الضغط على زر لينفتح الراديو عن فتحة تتسع لجلوس عامل الى جانب لوحة النور وبحركة اخرى كان يقفل الجهاز وتتصاعد الموسيقى منه ، بينما يكون العامل في طريق اعداد جهاز الارسال . وفي الوقت الذي كان الضباط البريطانيون بناء على دعوة حكمت الجميلة يرقصون ويشربون يستطيع الجاسوس الالماني ان يسترق احاديثهم ويلتقط معلومات هامة صحيحة عميمة الفائدة :

وخلال المقابلة الاولى اسرّ هانز ابلر وصديقه لانور السادات بأن جهاز الأرسال الذي في خدمتهما قد اعتراه بعض الخلل ، وقد اعلما القيادة الالمانية العليا بذلك فارسلت لهما بواسطة احدى السفارات جهازاً جديداً ، ولكنهما يجهلان كيفية استعماله .

وقد فهم انور بوصفه ضابطاً في سلاح الاشارة يعرف جيداً كيفية استعمال الجهازين فهم في الحال ان الجهاز الاول كان في حالة جيدة ؛ وان الجهاز الثاني من طراز « هليكوفتر » ولم يكن من العسير تركيبه؛ ولكن الجاسوسين المبتدئين اللذين زُوّدا بمبلغ ضخم من المال وجدا الحياة جميلة في « ذهبية » حكمت فهمي ، وكانا يرغبان في ان يطيلا أقامتهما قدر المستطاع في مكان الملذات هذا ، الذي قال عنه انور السادات :

« .. انه بيت من بيوتات الف ليلة وليلة ، حيث كان كل ما فيه يدعو الى الاسترخاء والاسترسال وراء الشهوات والملذات . في هذا الجو الفاحش الخليع نسي النازيان الشابان المهمة الدقيقة التي كان قد كلفا بها .. »

وفي الزيارة الثانية وجد انور السادات الشابين غائبين عن الوعي من فرط السكر مع امرأتين يهوديتين بارعتي الجمال.وفي اليوم التالي ألقي القبض عليهما :

وبعــد بضعة ايام ايضاً ، اوقف انور السادات وحسن عزت بدورهما وأحيلا الى المجلس العرفي بتهمة التآمر على سلامة الدولة في زمن الحرب .

وحاول النازيان الاّ يتكلما في البدء . وهُدّدا بعقوبة الاعدام . وصدَفَ ان مر ونستون تشرشل في القاهرة في طريقه الى موسكو ، فاطّلع على الامر . واصر على ان يقوم هو بنفسه باستجواب الجاسوسين ، وحصل منهما على اعتراف كامل بعد ان وعدهما بالابقاء على حياتهما .

وكانت النتيجةُ ان فُصل عبد الرؤوف وانور السادات من الجيش والحقا بمعتقل المنيا في الثامن من تشرين الاول سنة ١٩٤٢ . وفي التاسع عشر منه احرز الحلفاء النصر في معركة العلمين وطارد الجيش الثامن الذي كان يقوده الجنرال مونتغمري جيش رومل :

وفي روسية تصدّع الهجوم الالماني بسبب الدفاع عن ستالينغراد ، ثم الهجوم الروسي المعاكس . وكذلك انطلق الاسطول الفرنسي الذي بقي مشلول الحركة مدة طويلة في ميناء الاسكندرية يزيد من قوة الحلفاء العسكرية في المتوسط . وبدأ ميزان القوى يميل لصالح الحلفاء ، وكان على الحرب ان تستمر سنتي ١٩٤٣ و١٩٤٤ . ولكن المقـاومة الروسية والتدفق المستمر للجيوش الاميركية جعلا من السهل جداً التكهن بنتيجة الحرب العالمية :

في ذلك الحين كتب انور السادات قائلاً : « .. ان تحرير مصر ليس قريباً ؛ بكلّ جرأة سيَفْهمُ شعبُ وادي النيل انه لن يستطيع بعد اليوم ان يعتمد على احد سوى نفسه في سبيل الخلاص . »

وفي ٩ ايلول سنة ١٩٤٢ عاد جمال عبد الناصر من السودان وقد رقي الى رتبة نقيب . واغتنم اوقات فراغه لاتمام ثقافته العسكرية . وفي السابع من شباط سنة ١٩٤٣ عيّن استاذاً في الكلية الحربية . وقد رأينـا في الفصل الذي أفردناه لمطالعاته انه اذا كان قد اعاد قراءة كتب كان قد

قرأها في عهـد التلمذة في الكلية ، فانه انصرف في الوقت نفسه الى دراسة كبار الكتاب العسكريين امثال ليدل هارت وكلورتيز والاطلاع على مؤلفات الرجال والكتاب السياسيين امثال كرومر وتشرشل مما ساعد الاستاذ الشاب على اعداد محاضراته ومكّنه من الاستعداد لمدرسة اركان الحرب .

وفي الوقت الذي كان النقيب جمال عبد الناصر يتمّ تكوينه العسكري احتفظ بعلاقاته بخلايا الضباط الاحرار .

لقد نزلت مظاهرةُ القوة الانجليزية في الرابع من شباط سنة ١٩٤٢ كالسوط على الحركة المعادية لبريطانية لذلك خفت هذه الحركة وبدت كأنها في سبات عميق وزاد في ألم الضباط الوطنيين ان يروا الملك فاروق متناسياً الاهانة التي الحقها به وببلده وشعبه اللورد كليرن منصرفاً عن ذلك الى التلهّي بالسفاسف مع مصطفى النحاس ، عوضاً عن محـاولة تحرير الوطن .

كان فاروق يفتش عن مساندة له من كبـار الضباط الاميركيين وسفارة الولايات المتحدة مع انه كان يُفرض فيه ان يسعى للحصول على مساندة شعبه الذي تتزايد نقمتـه على الاجانب ؛ في تلك الاثناء كانت الحركة الوطنية كامنة تحت الرماد . وفي الكلية الحربية كان النقيب جمال عبد الناصر يدرس زملاءه ويحلل صفات كل من تلامذته موطداً معهم روابط شخصية مسجلاً الامكانيات والخصائص التي يتحلون بها . كان يحيك بصبر طويل مخطط المنظمة التي يتوجب عليها عند ساعة الصفر ان تتسلم قيادة مصر نحو الاستقلال التام الناجز .

ولم ينس اولئك الذين عرضوا مستقبلهم للخطر لتحقيق برنامج منقباد الوطني . ففي معتقل المنيا استقبل انور السادات زيارة النقيب محمد وجيه خليل الذي استشهد ببسالة في حرب فلسطين . وكان قد جاء ليطمئنه عن عائلته الصغيرة التي تركها انور بلا معين ، فابلغه ان اللجنة تعهدت

بان تجمع عشرة جنيهات شهرياً مساعدة لها . وهذا المبلغ الزهيد كان كافياً لاعانة اسرة انور السادات حتى خروجه من المعتقل واستعادته لحريته .

وفي تشرين الثاني عام ١٩٤٤ فقط نجح انور السادات في الهرب من معتقل المنيا .

النشاط السري للمدرس النشيط

فهم الضباط الوطنيون الذين كانوا يعتمدون على المانية قبل سنة ١٩٤٣ لطرد بريطانية من مصر ، فهموا أخيراً ان بريطانية بفضل الولايات المتحدة ستبقى بعد الحرب العالمية الثانية في مصر . وفي الوقت الذي كان الساسة المصريون يطيرون فرحاً للمشاركة أملاً في تحقيق الاستقلال التام الناجز مكافأة لهم على معاونتهم ، كان العسكريون موقنين ان الوعود التي أطلقها الحلفاء خلال الحرب كاذبة لا قيمة لها فلم يصدقوا ، ولكن خيبة آمالهم تفاقمت يوماً بعد يوم بسبب أنانية الاحزاب السياسية المصرية ورخصها ، فأخذوا يعدون أنفسهم ليتسلموا زمام مقدرات البلد .

في الكلية الحربية كان النقيب جمال عبد الناصر يقوم بواجبات وظيفته بكفاءة واخلاص كمدرب للفرقة الاولى . كان يعطي التلامذة دروساً في الفن الحربي : لا سيما في استعمال الأسلحة الخفيفة : وكان له نفوذ بين الطلاب على الرغم من ان عدد الاساتذة في الكلية الحربية كان يزيد على العشرة ، فإن التلميذ ما ان يتخرج فيها حتى يعلن انه تلميذ من تلاميذ جمال عبد الناصر : وفي الوقت الذي كان فيه يقوم بوظيفته في الكلية الحربية كان النقيب جمال عبد الناصر يستعد لامتحان الدخول الى كلية اركان الحرب ، التي تجري مباراة صعبة للدخول اليها :

وفي سنة ١٩٤٤ دخل عامل جديد في حياة الضابط الشاب ، وكان ذلك بواسطة عمه خليل حسين ، اذ تعرف جمال الى محمد كاظم ، وهو تاجر ميسور ، ايراني التابعية ، يقيم في المنطقة التجارية في « الغورية » . لقد عاشت عائلة كاظم هذه في بغداد قبل مجيئها الى القاهرة .

ومن هذا المحيط البورجوازي ، الرصين ، المحافظ ، تزوج جمال الفتاة تحية التي اصبحت رفيقته الامينة المخلصة ، تساعده في نشاطه ، وأماً أنجبت له خمسة ابناء .

انهـا هادئة جداً ومتحفظة ، وزوجـة مثالية ، تحمل في محفظتها المستندات التي يعدها زوجها في الفترات التي كان التنظيم الثوري يخشى فيها مداهمة البوليس السياسي له .

ظل والد جمال عبد الناصر يجهل الثورة التي أعدها ابنه اعداداً طويلاً حتى ساعة حصولها ، ومع ذلك كانت تحية كاظم كاتمة أسرار لزوجها وساعده الايمن في عمله السياسي . ولكنها فضلت فيما بعد ان تبقى في معزل عن كل مظاهرة سياسية في مصر .

وعندما تزوج جمال عبد الناصر الاستاذ العسكري في الكلية الحربية بدا كأنه اصبح برجوازياً . آنئذ كان زميله انور السادات ، الضابط المفصول من الجيش ، الهارب من المعتقل ، والذي يطارده البوليس السياسي ، ينصرف الى العمل السري .

لقـد حان الوقت لاعادة تنظيم حركة الضباط الاحرار على أسس جديدة . والخلايا التي تشكلت في داخل الجيش ، كان يشرف عليها جمال عبد الناصر ، وهو وحده مع صديقه الحميم عبد الحكيم عامر كان يعرفها كلها .

واما الخلايا التي تألفت خارج الجيش ، في الاوساط الشعبية ، وخاصة بين الاخوان المسلمين ، فكانت على اتصال بأنور السادات وعبد المنعم عبد الرؤوف الذي تطورت علاقته بجماعة الشيخ حسن البنا

الى الانخراط فيها .

وكان انور السادات من أكثر المحبذين للعمل المباشر ، وخلافاً للاخوان المسلمين الذين كانوا يعدون ويوحون بالاعتداء على الزعماء المصريين الموالين للغرب . كان انور السادات يتحرق للعمل ضد الانجليز مباشرة .

في ذلك الحين ، في تشرين الاول سنة ١٩٤٤ ، أقيل مصطفى النحاس وعين الملك فاروق مكانه رئيساً للوزارة السيد احمد ماهر ، احد مساعدي سعد زغلول سابقاً ، وشقيق علي ماهر .

كان رئيس الحكومة الجديد معروفاً بروحه الوطنية وشجاعته وجرأته ، وكان قد أمضى فترة طويلة في السجن عام ١٩٢٥ على اثر اتهامه بالاشتراك في الاعتداء على السير لي ستاك سردار الجيش السوداني الذي اغتاله فريق من الشبان المصريين الارهابيين . وأخلي سبيله فيما بعد لفقدان أدلة تدينه بالاسهام في الاعتداء ، على الرغم من ان البوليس كان موقناً من انه بوصفه استاذاً في كلية التجارة قد درب فريقاً من الشبان على القاء القنابل في صحراء حلوان .

وكرئيس للحزب السعدي الذي انشق عن حزب الوفد ، كان احمد ماهر يدعي بأنه وحده الوريث الحقيقي الروحي للزعيم الوطني الكبير سعد زغلول . وكان رأيه السياسي انه من مصلحة مصر ان تلعب ورقة « الحلفاء » لتحصل منهم على الاستقلال التام الناجز عندما يخسر المحور الحرب نهائياً . ولذلك أعلن في شباط سنة ١٩٤٥ الحرب على المانية واليابان ، ولكنه في اليوم ذاته اغتيل في قاعة البرلمان . فخلفه في رئاسة الحكومة صديقه النقراشي ، من رفاق سعد زغلول ، الذي سجنه الانجليز فترة ما بتهمة الاشتراك في اعمال العنف والارهاب ضد الانجليز . ولم يكن اخلاصه وشجاعته ووطنيته وعفته موضع شك ؛ وما ان تسلم مهام رئاسة الوزراء حتى توجه الى السفارة البريطانية ليحدد موقفه ويذكر

اللورد كليرين بمطالب بلده : ولكن السفير البريطاني ما كاد يستقبله حتى صرفه قائلا : « ان قضية الجلاء عن مصر والسودان غير واردة في الوقت الحاضر .. »

كان من شأن هذا الموقف المتعجرف الذي وقفه ممثل الحكومة البريطانية ان أثار نقمة الاوساط الوطنية على بريطانية ، فذهب انور السادات لمقابلة جمال عبد الناصر وعرض عليه مخططاً للعمل الثاري ، تنسف بموجبه الشُعَبُ الشعبية التي يقودها ويشرف عليها السفارة البريطانية بمن فيها .

لقد أصغى جمال عبد الناصر بكل جوارحه الى مقترحات رفيقه ، ودرس المخطط في أدق تفاصيله .. ثم هزّ رأسه وأجاب : "كلا .."

كان يخشى ان يلجأ البريطانيون الى القوة كما فعلوا في الماضي عندما قضوا على الحركة الوطنية في عهد عرابي ؛ وتذكّر العقوبات التي فرضوها سنة ١٩٢٤ بعد اغتيال السير لي ستاك حاكم السودان العام ؛ ان أية محاولة ارهابية لا تستطيع وحدها ان تحرر مصر ، بل قد تؤدي الى مضاعفة السيطرة البريطانية على وادي النيل ؛

كان النقيب جمال عبد الناصر يعمل بطريقة أخرى لرفع نير الوصاية البريطانية عن وطنه . وقبل الدخول في المعركة يجب اعداد سلاح النصر ، أيْ يجب ايجاد واعداد الرجال الذين سيتسلمون الحكم يداً واحدة ويحققون المنهج الاصلاحي الوطني .

وهذه مقالة نشرتها مجلة « المصور » لخالد محي الدين تجسد لنا بوضوح الطريقة التي كان يلجأ اليها جمال عبد الناصر الاستاذ في الكلية الحربية ثم في كلية اركان الحرب ، لاختيار اعضاء المنظمة الثورية واحداً واحداً .

« في أواخر سنة ١٩٤٤ كنت أتنزه مع رفيق لي ضابط في شارع رمسيس ، وكنا كلانا أعضاء في منظمة سياسية سرية تأسست في الجيش

سنة ١٩٤٢

« وفجـأة قال لي زميلي :. اسمع يا خالد لدي موعد مع صديق ضابط ، انه عنصر طيب ، تعالَ معي لتراه بنفسك ، وانا متأكد انه سيحسن وفادتك ..

« من شارع رمسيس توجهنا الى شارع الجلالي ودخلنا احد الابنية وصعدنا الى الطابق الثالث ثم قرعنا البـاب ، ففتح لنا شاب فارع الطول وشدّ على يدي مسلماً ، وقدمه رفيقي لي قائلاً : النقيب جمال عبد الناصر ، الاستاذ في الكليه الحربية .

« قادنا جمال الى غرفة الطعام ، وجلس على طاولة كان عليهـا عدد من الكتب : وجلسنا نحن قبالته على كرسيين في الجهة المقابلة للطاولة. وابتسم اذ قال لنا بانه أحضر هذه الكتب كلها ليستعد لامتحان الدخول الى كليـة اركان الحرب .

« كنت اتفرس جيداً في هذا الشاب الذي لفت نظري جيداً . وقد اعجبني منه قدرته على فهم من يأتي لزيارته بسرعة فائقة . كان صوته هادئاً اخاذاً . وكان دائم الاستعداد للاجابة على اسئلتنا . ولكنني شعرت بأنه لا يفصح بكل ما يعلم ، كان يتكلم عن المنظمة السياسية السرية التي نحن اعضاء فيها كواحد من مؤسسيها .

« حاول ان يشركني في المناقشة ليعرف رأيي في ذلك . ولكنني فضلت ان ابقى صامتاً وتركته يتناقش مع رفيقي . وعند ذهابنا قال لي مبتسماً : اود ان اراك ثانية . وبعد مضي عدة اشهر عند الخروج من مباراة في الملاكمة بين فريق الجيش المصري وفريق الجيش البريطاني في ثكنة قصر النيل شعرت بيدٍ تربت كتفي ، فاستدرت فاذا بي وجهاً لوجه امام النقيب جمال عبد الناصر الذي قال لي : اود ان اراك في وقت قريب فلديّ كثير من المسائل ارغب في ان ابحثها معك . وتقابلنا مراراً بعد ذلك وتحققت من انه ذلك الرجل المعتد بنفسه الحريص على

كرامته الذي يقدّر كرامة الآخرين في الوقت نفسه » .

ان خالد محيي الدين يصغر جمال عبد الناصر باربع سنوات ، وهو ابن عم زكريا محيي الدين وزير الداخلية ورئيس الامن العام منذ فجر الثورة . فهو اذن في وضع يسمح له بان يكون مطلعاً على كيفية نشوء حركة الضباط الاحرار . وقد ارجع تاريخ تأسيسها الى سنة ١٩٤٢ ، خلافاً لما رواه انور السادات عن ميثاق منقباد سنة ١٩٣٨ ، اي الى الفترة التي قامت فيها القوات البريطانية بمداهمة قصر عابدين لفرض ارادة بريطانية على الملك الامر الذي ادى الى موجة من النقمة والاحتجاج بين صفوف الجيش المصري . وهذه الصدمةُ كما كتب جمال عبد الناصر من العلمين الى صديقه حسن النشار هي التي هزّت اعماق الضباط وجعلتهم يشعرون بان هناك كرامة وطنية يجب الدفاع عنها حتى لو كانت تتمثل في ملك غير شعبي متلوّن مستهتر .

ولا بدَّ من ان نلاحظ ان الحذر قد رافق تشكيل الخلايا الثورية في الجيش . وابلغُ دليل ان خالد محيي الدين لم يتعرف الى النقيب جمال عبد الناصر الاّ بعد مضي فترة من الوقت على انتسابه الى حركـة الضباط الاحرار .

وخلال الحديث فقط شعر خالد ان الاستاذ الشاب « يعرف كل شيء عن حركة الضباط الاحـرار » وحتى غداة الثورة كان القسمُ الاكبر من اعضاء الحركة يجهلون ان جمال عبد الناصر هو الذي نظّم واعدّ بصبر طويل ثورة ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢ :

وفي سنة ١٩٤٥ انتصر الحلفاء على المحور وانشئت جامعـةُ الدول العربية ودخلت مصر في هيئة الامم المتحدة . واقتصادياً كانت الحرب قد افادت البلاد وجعلتها اكثر تحرراً من التبعية الاجنبية بسبب نمو الحركة الصناعية ؛ وبفضل ما صرفته الجيوش الحليفة في وادي النيل خرجت مصر من الحرب وفي خزينتها فائض من النقد النادر يزيد عن المليـار

دولار ، على الرغم من هبوط ميزانها التجاري لصالح الواردات. ولكن كل ذلك كان مجمداً في بريطانيا :

في الحقل السياسي بذل النقراشي جهداً لتأكيد حق مصر في الاستقلال التام الناجز. وفي سنة ١٩٤٦ حلّ مكانه في رئاسة الحكومة اسماعيل صدقي الذي فشل في مفاوضاته مع بريطانيا . الاّ انه نجح في الدفاع عن المصالح الاقتصادية والتطوير الصناعي في البلاد .

وفي نهاية عام سنة ١٩٤٦ عاد النقراشي الى الحكم . وبعد فشله في اقناع بريطانيا بضرورة اعادة النظر في معاهدة سنة ١٩٣٦ وجلاء القوات البريطانية رفع في تموز سنة ١٩٤٧ النزاع الى مجلس الامن الدولي التابع للأمم المتحـدة ؛ فدرس المجلس الشكوى المصرية ، واستمع الى المرافعات الطويلة . ولكنه لم يتخذ قراراً في موضوع الشكوى، والنتيجة الحسية الوحيدة لكل المظاهرات الشعبية الصاخبة في المدن المصرية بالاضافة الى المعركة الدبلوماسية الطويلة كانت انسحاب القوات البريطانيـة من القاهرة والاسكندرية وتجمّعها في منطقة قناة السويس حيث بُنيت قاعدةٌ عسكرية ضخمة مع مطارات واسعة ومستودعات فسيحة تحت الارض للاسلحة والذخيرة .

ان فريق الضباط الوطنيين لم يكن آنئذ يعتقد بنزاهة الاهداف التي اعلن الحلفـاء بسببها الحرب ، لأنه رأى بريطانية وفرنسة تنصرفان في الشرق الاوسط الى خلق دول تحت الانتداب ، وممالك خاضعة للتوجيه الاجنبي . ولم يكن ذلك مطلقاً الاستقلال الذي ارادته مصر . والوطنيون المصريون لم يَعُدْ لهم ثقة ايضاً في وعود الولايات المتحدة الاميركية : لقد اجتمع في شباط سنة ١٩٤٥ الرئيس روزفلت عند عودته من يالطا على متن الطراد « كونيسي » في عرض البحر الاحمـر بملك مصر وامبراطور الحبشة وملك العربية السعودية عبد العزيز آل سعود ولكن ذلك لم يسفر عن شيء .

وتشرشل مع وزارة الخارجية البريطانية لم يتطلعا بعين الرضا الى هذه الانصالات الاميركية بملوك كانوا حتى ذلك الوقت في منطقة النفوذ البريطاني ، مع العلم بأن إحلال النفوذ الاميركي مكان النفوذ البريطاني لا يعد تقدماً في نظر الوطنيين المصريين او على الاصح هذا لا يعتبر تقدماً الا اذا استخدمت الولايات المتحدة لزحزحة النفوذ البريطاني ، ثم حيل دون خلق منطقة نفوذ اجنبي جديد . ان الوطنيين الشبان كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأن السلطة التي تعين وتقيل الحكومات على هواها لا تعمل مخلصة للحصول على الاستقلال التام . وكان الملك الشاب فاروق قد خسر السمعة الشعبية التي احرزها عند توليه العرش . وحادثة الرابع من شباط سنة ١٩٤٢ كانت وصمة عار في جبينه .

كان يناور ليكسب ود الاميركيين . وكان يعتمد على مساندتهم ومساندة القوات البريطانية المسلحة ، ليفرض سلطانه على الوطنيين المصريين انصار النظام الديمقراطي ويرغمهم على السكوت ، وكذلك الامر مع العناصر الشعبية التي تأثرت بالدعاوة الشيوعية .

اللجان الخمس للضباط الأحرار

يروي انور السادات في كتابه « ثورة على ضفاف النيل » ان جمال عبد الناصر نظم الحركة الثورية في نطاق خمس لجان ، هي مديرية الشؤون الاقتصادية ، مديرية فرق الهجوم ، لجنة الأمن ، لجنة الارهاب ، مديرية الدعاوة .

ولم تكن مديرية الشؤون الاقتصادية جهازاً مكلفاً بدراسة المشكلات الاقتصادية والمالية التي تهم الوطن ، لتحديد السياسة الواجب اتباعها في هذا الحقل بعد استلام الحكم ، بل كانت ابسط من ذلك بكثير . كانت كناية عن خزينة الحركة الثورية نفسها . كان يجب تأمين المال اللازم لإعالة اولئك الذين كانوا يصرفون القسم الأكبر من وقتهم في العمل السياسي الأمر الذي يمنعهم من تأمين معيشتهم ومعيشة عيالهم . وكان يلزم اموال لشراء اسلحة ، وتغذية حملة الدعاوة ، فعهد بهذه المهمة الى مديرية الشؤون الاقتصادية .

كان كل ضابط يدفع مبدئياً مرتب شهرين من معاشه الى الصندوق وبما ان كثيرين كانوا لا يملكون هذا المبلغ نقداً ، لذلك كانوا يستدينون من احد المصارف مقابل عمولة معينة ثم يستوفى هذا المبلغ على اقساط شهرية من مرتباتهم ، وبهذا الخصوص قال انور السادات :

« .. لقد نفذنا جميعاً ذلك بكل طيبة خاطر ، وعلى الاصح جميعنا ما عداي ، انا الذي كنت اعيل اسرة لا معيل لها سواي ولا مورد لها سوى مرتبي كنقيب ، الامر الذي حدا باللجنة ان تعفني من دفعه بقرار خاص . وكان للجنة الحق بمصادرة المبالغ اللازمة لشراء الاسلحة، وهكذا عندما علمت بأن عزيز المصري باع محصول بستانه من المنجه اسرعت المديرية الى مصادرة المبلغ الذي قبضه » .

وقادتني غرابة الصدف في مستهل عام ١٩٤٥ ان استأجر انا نفسي جناحاً قائماً في بستان عزيز المصري الذي كان رئيساً سابقاً لأركان الجيش المصري ، وكان آنذاك ملزماً بالاقامة الجبرية ، وقد تم الايجار عن طريق السيد فتحي رضوان المحامي والكاتب المعروف ، احد قادة الحزب الوطني الذي اصبح بعد ثورة ٢٣ تموز سنة ٥٢ وكيلاً لوزير الدولة ثم وزيراً للارشاد القومي . واذا كان محصول المنجه من بستان عزيز المصري قد استخدم عام ١٩٤٥ لتغذية صندوق الحركة الثورية ، فذلك لأنه بين الضباط الاحرار والحزب الوطني ومنظمة الشباب كانت تقوم علاقات وثيقة .

اذن لقد كان على الادارة الاقتصادية ان تجمع المال ، وتؤمن عصب الحرب. اما مديرية فرق الهجوم فكان عليها ان تجمع المقاتلين وتنظم الخلايا في صفوف الجيش ، والتشكيلات شبه العسكرية بين الطلاب والعمال . وكان على رأس كل فرقة من فرق الهجوم الشعبية ضابط يقودها ويؤمن الاتصال بينها وبين قيادة الحركة .

وكان يجري اختيار المنضمين الى الخلايا العسكرية بعد امتحان دقيق فردي . وهؤلاء كانوا يُنتقون من جميع انواع الاسلحة . وكل عشرين خلية كانت تشكل فرقة هجوم .

وتدريب الفرق الشعبية شبه العسكرية ، يجعل حركة الضباط على اتصال بمنظمة الشبيبة الوطنية التي كان يديرها عبد العزيز علي ، احد

ابطال ثورة سنة ١٩١٩ . ويقول انور السادات عن هذا المناضل :

« لقد وضع تحت تصرفنا الجهاز السري ، وفرق الهجوم في منظمته التي شكلها قبل احداث سنة ١٩١٩ . ومساهمته الفعالة كانت ثمينة جداً بالنسبة الينا » .

وبالاضافة الى ذلك كله كانت مديرية فرق الهجوم تسجل ازدياد الامكانيات ونقصها . وجمال عبد الناصر ؛ وعبد الحكيم عامر ، وحدهما كانا يعرفان بالضبط عدد المنتسبين واسماءهم .

اما لجنة الأمن فكانت تراقب الأعضاء ، لتتأكد من سلامة منطقهم الثوري . وكانت تسهر على التنفيذ الدقيق للاوامر ، وكان لها سلطة القبول والطرد . وكانت مقرراتها الهامة تُعرض على اللجنة الاداريـة العليا ، لقد كانت جهاز استخبارات ، في الحركة السريـة ، كانت تحدد كلمات المرور ، وتغير من وقت لآخر امكنة الاجتماعات .

وبخصوص لجنة الارهاب من العسير تحديد الدور الذي لعبته ، وأنور السادات الذي يذكرها بين لجان الجهاز الاداري الذي نظمه جمال عبد الناصر يصرح بدوره ان حركة الضباط الاحرار كانت ضد اللجوء الى الارهاب كوسيلة للعمل . والاعتداءات والاغتيالات السياسية التي كان اللجوء اليها شائعاً في القرن التاسع عشر في المنظمات الثورية للتأثير على الجماهير تحمل خطر احيـاء التعصب الطائفي ، وورد في « ثورة على ضفاف النيل » بالحرف الواحد .

« .. ان نزعة العنف سيئة العاقبة ، بالنسبة للشرقيين ذوي الـدم الحار ، لأنها تفك اخس الغرائز من عقالها وتؤدي الى احط درجات الفساد الخلقي باسم مبدأ زائف . »

« لقد رأينا في مصر ، الى اي ضلال اجرامي قادت هذه النزعة الاخوان المسلمين » .

من الممكن ارضاء واشباع الشبيبة ونزعاتها وتحريك عواطفها ومشاعرها

دون افساح المجال حراً امام غضبات الغرائز والهبوط بالحماسات الى الدرك الاسفل .

« ولا يمكن للعنف ان يكون غاية في ذاته ، ولذلك لم نضعه في خدمة فكرتنا . ولم نعتبر ابداً تكتيك العنف والارهاب ضرورة لنا . ولو بصورة موقتة لاستلام الحكم . وفي كتاب فلسفة الثورة يروي الزعيم جمال عبد الناصر كيف انه في فتوته اشترك في اعتداء على شخصية سياسية موصومة بالخيانة ، وكيف انه قضى الليل يقاسي عذاب الضمير حتى كان الصباح واستراح بعد ان قرأ الصحف وعلم ان الرجل نجا من الرصاص . ان الشعب المصري شعب انساني يكره العنف » .

ويضيف أنور السادات انه في سنتي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ تألف في الجيش فريق ارهابي يضم ثلاثة وعشرين ضابطاً يتزعمه النقيب مصطفى كامل صدقي ، وقد اغتال هذا الفريق بوحي من تعصب الاخوان المسلمين اللواء ابراهيم عطاالله ، ثم أمين عثمان الذي كان وزيراً للمالية في وزارة مصطفى النحاس ، ومن أشد انصار التحالف مع بريطانية حماسة . ولما اعتقل احد المتهمين بالحادث الطالب حسين توفيق أعطى للبوليس لائحة تضم كثيراً من الاسماء بينها اسم أنور السادات الذي سجن واحداً وثلاثين شهراً على الرغم من اصراره وانكاره انه لم يكن له اي علاقة بذلك الفريق الارهابي . وتعليقاً على ذلك كتب السادات يقول :

« لقد شجبنا هذه الاغتيالات ، ليس لاننا كنا نشعر بميل او عطف على الضحايا التي كانت ضئيلة الاهمية في نظرنا ، بل لأن الاعمال غير الموزونة لا تتفق مع مبادئنا » . ويؤكد ان الاعتداء الوحيد الذي قام به اعضاء حركة الضباط الاحرار كان الحادث الهزلي الذي حصل في أحد ايام الجمع عند الخروج من جامع الرفاعي اذ قذف ملازم شاب من حرس الحدود مصطفى النحاس لدى خروجه بعد صلاة الجمعة بحذاء بال .

تزوير هناك حادثة ارهابية قام بها عبد الناصر مع اثنين من الاحرار لقتل زعيم سياسي ومات سائقه..
(شهادة كمال الدين حسين)

والجدير بالذكر ان الحذاء لم يصب النحاس بالذات بل اصاب وجه وزير الاوقاف وظن الجميع ان في الحذاء قنبلة وحصلت ضجة كبرى . تلك كانت الجريمة السياسية الوحيدة التي اثقلت ضمائر الضباط الاحرار .

فماذا كان اذن دور لجنة الارهاب في حركة الضباط الاحرار ؟.. وماذا كان الاعضاء يفعلون بالاسلحة والذخائر التي كانت تشترى أو تُصنع بالأموال المجموعة بواسطة المديرية الاقتصادية المالية ؟.. ان أنور السادات يجيب على ذلك بنفسه :

« .. لقد أتاحت لنا الاموال المجموعة ان نقيم مصنعاً صغيراً سرياً لصنع المسدسات والقنابل المسماة – كوكتيل مولوتوف – وكنا في حاجة الى كمية كبيرة من القناني لصنع هذه القذائف ، وقد حصلنا على عشرات الالوف منها من أحد تجار الجملة في شارع كلوت بك . وبعد فترة وجيزة من الوقت اصبح المصنع مستودعاً حقيقياً للاسلحة . »

بقي اذن اللجنة الخامسة في الحركة ، وهي مديرية الدعاوة . ان أنور السادات لا يُعطي الا بعض التفصيلات عن تنظيم هذا الجهاز . والدعاوة داخل الجيش كانت تتم من ضابط الى ضابط دون ان يهتم كما يظهر باقناع الجنود لانه من الامور المسلم بها ان الجنود ساعة الصفر سينفذون أوامر ضباطهم : وكان خطراً عظيماً ان يرى الجندي ويسمع وهو يقوم بمهمة التثقيف الوطني :

ثم ، علاوة على ذلك كان جمال عبد الناصر ومساعدوه الاقربون ضباطاً في أركان الحرب واساتذة أو مدربين في الكلية الحربية أو في كلية أركان الحرب : ولم يكن لهم اتصالات متكررة بجنود الصف وقد جرى جهد كبير للتأثير على الجماهير ، وتأليب المشاعر الشعبية ضد بريطانية . كان الضباط يتحدثون افرادياً لرجل الشارع ويتكلمون على

المشكلات السياسية في المقاهي والمساجد حتى في القاطرات الكهربائية . وكانوا يستغلون الاحداث للاحتجاج ضد الوجود البريطاني في مصر والمطالبة بالاستقلال التام .

وبعد حرب فلسطين كان جمال عبد الناصر وخالد محيي الدين هما اللذان يدبجان منشورات الضباط الاحرار المشهورة التي تحتوي الانتقادات النارية لاحداث الساعة السياسية الموجهة ضد العدو الخارجي المتمثل بالمستعمر البريطاني ، وضد العدو الداخلي المتمثل بالساسة الانتهازيين الوصوليين الذين يستخدمهم الاجنبي لتنفيذ مآربه ، ثم المستغلين الذين ينهبون خيرات البلاد .

والضابط حمدي عبيد هو الذي كان يخفي في دارته عند كوبري القبه ، جهاز رونيو الذي استخدم لطبع مئات النسخ من المنشورات التي كان ضباط اللجنة التنفيذية بانفسهم يسلمونها الى وسطاء امناء او يضعونها في صناديق بريد معينة .

ان الوصف الذي يعطينا اياه أنور السادات عن الجهاز الاداري الثوري الذي نظمه جمال عبد الناصر أقرب الى التصميم ، ويبدو واضحاً ان الخيوط كانت تنتهي كلها في يد النقيب الشاب .

والادارة الاقتصادية ، أي خزانة الحركة ، كانت امكانياتها المالية ضيقة الى درجة انه لم يكن يسمح بصرف أي مبلغ دون موافقة جمال عبد الناصر . وبعد مقابلة صحفية مع رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، نشر الصحفي الالماني - الامريكي ، جواشيم جوستن في جريدة باري برس في ٢١ شباط سنة ١٩٥٩ مقالة يروي فيها ان الفتاة الايرانية التي تزوج منها جمال عبد الناصر سنة ١٩٤٤ كانت غنية ، وان ثروتها هي التي مولت الثورة المصرية في سنواتها الاولى . ومن ناحية ثانية عندما بدأ في سنة ١٩٤٩ تدبيج المنشورات الاولى التي ستصبح عام ١٩٥٠ - صوت الضباط الاحرار - منشور الحركة الثورية ، كانوا يطبعون على « الستنسل »

نصاً مكتوباً باليد . وكان ينبغي اجراء اكتتاب مساهم لشراء جهاز – رونيو – الذي وضع في دارة النقيب حمدي عبيد ، كما يروي في « المصور » الزعيم كمال الدين حسين . وهو أبلغ دليل على ان الامكانات المالية كانت محدودة يجب الا تصرف الا على ما هو ضروري لازم ...

أما الادارة الثانية أي ادارة « فرق الهجوم » فان أنور السادات نفسه يقول ان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وحدهما كانا يعرفان كل شيء عنها ، وعن المنضمين اليها .

والادارة الثالثة لجنة الأمن سُلمت منذ البدء الى زكريا محيي الدين الذي أصبح وزيراً للداخلية في حكومة الثورة . وهنا ايضاً كانت مفاتيح جهاز المراقبة كلها في يد جمال عبد الناصر دون ان يكون أكثر الضباط الاعضاء في الخلايا على علم بذلك .

ولجنة الارهاب بصورة خاصة كانت لا تجرؤ على القيام بأي عمل دون موافقة ذلك القائد الملهم الذي كان دون ان يظهر يوجه اعمال حركة التحرر ، وعندما كان أنور السادات يلتهب حماسة لنسف السفارة البريطانية بمن فيها ، وعندما اقترح صلاح سالم بان يقوم الأركان الاثنا عشر الرئيسيون كل واحد باغتيال احدى الشخصيات التي تعيث بالبلاد فساداً ، كان جمال عبد الناصر برزانته وهدوئه وبعد نظره السياسي هو الذي حال دون انقلاب حركة الضباط الاحرار الى منظمة ارهابية تخرب أكثر مما تعمر :

ان الفريق الثوري الذي كان يتزعمه النقيب مصطفى صدقي ، الزوج الرابع للراقصة تحية كاريوكا ، كان اقل حذراً . وكان جمال عبد الناصر حكيماً عندما اهمل العروض التي تقدم بها اولئك الذين كانوا يرغبون في دمج الحركتين . وقد رأينا انور السادات يسجن ثلاث سنوات بسبب تهوره وتساهله مع هذه العناصر المشبوهة . وكان في النهاية ان انضم النقيب صدقي ورفاقه الى الجهاز السري التابع للملك فاروق

ليصبحوا الحرس الحديدي لصاحب الجلالة . بعد ان بدأوا سلسلة اعتداءاتهم على اولئك الذين كان الملك يعتبرهم اعداءه شخصياً ، كالاخوان المسلمين، والساسة المعادين للملكية ، او الافراد الذين يخشى ثأرهم .

ويقال ان النقيب عبد القادر طه ، الذي كان صديقاً لعـدد من الضباط الاحرار ، قـد قتل حسب الشائعات المتواترة ، على يد اللواء سري عامر ؛ الرجل الذي كان موضع ثقة فاروق .

وبفضل نفوذ جمال عبد الناصر ارتفع عدد الضباط الاحرار سنة ١٩٤٧ دون ان تتهاون الحركة أو تحيد عن هدفها بتأثير نفوذ الاخوان المسلمين والعناصر المشبوهة التي أصبحت أداة في يد الملك .

ويقول انور السادات :

« .. كنا نجتمع عادة في بيت المقدم خالد محيي الدين بشارع باب الخلق في الحلمية ، وأحياناً في بيت كمال الدين حسين في السيدة زينب ، أو عند جمال عبد الناصر في البيت الذي كان يسكنه عند ملتقى شارع الملك بشارع الملكة نازلي . وقد اجتمعنا عند الزعيم عثمان نوري رئيس المكتب الثاني حالياً في الشقة التي كان يشغلها في ضاحية هليوبوليس . وأحياناً أيضاً في دارة (حسين حموده) في المنشية الكبرى . وكنا نرى دائماً في هذه الاجتماعات السرية ، عبد الحكيم عامر وعبد المجيد فؤاد وطلعت خيري وعبد المنعم عبد الرؤوف ... » — (انور السادات : ثورة على النيل) .

ولتضليـل عيون البوليس السياسي ، كانوا يجتمعون تحت ستارات مختلفة ، كأن ينظّموا مثلاً جلسات روحانية في بيت النقيب عبد الحكيم عامر ، القائد العام للقوات المسلحة حالياً .

وشيئاً فشيئاً مدّت الحركة جذورها الى مختلف الوحدات ، وشاع في الجيش المصري خبر وجود منظمة للضباط تعـد ثورة ضد قوى

الاحتلال ، وضد المصريين الذين كانوا يتعاونون مع الانجليز . ولكن كل خلية من الخلايا لم تكن على اتصال إلا بواحد فقط من اعضاء اللجنة التنفيذية ، وكانت تجهل كل شيء عن كيفية تأليف هذه اللجنة :

وعندما جاءت احداث فلسطين كان لا بد من ان يتوقف موقتاً العمل التنظيمي لحركة الضباط الاحرار ، لتنطلق بعد ذلك بقوة أكثر ..

الدليل على [illegible] جمال —

أن حسين صبري إعتقل بعد نجاح الثورة وأنه هو كان

المسؤول عن كبار القادة في عين أبناء حسين

في الكلية الحربية .. اعتقله عبد الناصر لأن حسين

كان من الضباط وأنه جمال — كان

أن حسين يتآمر عليه وذلك لقلب نظام الحكم

هكذا كان جمال .. شكاكاً .. حقوداً .. منتقماً

من كل من يتوهم أنه يدبر أي حركة مضادة ضده

والدليل أن الملهم كان يحمي نفسه (وهو معبود الشعب)

كما صرح حرس الوطن برئاسة الجمهورية ب

(٧٠ - ٨٠ دبابة) !!

اغتصاب اليهود لفلسطين وطرد السكان العرب

منذ حدوث المظاهرات العدائية ضد اليهود في رومانيا سنة ١٨٦٦ ، وفي روسيا ١٨٨٣ ، حتى تصريح بلفور الثاني سنة ١٩١٧ ، هاجر ما يقرب من خمسين الف يهودي الى فلسطين .

وهذه الهجرة كانت عملاً فردياً أو عائلياً لجماعات مضطهدة ، كان يجذبها الى فلسطين سراب ارض الميعاد . وقد قدموا الى هذه المقاطعة التركية الهادئة ، التي كانت فيما مضى بلاد كنعان لانتظار ظهور السيد المسيح . جاؤوا اليها كما جاء جماعات من الفلاحين الألمان يحملون ذكريات الكتاب المقدس ، وأسسوا فيها مستعمرتين زراعيتين مزدهرتين قرب حيفا . وهؤلاء المهاجرون الهيكليون الالمان كانوا على أحسن ما يرام مع السكان العرب . إذ كانوا عمالاً صبورين ، يربحون عيشهم بعرق جبينهم ، ويشغّلون العمال العرب في مزارعهم .

واليهود المحليون كانوا يتلقون المساعدات المالية من يهود اوروبة واميركة ليعيشوا على الصدقات الخارجية ومن الاعمال التجارية البسيطة : كانوا مورداً للعرب ولم يكونوا عبئاً عليهم . وهم لم يغتصبوا شيئاً لاحد .

ولما بدأ اليهود يشترون الاراضي لم يشعر العرب ، عرب فلسطين ، بالخطر الكامن الذي يهدد مصيرهم . لذلك اغتبط أصحاب العقارات لحصولهم على أثمان باهظة لأراضيهم التي لا تعطي إلا النزر القليل . وكانت فلسطين قليلة السكان ، وفلاحوها يعملون في الارض بوسائلهم البدائية . وكان من السهل جداً ان تستوعب عدداً أكبر من السكان ، اذا ما ازدادت المحصولات الزراعية ، وأصلحت الاراضي الجدباء .

ولكن بعد تصريح تيودور هرزل عن الدولة اليهودية ، وبعد مؤتمر بال الصهيوني سنة ١٨٩٧ ، وبعد رسالة الاورد بلفور للورد روتشيلد التي تضمنت وعداً بريطانياً باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وبعد تأسيس الوكالة اليهودية سنة ١٩٢٩ أخذت الصهيونية شكلاً استعمارياً .

بموجب احصاء سنة ١٩٢٢ لم يكن في فلسطين سوى ٨٣،٧٩٤ يهودي من أصل ٧٥٧،١٨٢ نسمة هم سكان البلاد .

وفي سنة ١٩٣٤ أصبح عدد اليهود ٢٤٥،٠٠٠ وعدد العرب بين مسلمين ومسيحين ٩٠٦،٠٠٠ نسمة ، أي ان النسبة ارتفعت من ١١ الى ٢١ من عموم السكان ، وبدأ العرب يشعرون بالخطر ويقلقون ..

وفي عام ١٩٣٦ حصلت اضطرابات عنيفة استمرت سنتين . وبمساعدة الجيش العربي الاردني استطاع الانجليز ان يُعيدوا الأمن الى نصابه . وفي هذه الازمة نفي اعضاء الهيئة العربية العليا الى جزيرة سيشل ، والمفتي الأكبر الحاج امين الحسيني هرب الى مصر .

وقد حاولت بريطانية من ناحية أخرى بوصفها دولة منتدبة على فلسطين من قبل جامعة الامم ، حاولت ان تحدد الهجرة اليهودية لتخفف من حدة التوتر بين العرب واليهود ، ولكن البريطانيين لم ينجحوا إلا في كسب عداء الفريقين على السواء . وبدأت الهجرة السرية ، عن

طريق التهريب تتسع لتضاعف عشرات المرات العدد الرسمي الذي كانت تسمح به السلطات البريطانية .

هذا وقد أعطى عداء النازية للسامية الصهيونية سلاحاً قوياً ، فأخذ اليهود كشعب مضطهد منكل به في البلدان المسيحية يتهافتون على الهجرة الى البلد المسلم الخاضع للانتداب البريطاني حيث كانوا يجدون موطناً وأمناً نسبياً .

وفي عام ١٩٤٥ حاولت بريطانية ان تمنع الهجرة نهائياً ، ولكن الرئيس ترومان في مؤتمر لندن سنة ١٩٤٦ أيد النظرية الصهيونية القائلة بأن فلسطين يجب ان تبقى مفتوحة لاستقبال المهاجرين اليهود .

وعلى الأثر تعددت الاشتباكات بين العرب واليهود ، وفشلت الدولة المنتدبة في السيطرة على الموقف ، واعادة الامن الى نصابه ، واتهمت بالتحيز من قبل الفريقين . فأخذت الدوريات من الدبابات المصفحة تجوب فلسطين ، وأصبحت مراكز البوليس استحكامات حربية . ومن أصل موازنة بلغت ٢٤ مليون ليرة استرلينية خصص الثلث ، أي ثمانية ملايين للمحافظة على الأمن . وبذلت الدولة المنتدبة جهدها عبثاً كي تراقب بيع الاسلحة والذخائر .. ومع ذلك كان العرب واليهود يتلقونها من البر والبحر .

وفي الجمعية العامة التابعة لهيئة الامم المتحدة في نيسان سنة ١٩٤٧ وقف مندوب سورية الاستاذ فارس الخوري يدافع ببلاغة ضد إقامة دولة اسرائيلية في بلد اكثر سكانه من العرب . فأرسلت الجمعية الى فلسطين لجنة للتحقيق تضم مندوبين عن عدد من دول متوسطة وصغيرة واستثني منها الاربعة الكبار .

وعقدت هذه اللجنة جلساتها في القدس ، وتوصلت الى ان المشكلة اليهودية برمتها لا يمكن ان تجد لها حلاً في فلسطين . وقدمت في حزيران تقريرين الى هيئة الامم المتحدة .

« الاول ، وهو تقرير الاكثرية ، يدعو الى تقسيم فلسطين الى دولتين ، الاولى عربية والثانية يهودية على ان يقوم بينهما اتحاد اقتصادي وتترك القدس مع منطقة صغيرة حولها تضم بيت لحم لتحكمهـا سلطة دولية .

« والثاني ، هو تقرير الاقلية ، يدعو الى اقامة اتحاد فدرالي عاصمته القدس .

في تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ وافقت الجمعية العموميـة على تقرير الاكثرية ؛ واصبح تقسيم فلسطين امراً حتمياً واعلنت بريطانية انهاء الانتداب في ١٥ ايار سنة ١٩٤٨ .

كان هذا القرار موضع نقد شديد اذ انه خلق حدوداً معقدة غير منطقية . لقـد اعطى لليهود الاراضي الخصبة على ساحل المتوسط من ريحوفوت الى حيفا مع منطقة صفد وطبريا ، وفي الجنوب القسم الاكبر من النقب حتى البحر الاحمر ؛ وترك في القسم العربي القسم الداخلي الجبلي في قلب البلاد من جنين حتى جنوبي حبرون ومنطقة غزة والقسم الشمالي الغربي من النقب حول العوجا .

لقد اثار تقسيم فلسطين بهذه الصورة احتجاجات الهيئة العربية العليا في القدس هذه الهيئة التي تمثل السكان العرب من مسلمين ومسيحيين . وفي القاهرة قررت جامعة الدول العربية ان تقاوم تنفيذ مشروع التقسيم هذا ولو اقتضى ذلك استخدام القوة .

واليهود مع انتقادهم لمشروع التقسيم اعتبروا قرار هيئة الامم المتحدة مرحلة هامة من اجل انشاء دولة اسرائيل . ولكن بالاضافة الى الوكالة اليهودية والفرق العسكرية النظاميـة التي تتبعها ـ الهاغانا ـ كان هناك منظمات ارهابية متطرفة كالارغون واسترن وهذه كانت تطالب بكل فلسطين ولم تقبل مطلقاً بتدويل القدس .

من حزيران سنة ١٩٤٧ الى كانون الثـاني سنة ١٩٤٨ تضاعفت

اعمال الارهاب من الجانبين العربي واليهودي ، وفي تشرين الاول سنة ١٩٤٧ احتج مدير الجامعة العبرية في القدس نفسه الدكتور جودوك ماغنيس على اعمال العنف التي لجأت اليها المنظمات الارهابية المتطرفة . وبين كانون الاول سنة ١٩٤٧ ، وكانون الثاني سنة ١٩٤٨ بلغ عدد ضحايا الارهاب الف ومئة وخمسين قتيلاً وعشرين الف جريح من العرب واليهود ، كما ذكرت التقارير الرسمية . والمرجّح ان العدد الحقيقي اعلى من ذلك بكثير ؛ لان كل فريق كان يبذل جهده لاخفاء امور ضحاياه كي لا يلفت نظر الحكومة فتعاقبه .

وعلى الرغم من الاضطرابات استمرت الهجرة بنسبة مرتفعة ، ففي اوائل سنة ١٩٤٨ كان عدد سكان فلسطين قد ارتفع الى ١،٨٥٠،٠٠٠ نسمة منهـا ١،١٥٠،٠٠٠ عربي مسلم و٥٠،٠٠٠ عربي مسيحي و٦٥٠،٠٠٠ يهودي .

وهكذا يكون عدد سكان فلسطين قد تضاعف منذ احصاء سنـة ١٩٢٢ ، ولكن نسبة زيادة السكان العرب كانت ٣٢٪ اذ ارتفع عددهم من ٩٦٠،٠٠٠ الى ١،٢٠٠،٠٠٠ بينما ازداد عدد اليهود الذي لم يكن سوى ٨٤،٠٠٠ نسمة ثمانية اضعاف تقريباً في الوقت الذي قررت هيئة الامم المتحدة فيه تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية .

ان اسكان ١،٨٥٠،٠٠٠ نسمة في فلسطين ثلثاهم من العرب والثلث الباقي من اليهود ، كان مشكلة عويصة . ولكنه لم يكن مستحيل الحل. ولو ان الدول الكبرى التي تسيطر على هيئة الامم المتحـدة ، تحملت مسؤولياتها لاستطاعت ان تفرض حلاً معقولاً ، ولكان من الممكن آنئذ ان تجد متطوعين مخلصين لتأمين السلام في الديار المقدسة .

ولسوء الحظ اتخذت مقررات متضاربة فى هيئة الامم . ولم يعمـل شيء لتأمين تنفيذها . كان كل عضو يتهرب من تحمل مسؤولياته . وانجلترة لم تفكر الا في تأمين جلاء جيوشها من فلسطين في الوقت الذي

ازدادت المعارك عنفاً فيه بين اليهود والعرب ، وارتدت الوطنية طابع التعصب :

لقد حصّن الصهاينة مستعمراتهم الزراعية ودربوا شبابهم على استعمال السلاح . والعرب من جهتهم هم الآخرين حشدوا المتطوعين. وفي السادس من آذار اجتاز قائدهم فوزي القاوقجي الاردن على رأس فوج مدرع . ان الانجليز يعرفــون جيداً القائد العربي فهو ضابط سابق في الجيش التركي ، ومن ثم في الجيش الفرنسي في سورية . وقد وضعوا جائزة ثمناً لرأسه لانهم كانوا لا يجهلون ابداً مدى عدائه لسياستهم ، ولكنهم مع ذلك تركوه يمـر مع جيشه على جسر اللنبي الذي كانت تحرسه كتيبة بريطانية مدرعة :

وهذا يعني ان الدولة المنتدبة قد رفضت قبل انتهاء مدة انتدابها ان تؤمّن التزاماتها وتفرض السلام .

وفي ١١ آذار نسف بناء الوكالة اليهودية في القدس وكان ذلك على يد السائق العربي الكهل في القنصلية الاميركية وهو معروف من الجميع بصداقته لليهود . ومع ذلك ادخل الى باحة بناء الوكالة سيارته المملوءة متفجرات .

وفي الثالث من نيسان كتبت الهيئة العربية العليا التي يرئسها الدكتور خالدي الى مندوب اللجنة الدولية للصليب الاحمر لتتعهد باحترام اتفاقيات جنيف بشأن معاملة الجرحى والاسرى المدنيين من قبل القوات المسلحة العربية ؛ واخذت جامعة الدول العربية على عاتقها التعهد نفسه باسم الحكومات الاعضاء .

وفي الخامس من نيسان وقعت غولدا ماير وبن زفي نفس الاتفاق باسم الوكالة اليهودية . ولكن في الوقت الذي كان الجميع يأملون في تخفيف النزاع حدة وقساوة لحصره في نطاق العمليات العسكرية لحماية السكان العرب واليهود معاً ، ازدادت خطورةُ الاحداث بسبب ما

قام به الارهابيون اليهود اعضاء منظمتي أرغون زفي ليومي وسترن .

ففي الثالث من نيسان داهم اعضاء منظمة أرغون ، وهم مسلحون بالرشاشات والحراب قرية دير ياسين الصغيرة القريبة من القدس التي كان سكانها الاربعمائة العزل يعيشون في وئام مع جيرانهم اليهود . وتلقى الاهلون من مكبرات الصوت الاوامر بوجوب اخلاء المنازل في غضون ساعة فتقدم البعض منهم وهربوا في اتجاه الخطوط الدفاعية العربية .

وأما الباقون من الاهلين فقد ذبحهم اليهود فرداً فرداً رجالاً ونساءً واطفالاً .

وفي اليوم التالي تمكن جاك دي رينيه المندوب السويسري في اللجنة الدولية للصليب الاحمر من دخول القرية ، فلم يجد احياء فيها سوى امرأتين وطفلة ، والباقون جميعاً حسب تقريره كان قد قضى عليهم ، وكتب رينيه أثر ذلك ما يلي :

« .. لقد تركت مذبحة دير ياسين هذه رد فعل كبير ؛ فقد نشرت الاذاعات والصحف في كل مكان في الاوساط العربية وفي الاوساط اليهودية على السواء ، وهكذا نشأ في الجانب العربي خوف وهلع عامان . ان اليهود يعرفون بلباقة كيف يدبرون أمور بقائهم . ومن الجانبين استغل هذا الحادث سياسياً . وكانت النتائج مؤسفة جداً وكلها قساوة . لقد ترك السكان العرب بسبب الخوف بيوتهم ولجأوا الى الاقطار العربية المجاورة ، وهكذا اخليت المزارع النائية ، ثم القرى وأخيراً المدن . واصبح أكثر من سبعمائة الف عربي فلسطيني لاجئين . وقد تركوا كل شيء في سبيل أمر واحد هو الخلاص من مصير يشبه ما آل اليه اهالي دير ياسين . ونتائج هذه المذبحة لم تنته بعد لان هذا السيل العرم من اللاجئين ما زال يعيش حتى اليوم في المخيمات بدون عمل ، وبدون امل ، على ما توزعه عليه هيئة الاغاثة الدولية بواسطة الصليب الاحمر من معونات . »

في الثالث والعشرين من نيسان استولى الصهاينة على ميناء حيفا :
ويقول رينيه « .. كان السكان العرب واليهود يعيشون هناك في تفاهم تام ، ورئيس البلدية الذي بقي في مركزه عشرين سنة كان يهودياً . ولكن الجميع كانوا يقدرونه ويحترمونه . وكانت حيفا تضرب مثلاً على امكانية التعايش المثمر بين العرب واليهود . ومشروع الأمم المتحدة كان يرمي الى تدويل هذه المدينة ، لذلك داهم الارهابيون الصهاينة الاحياء العربية دون سابق انذار وسلطوا نيرانهم من مختلف انواع الاسلحة وراحوا ينسفون المنازل على ساكنيها ، فهرب العرب لا يلوون على شيء والسلطات اليهودية التي نددت بهذا العمل علناً قد استغلت الامر الواقع ونسفت ما تبقى من المنازل العربية حتى لا يعود اليها سكانها ، ووضعت ايديها على تلك الاحياء .

وفي اليوم التاسع والعشرين من نيسان هرب اكثر سكان يافا المدينة العربية الواقعة على أبواب تل أبيب لمجرد مهاجمة العصابات الصهيونية لبعض ضواحي المدينة . وهكذا أضيف ثلاثون الف لاجىء على السيل المتدفق الى الخارج في طريق الخلاص .

في ذلك اليوم توجه جاك رينيه مندوب اللجنة الدولية للصليب الاحمر من القدس الى تل ابيب ليقيم فيها فرعاً للجنة وكان على طريق القدس - اللد ، انصار فوزي القاوقجي وبعض الجنود الاردنيين ومعهم بعض العراقيين . كانوا يتولون الحراسة مستعدين للتدخل لحماية السكان العرب وهناك كان عدد من المستعمرات اليهودية بجاور الطريق ايضاً ، وسكانها جميعاً كانوا مدججين بالاسلحة ، كتب رينيه يصف ما شاهده :

« .. على مسافة بضعة كيلومترات من تل أبيب وجدنا الطريق مكتظة بسيل طويل من الاهالي العرب من كل الطبقات ، يدفعون حميرهم أمامهم ، او يحملون أمتعتهم الضرورية على رؤوسهم ، انهم هاربون من يافا . لقد تركوا مدينتهم للنجاة بارواحهم ، وشكلوا على الطريق

هذا المد الذي لا نهاية له . وهذه الهجرة التي تمت في ظل أرهاب وهلع لا مثيل لهما كانت تشبه الى حد بعيد قطيعاً يائساً محزناً يقاد الى المسلخ .

« وكانت القوات الصهيونية المصطفة على طول الطريق تكتفي بمواكبة هذا السيل والاستيلاء على الثروات المختلفة القيمة التي كان هؤلاء البائسون يضطرون الى رميها بسبب ما لحقهم من التعب والانهاك . كان سكون الموت يخيم على هذا المشهد الذي يتوالى في منطقة رائعة وسط بساتين الليمون التي ملأ عبيرها الجو في يوم من ايام الربيع المشرقة الجميلة .

« وبدت الطبيعة نفسها كأنها غير مكترثة بمصير هذه الانسانية التي رفضت الهبات الالهية لتنصرف الى الاهتمام بشؤون الحرب والحقد . »

لا طائل من سرد وقائع اخرى مما فعلته المنظمات الارهابية ، فقد بدأت هذه حتى قبل انتهاء الانتداب البريطاني في زرع الخوف والرعب في البلاد لتدفع السكان العرب الى ترك ديارهم وافساح المجال للقادمين الصهاينة الجدد .

وفي القدس في النصف الاول من شهر ايار بدأت اللجنة الدولية للصليب الاحمر في مفاوضة العرب واليهود بشأن اقامة مناطق امينة عزلاء من السلاح لمنع اصطدام العرب واليهود في المدينة المقدسة عند جلاء الانجليز المقرر في الرابع عشر من أيار (الدولة المنتدبة تركت الخصمين وجهاً لوجه ، لان الامم المتحدة لم تعين الكونت برنادوت الا في ٢٠ ايار)

وفي الوقت الذي حرص الجيش العربي الاردني والهاغانا على المحافظة على الامن في المدينة لجأت المنظمتان الارهابيتان الصهيونيتان سترن وارغون الى اعمال العنف والارهاب في القطاع الشمالي من المدينة ، واضطر العرب الى اجابتهم بالمثل . وفي مساء الخامس عشر من ايار بدأت المعركة الفعلية الضارية التي استمرت حتى الحادي عشر من حزيران يوم اعلنت الهدنة الاولى بموافقة الطرفين لمدة شهر فقط .

واذا كانت الجيوش العربية في ليل ١٤ ـ ١٥ أيار قد دخلت فلسطين

فمن الحق الاعتراف بان السكان الفلسطينيين العرب كانوا قد بدأوا يتعرضون منذ عدة ايام الى اقصى صنوف الارهاب الى درجة حملتهم على ترك كل شيء والنجاة بأرواحهم في الوقت الذي سارعت فيه بريطانيا بالتخلي عن مسؤولياتها .

وكيف يمكننا نفسياً ان نفسر موقف هذه المنظمات الصهيونية الارهابية المتطرفة ؟

كيف فشلت الهاغانا التي كانت تضم ثمانين الف جندي بين رجال ونساء في ان تفرض ارادتها وسيطرتها على الارغون التي لم تكن تضم سوى خمسة آلاف ، وعصابة السترن التي لم يزد افرادها على الف فقط ؟ كيف عجزت عن ان تمنعها من ارتكاب اعمال العنف والارهاب التي لا يستطيع أحد حتى ولا بن غوريون ووايزمان وشاريت ان يقرها ؟

لقد رأى اليهود ابناء دينهم واخوانهم يموتون بالملايين في المانيا وبولونيا وهنغاريا ، كانوا يبحثون يائسين عن وطن لهم ولاولادهم ، وكانوا قد نالوا وعداً باقامته ، ولم يكن لدى المسؤولين منهم الشجاعة الكافية للوقوف في وجه الوسائل الاجرامية التي كان يلجأ اليها الارهابيون الصهيونيون . كانوا يتصورون بان اللاجئين العرب سيجدون بسهولة مكاناً لهم بين اخوانهم في الاقطار العربية الاخرى ، واعتقدوا انه يوجد لهم في العراق وفي سوريا ملايين الهكتارات البور التي تحتاج الى من يعمل فيها وثروات هائلة لم تستثمر .

ثم ان هناك عدداً كبيراً من المهاجرين اليهود كان مدفوعاً بما قرأه في التوراة من ان فلسطين هي ارض الميعاد .

نصوص دينيّة عنصرية متحيّزة

لنقرأ اذن نصوص الكتاب المقدس :

لم يكن ابراهيم الذي يعتبر نبياً مرسلاً عند اليهود والمسلمين فلسطينياً، بل كان في الأصل من اورفا بلاد ما بين النهرين . ويقول سفر التكوين ان الله امره بترك بلاد ما بين النهرين والتوجه الى بلاد كنعـان التي وعد بها هو وذريته .

« في ذلك اليوم قطع الرب مع ابراهيم ميثاقاً قائلاً : لِنَسْلِكَ اعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير ، نهر الفرات ، بـلاد القينيين ، والقنزيين ، والقدمونيين ، والحثيين ، والفرزيين ، والرفائيين والأموريين .

ان هذا الوعد موجه الى كل نسل ابراهيم ومنه ينحدر اسحق ويعقوب وعيسى وشعوب اسرائيل وأدوم ، كما تحدّر ايضاً اسماعيل نتيجة زواجه من هاجر المصرية خادمة ساره . واليه تنتسب الشعوب العربية التي وعدت هي الاخرى بهذه البلاد .

لقد نصب ابراهيم خيامه مع عشيرته وقطعانه في منطقة حبرون واشترى من الحثي عفرون حقل ومغارة ليدفن فيها زوجته ساره التي ماتت . « وقام ابراهيم امام ميته وكلم بني حث قائلاً : « .. انا غريب ونزيل عندكم ، اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من امامي » . فعرض عليه الحثيون ان يستخدم احد قبورهم الفخمة ، ولكن ابراهيم اصر على

ان يحصل على قبر مقابل « اربعمائة شاقل فضة مقبولة عند التجارة بموجب حقل عفرون الذي في المكفيله التي امام ممرا الحقل والمغارة التي فيه ، وجميع الشجر الذي في جميع حدوده وحواليه» . (تكوين الاصحاح ٢٣)

واستمر ابراهيم واسحق ويعقوب مدة طويلة يعتبرون انفسهم غرباء في بلاد كنعان ، وذهبوا للبحث عن زوجاتهم في وطنهم الأصلي ، بلاد ما بين النهرين ، اذ كانوا كموحدين ينظرون شزراً باحتقار الى الفلسطينيين عبدة الأوثان .

وعندما خطف ابن امير شكيم دينا احدى بنات يعقوب ، بعد ان احبا بعضهما ، طلب ان يتزوجها ، فتظاهر اخوتها بالقبول ، واحتالوا على كل سكان المدينة وذبحوهم بقساوة ونهبوا ثرواتهم وسطوا على مواشيهم وسبوا نساءهم وأطفالهم .

وفيما بعد ، عندما هرب شعب اسرائيل بقيادة موسى من مصر وعاد الى بلاد كنعان تلقى امراً بعدم مخالطة الشعوب المقيمة هناك التي وعد الله بالقضاء عليها : « لا اطردهم من امامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية . قليلا قليلا اطردهم من امامك الى ان تتكاثر وتملك الأرض ، واجعل تخومك من بحر سوف (الأحمر) الى بحر فلسطين ، ومن البرية الى النهر : فاني ادفع الى ايديكم سكان الأرض فتطردوهم من أمامكم ..» (خروج الاصحاح ٢٣)

اما بحر فلسطين ، فهو البحر المتوسط ، والنهر الكبير في سفر التكوين هو نهر الفرات .

وفي الفصل الحادي عشر من التثنية تأكيد « كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من الصحراء الى لبنان، ومن نهر الفرات حتى البحر الغربي يكون تخمكم ، لا يقف انسان في وجهكم » .

ولا تنفك التثنية تأمر بالقضاء على سكان كنعان الوثنيين : « وتأكل

كل الشعوب الذين يدفع بهم الرب الهك اليك، لا تشفق عيناك عليهم، ولا تعبد آلهتهم ، لأن ذلك شرك لك..» (تثنية ٧ — ١٦)

وتفوح من الاصحاح السابع من التثنية رائحة البربرية والعنصرية التي لا مثيل لها ، ويبدو التحيز فيه ظاهراً الى جانب (الشعب المختار) .

« متى أتى بك الرب الهك الى الأرض التي انت داخل اليها لتمتلكها وطرد شعوب كثيرة من امامك ، الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، سبع شعوب اكثر وأعظم منك ودفعهم الرب امامك وضربهم ، فانك تحرمهم ، لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم ، بنتك لا تعطِ لابنه ، وبنته لا تأخذ لابنك ، لأنهم يردون ابنك من ورائي فيعبد آلهة اخرى ، ويزيد غضب الرب عليكم ويهلككم سريعاً ، ولكن هكذا تفعلون بهم فتهدمون مذابحهم وتكسرون انصابهم وتقطفون سواريهم ، وتحرقون تماثيلهم بالنار . لأنك أنت شعب مقدس للرب الهك ، اياك قد اختار الرب الهك لتكون له شعباً تخص من جميع الشعوب التي على وجه الأرض ، وليس ذلك لكونكم اكثر من سائر الشعوب عدداً بل التصق الرب بكم ، واختاركم لأنكم اقل من سائر الشعوب ، بل من محبة الرب اياكم وحفظه القسم الذي اقسم لآبائكم اخرجكم الرب بيد شديدة ، وقادكم من بيت العبودية من يد فرعون ملك مصر » . (تثنية ، الاصحاح السابع) .

وفي كتاب العدد يأمر الرب الاله ابناء اسرائيل بأن يطردوا أمامهم أهل كنعان ويدمروا آلهتهم ومعابدهم : « ستملكون البلاد وتقيمون فيها لأنني منحتكم اياها ، ستتقاسمون البلاد بالحصص حسب اسباطكم ، الى اولئك الذين هم اكثر عدداً تعطون الحصة الكبرى ، والى اولئك الذين هم اقل عدداً تعطون الحصة الصغرى .. ولكن اذا لم تطردوا امامكم سكان البلاد فأولئك الذين سيبقون منهم بينكم سيكونون أشواكاً في

عيونكم وابراً في اجنابكم ، سيكونون اعداءكم في البلد الذي ستقيمون فيه وقد يأتي يوم اعاملكم فيه كما عاملتهم » .

في سفر التكوين كما في سفر الخروج ، وفي التثنية كما في العدد ، وفيما بعد كتب يشوع والقضاة ترد الأوامر واضحة الى بني اسرائيل كي يسطوا على أموال الكنعانيين ، رغم كل عدالة ، وفي الاصحاح السادس في التثنية ، بعد الأوامر المشددة التي تطلب من اسرائيل ان تحب الهها من صميم قلبها وروحها وتغرس بكل قوتها هذا الحب في نفوس أبنائها لتبقى دائماً امام اعينهم الأوامر الالهية التي تعدهم بـ « الأرض الطيبة التي تفيض لبناً وعسلاً » ، يتوجه الى الشعب المختار بما يلي :

« أتى بك الرب الهك الى الأرض التي حلف لآبائك ابراهيم واسحق ويعقوب ان يعطيك الى مدن عظيمة جيدة لم تبنها ، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها ، وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم زيتون لم تغرسها (تثنية ، الاصحاح السادس)

لا طائل من تعداد الشواهد الكثيرة لاثبات ان العهد القديم يعكس مفاهيم دينية قديمة عنصرية بربرية ، فان ذلك واضح مما اوردناه ..

لقد كانت الأقوال المتكررة في الكتاب المقدس ، تلك الأقوال التي مجدت شعب اسرائيل والتي أشارت الى ان فلسطين وكل ما فيها هو من حقه ؛ كانت مشجعاً للارهابيين ، وشكلت سنة ١٩٤٨ عقبة في طريق الصهيونيين الأحرار ، لفظاعات الصهيونيين المتطرفين . وحتى في نبوءة النبي أشعيا التي تمجد العهد الذهبي حيث العدالة ستنشر لواءها ، وحيث الحمل سيأمن العيش الى جانب الذئب وحيث المسيح سيكون هنا راية لجميع الشعوب ، نجد مقاطع كلها وعود لبني اسرائيل بالعودة الى فلسطين .

« ويكون في ذلك اليوم ان السيد يُعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من اشور ومن مصر ومن بتروس ومن كوش ومن عيلام وشنعار وحماه وجزائر البحر . ويرفع راية الامم ويجمع منفيي اسرائيل

ويضم مشتتي يهوذا من اربعة اطراف الارض ، فيزول حسد افرام وينقرض المضايقون من يهوذا . افرام لا يحسد يهوذا ويهوذا لا يضايق افرام . وينقضّان على اكتاف الفلسطينيين غرباً وينهبان معاً بني المشرق. يكون على ادوم ومواب امتداد يدهما ، وبنو عمون في طاعتهما (اشعيا الاصحاح ١١)

ان ادوم ومواب شعبان يتحدران من عيسى ؛ ومع ذلك يراهما النبي اشعيا عبيداً لاسرائيل عندما ينصر المسيح نسل يعقوب عندئذ يتجمع المنفيون من اليهود في ارض الميعاد ويكون ذلك كي ينهبوا معاً ابناء الشرق .

ان القومية الصهيونية باحيائها اللغة العبرية قد اعطت قوة سحرية هائلة للجمل المترجرجة في سفر التكوين والخروج ،وللمقاطع الساحرة في نبوة انبياء اسرائيل . وفي ايام الحرب يعود الانسان قسراً الى تنفيذ ما تدفعه اليه غرائزه الطبيعية من استخدام العنف استجابة لغريزة القتال ، واستخدام الحيلة استجابة لغريزة البقاء . وعندئذ توصف انانية المقاتل بالقدسية لان الدفاع عن النفس الافرادي يختلط مع المصلحة الوطنية : في حالة كهذه يكثر الحديث الرخيص عن حقوق بني البشر الذين هم في الناحية الثانية من خط النار ، اولئك الذين نتفنن في اهلاكهم لأنهم – العدو – :

وقد وجدت المشاعرُ البدائية الصلفةُ للشعوب المتطاحنة منذ ثلاثة او اربعة آلاف سنة في نزاع قاس للحياة تعابيرها في ما تركه الذين كتبوا التوراة وفي الوعود والامال التي طلع بها الانبياء واليهود.وهذه النصوص الدينية القديمة العنصرية القومية ما زالت حتى اليوم تهز مشاعر الكثيرين واخيلتهم .

لقد تغيّرت اسلحة المتحاربين ولكن ردود الفعل الشعورية للغزاة بقيت مع الاسف بدائية : والقومية الصهيونية التي ملئت هوساً دينياً هي

اليوم اكثر بدائية وبربرية مما كان عليه الشعب اليهودي عندما لوحق واضطهد وذُبح في اكثر بلدان اوروبة :

لقد تم انشاء الوطن القومي اليهودي او احتلاله عن طريق العمل الممزوج بالحيلة والعنف . والبائسون ابناء فلسطين ارض الميعاد التي وعد بها اليهود منذ اربعة آلاف سنة سحرتهم اموال الوكالة اليهودية في البدء فاسحرتهم . واذا بهم يستفيقون بعد مفعول السحر ليروا انفسهم ازاء اعمال الارهاب والعنف التي لجأت اليها المنظمات الارهابية الصهيونية ، فاضطروا الى ترك ديارهم والخروج من بيوتهم لا يلوون على شيء سنة ١٩٤٨ .

ترى ، ماذا كان ردّ الفعل لدى جمال عبد الناصر ورفاقه الوطنيين المناضلين نتيجة لهذه المأساة الفلسطينية ؟؟ ذلك ما سنراه في الفصل المقبل.

جمال عبد الناصر وحرب فلسطين

عندما كان جمال عبد الناصر طالباً ثانوياً كان يشترك كل سنة في الثاني من تشرين الاول في المظاهرات التي كان ينظمها طلاب المدارس المصرية احتجاجاً على وعد بلفور الذي تعهدت بموجبه بريطانية بالعمل لاقامة وطن قومي لليهود في فلسطين «اغتصبته ظلماً من اصحابه الشرعيين» (جمال عبد الناصر – فلسفة الثورة – صفحة ٦٣)

وهنا في هذه المناسبة لا بدّ من ان نتساءل «لماذا كان يشعر وهو طالب في احدى مدارس القاهرة الثانوية بالمهانة وهدر الكرامة ؟. لماذا يغضب لهذه الارض التي لم تقع عليها عينه» ؟ (جمال عبد الناصر – فلسفة الثورة – ص ٦٣)

اننا نستطيع الاجابة على ذلك ، اذا تذكّرنا ان الامة العربية هي فكرة موجّهة قبل ان تكون حقيقة سياسية . وكلّ من يُصيب بلداً من بلدانها يترك صداه في اي بلد عربي آخر .

ولحسن الحظ ان جمال عبد الناصر في الكلية الحربية ثم مدرسة اركان الحرب قد درس جيداً تاريخ فلسطين وظروفها التي جعلت منها في القرن الاخير فريسة سهلة تتخطفها انياب مجموعة من الوحوش الجائعة ، مما يسّر له ان يكوّن فكرة صحيحة عن هذه المأساة الكبرى .

في القرن الماضي كانت فلسطين بلداً صغيراً فقيراً في الثروات ، والوحوش الضارية للسياسة الدولية لم تهرع اليها رغبة في الاستثمار بثرواتها الطبيعية . انها حظوة القدس ، المدينة المقدسة عند المسلمين والمسيحيين ، وعند اليهود على السواء هي التي سحرت الصليبيين في الماضي والتي استمرت تجتذب الانظار . واذا كان نابوليون بونابرت قد حاصر عكا واذا كان محمد علي والاتراك ومن بعدهم الانجليز والاتراك والالمان ، اذا كان هؤلاء نقلوا نزاعاتهم ومنافساتهم الى الاراضي الفلسطينيـــة ، فذلك لان بلاد كنعان كانت بالنسبة لهم ساحة معركة اكثر منها موطن استثمار .

هذا وقد استفادت فلسطين كمركز للحج ، وبلد كل مدينة فيه تُحيي ذكرى تاريخية خاصة عند اصحاب الاديان السماوية الثلاثة ، استفادت من الحركة السياحية الدينية الواسعة وأقيم عدد كبير من المؤسسات الخيرية التي مُولت من الخارج مما اتاح تحسين مستوى العيش لدى شعب حالم هادىء هانىء في بيئة طبيعية جميلة تُعطيه الزيتون والتين والعنب .

وبسبب هذه الحياة الهادئة الحالمة في فلسطين حيث كان الشعب يعيش وديعاً مسالماً من جراء العطف العـالمي على مهد الاديان السماوية بدت حركة العنف الارهابية التي حملته على ان يخرج من دياره دون ان يلوي على شيء قاسية فائقة الظلم .

وعندما وُلدت الازمة الفلسطينية كتبَ جمالُ عبد الناصر يقول انه « كان مقتنعاً تمام الاقتناع بانه اذا فُرض القتال في فلسطين فأن ذلك لن يكون حرباً في ارض بلاد غريبة بل واجباً مقدساً للدفاع عن النفس . »

في ايلول سنة ١٩٤٧ على اثر قرار الامم المتحـدة لمشروع تقسيم فلسطين اجتمعت اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار ؛ وقررت ان تساند حركة المقاومة العربية . فتوجه جمال عبد الناصر الى منزل مفتي فلسطين الاكبر الحاج امين الحسيني في دارته في الزيتون ليعلمه بأن عدداً كبيراً

من الضباط المصريين مستعدون لتدريب المتطوعين وقيادتهم في المعركة .
وكان جواب الحاج امين الحسيني انه يقدر هذا الاندفاع ، ولكن عليه قبل كل شيء ان يستحصل على اذن من السلطات المصرية . وبعد بضعة ايام اضطر الحاج امين أن يجيب بالنفي على عرض خدمات الضباط المصريين الاحرار ، إذ ان النقراشي الذي كان يدرس امكانية تدخل الجيش المصري في فلسطين كان لا يريد ان يحدث تشويشاً في جهاز ضباط الجيش المصري بسبب انصراف قسم من ضباطه الى العمل على رأس المتطوعين .

ومع ذلك حصل الزعيم احمد عبد العزيز ، الذي كان سنة ١٩٣٨ استاذ الفروسية ، للطالب جمال عبد الناصر في الكلية الحربية على امر احالته الى الاستيداع . فتوجه الى فلسطين لتدريب المتطوعين العرب .

وفي نيسان سنة ١٩٤٨ بدا جلياً واضحاً ان بريطانية لم تكن مستعدة لإرسال قواتها الى فلسطين واعادة السلام المفقود . والمفوض السامي السير الن كوننغهام لم يكن لديه سوى الف جندي بريطاني ، والشرطة والدرك وجميعهم من الوطنيين لم يكن عددهم يزيد عن الالف ، والجيش العربي الاردني كان في امكانه ان يقدم مساعدة ثمينة عندما تدعو الحاجة ، ولكن قيادة هذا الجيش كانت منوطة بالبريطاني غلوب ، وبالاضافة الى ذلك كان تحت امرة الملك عبدالله ملك الاردن .

ويروي جمال في كتيب اسمه « الحقيقة كلها عن حرب فلسطين » سنعود الى شرحه في فصل لاحق ، ان منظمة الضباط الاحرار قد وضعت نفسها في ذلك الوقت في حذر مستمر « لأن الكلاب البوليسية كانت تقتفي أثرها ، وسياسة الملك فاروق كانت قائمة على التجسس في أوساط الجيش » .

وكان النقيب جمال عبد الناصر ، الاستاذ الشاب في الكلية الحربية ، يعدّ امتحانه النهائي في مدرسة أركان الحرب ، وكان عليه ان يتقدم

الى ذلك الامتحان في الثاني عشر من ايار ، وكان يخشى خسارة ثمرة جهود سنة بكاملها اذا ذهب توا الى فلسطين لنجدة أهلها العرب .

اجتمعت اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار وقررت وجوب ذهاب احد أفرادها ، على ان ينتظر الآخرون دورهم . وأصابت القرعة كمال الدين حسين الذي التحق في أواسط نيسان باستاذه القديم الزعيم احمد عبد العزيز في منطقة حبرون وبيت لحم ، وتولى قيادة المدفعية في جيش المتطوعين ، هذه المدفعية التي كانت تقصف وتدك المستعمرات اليهودية جنوبي القدس :
(جمال عبدالناصر — فلسة الثورة — صفحة ٦٤)

في النقب وفي يهوذا نسف كمال الدين حسين الخطوط الحديدية من خان يونس الى بئر السبع ، ومن حبرون الى بيت لحم .

وقد فقد عدد كبير من الضباط الاحرار أرواحهم في هذه العمليات نذكر منهم انور السياجي الذي سيذكر جمال عبد الناصر اسمه لرئيس الحكومة المصرية في ظروف محزنة ، ومحمد سالم عبد السلام وغيرهما .

ومن ناحية ، كان حسن ابراهيم وعبداللطيف البغدادي قد انضما في دمشق الى مركز قيادة اللواء فوزي القاوقجي قائد جيش الانقاذ العربي الذي كان يقوم بعملياته الحربية في منطقة الجليل وكانا قد أعدا مع رفاق لهما في الخدمة في الجيش المصري ، قيام سرب من الطائرات العسكرية المصرية المحملة بالاسلحة والذخيرة لنجدة عرب فلسطين . ولكن تنفيذ هذه الخطة تأخر وأصبح لا فائدة منه بعد دخول الجيش المصري الحرب الفلسطينية :

من الثامن الى الثالث والعشرين من نيسان حملت مذبحة دير ياسين واعمال الارهابيين اليهود في حيفا ويافا الاهالي العرب على ترك ديارهم واللجوء الى الاقطار العربية المجاورة .

وفي أول ايار أعلنت صحيفة المصري انه ، قبل الخامس عشر من ايار ستكون القوات المصرية قد اجتازت الحدود ، في طريقها لاعادة

النظام والاستقرار الى فلسطين . وفي الثالث عشر منه قررت الامم المتحدة ان تعين وسيطاً ، ولكنها لم تتخذ أي اجراء عملي مباشر . وفي الرابع عشر من ايار ترك الانجليز القدس ، وحشدوا قواتهم في حيفا ، حيث بدأوا الابحار .

بـدأ الرأي العام بمؤازرة الصحافة في مصر يطالب بتدخل الجيش المصري . غير ان النقراشي باشا تردد ، لانه يعلم بأن القوات المصرية لم تكن في حالة تخولها الدخول في أي حرب لنقص في العتاد . فاذا بفاروق يتخذ القرار الحاسم ، حاسباً ان الامر لن يعدو كونه نزهة عسكرية ، آملا ان يسكت النجاح السريع الذي ستلقاه القوات المصرية في اشتراكها في حرب فلسطين الوطنيين السياسيين الناقمين . وعلاوة على ذلك كان بوليسه السري يشمّ رائحة ما كان يعده الضباط الاحرار ؛ لذلك كان ارسال الجيش الى فلسطين خير وسيلة للتخلص منه في القاهرة والهاء المحرضين بخطوط النار .

وفي الرابع عشر من ايار أعلنت دولة اسرائيل التي اعترف بها الرئيس ترومان فور اعلانها برقياً . وفي ليل ١٤ – ١٥ ايار دخلت الجيوش العربية فلسطين وانكشف اللواء « المواوي » قائد الحملة المصرية فتبين انه منظم فاشل وستراتيجي قصير النظر . وأما مساعده اللواء محمد نجيب فقد اضطر ، بسبب قلة السيارات العسكرية اللازمة لنقل جنوده من رفح الى غزة ، الى ان يستأجر من الاهالي العرب احدى وعشرين شاحنة خاصة . وأرغم على ان يهمل قسماً من المدفعية ، لعدم وجود محركات قاطرة لنقلها .

وفي السادس عشر من ايار ، توجه جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر ، وزكريا محيي الدين من القاهرة الى فلسطين في قطار مملوء جنوداً وكان الجيش المصري آنذاك لا يضم الا تسعة افواج ، ثلاثة منها كانت قد توجهت الى الحدود الفلسطينية ، هي الفوج السادس الذي الحق به

النقيب جمال عبد الناصر ، والفوج التاسع الذي كان يجب ان يكون عبد الحكيم عامر فيه ضابط اركان حرب ، والطابور الاول الذي التحق به زكريا محيي الدين . وبالاضافة الى ذلك كان الطابور السابع في طريقه الى الحدود . وعندما أعلنت الصحف المصرية بضجة كبرى ان الجيش المصري قد دخل فلسطين ، كان هذا الجيش لا يضم سوى ثلاثة او اربعة آلاف جندي .

لا اود هنا ان استرسل في سرد العمليات الحربية التي حدثت بين ١٥ ايار سنة ١٩٤٨ و ٢٤ شباط سنة ١٩٤٩ ، التاريخ الذي وقعت فيه اتفاقية الهدنة . بل اكتفي بأن أذكر ان الجيش المصري احتل بدون مقاومة غزة وبئر السبع ، وعسكر في منطقة حبرون ـ بيت لحم ، حيث انضم الى المتطوعين العرب الذين كان على رأسهم الزعيم احمد عبد العزيز ، ونقيب المدفعية كمال الدين حسين . وتم هكذا الاتصال بين القوات المصرية والقوات الاردنية التي كانت تعمل في وسط فلسطين، وهي الاخرى على اتصال ، في الجليل ، بفدائيي فوزي القاوقجي ، وفي الشمال بالقوات العراقية والسورية . وهكذا احتلت القوات العربية مدينة القدس القديمة . ورام الله واللطرون ، ونابلس وأريحا ثم بيت لحم ـ حبرون ، وبيت جبرين والفالوجه وغزة .

اثر ذلك شن اليهود هجوماً عاماً فربحوا عدة مراكز . واحتلوا الساحل كله من الحدود اللبنانية الى الفالوجه . وكان ارهابيو ارغون وسترن فظيعين في قساوتهم . والهاغانا التي تعد ثمانين الفاً بين رجال ونساء كانت تضم ثلاثين الف جندي مدرب جيداً على ايدي الانجليز . كانوا قد حاربوا في صفوف الجيوش الحليفة في الحرب العالمية الثانية ؛ والمستعمرات اليهودية الزراعية كانت محصنة ومسلحة ، وقد حاربت باستماتة من اجل البقاء . اما الأهالي العرب ، فاعتقدوا انهم بلجوئهم الى ما وراء الخطوط العربية ينجون بحياتهم ، ليعودوا الى بيوتهم بعد

بضعة ايام او اسابيع على الأكثر .

في الحادي عشر من حزيران سنة ١٩٤٨ توقف القتال بعد ان وافق الفريقان على هدنة شهر كان قد اقترحها الوسيط برنادوت . ولكن النار اشتعلت من جديد في الثامن من تموز وبقيت عنيفة جداً حتى الثامن عشر من تموز اليوم الذي فرضت فيه الامم المتحدة الهدنة الثانية على المتنازعين . غير ان هذه الهدنة المقررة في نيويورك لم تكن مطلقاً ، في فلسطين . والكونت برنادوت الذي كان قد اعد مشروعاً للتقسيم أصلح بالنسبة للعرب من المشروع الذي صوتت عليه هيئة الامم عام ١٩٤٧ ، اغتيل في الحادي عشر من ايلول على يد عصابة سترن الارهابية. كذلك جرت معارك عنيفة بين القوات المصرية واليهود في النقب بين ٤ تشرين الاول سنة ١٩٤٨ و ٦ كانون الثاني سنة ١٩٤٩ ، على الرغم من صدور تأكيد جديد صادر في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٩٤٨ من نيويورك ؛ بوقف اطلاق النار .

وبشأن الحقبة الممتدة من ايار حتى اواخر تشرين الاول سنة ١٩٤٨، نستطيع ان نعتمد على مذكرات جمال عبد الناصر . وبعد هدوء وقتي في شهر تشرين الثاني ، عاد نطاق القتال واتسع في اواخر كانون الأول اذ ان اليهود كانوا يحاولون ان يقضوا على القوات المصرية المحاصرة في الفالوجة وعراق المنشيه التي تهمنا بصورة خاصة لأنها كانت بقيادة جمال عبد الناصر ، وقد حصلنا على معلومات بشأنها من شهود عيان .

مذكّرات جمال عبد النّاصر عن حرب فلسطين

نشرت ادارة العلاقات العامة في القوات المسلحة المصرية ، سنة ١٩٥٥ بعنوان : « الحقيقة كلها عن حرب فلسطين » ثلاثة كراسات تحمل في صدرها صورة الزعيم عبد الناصر بلباسه العسكري . تتألف النشرة الاولى من عشرين صفحة وهي تحمل اشارة « الجزء الأول » وتبدأ بهذا التصريح : « انني لا ابحث عما ستتركه فصاحتي ، ولا احاول ان ارفع من معنويات الجيش ، بل اريد فقط ان اروي الحقيقة كما عشتها» ويتحدث هذا القسم الأول من مذكرات الرئيس ، عن - الأحداث بين ١٥ ايار و ٣٠ حزيران سنة ١٩٤٨ وتحمل كلمة « يتبع » .

واما الجزء الثاني فيحتوي خطبة للرئيس جمال عبد الناصر موجهة الى طلاب الأكاديمية العسكرية . ومن المستحسن ان نعرف في اية ظروف القيت هذه الخطبة وعندئذ ندرك الى اي مدى يمكنها ان تشكل مستنداً صالحاً لتاريخ حرب فلسطين .

صدر مؤخراً تصريحٌ عن الرئيس عبد الناصر يلقي ضوءاً على ما نصبو الى معرفته . ففي مقابلة مع الكاتب البريطاني دسموند ستيوارت، أكد الرئيس عبد الناصر انه على الرغم من انه رجل عسكري وثوري فانه يكره العنف . فهو لا يحب قساوة أتاتورك ، الذي لا يعف عن

توقيع الحكم بالاعدام على صديق حميم له ، بل يعجب بجورج واشنطن الذي عرف بطيبة قلبه ..

وقد لاحظ دسموند ستيوارت ان اختيار السلك العسكري يتعارض مع هذا الايمان بالسلم ، وهذا الشجب للعنف على طريقة غاندي . فأجاب جمال عبد الناصر على ذلك : ان هـذا التناقض ظاهري . وفي بلد كمصر يمكن اعتبار الجيش وسيلة للتثقيف . ودور الجيش يمكن ان يختلف بين بلد وآخر . ثم هل تعلم بانني شخصياً كنت في فجر الثورة من معارضي تنظيم جيش كبير ؟ لقد كنت مسالماً حتى حيال الخصوم، وزملائي الضباط هم الذين كانوا يبرزون الاخطار المحيقة بنـا . ولكن كل شيء قد تغير عندما حصل العدوان الاسرائيلي عـلى غزة . وكل ذلك قد تبدل بين ليلة وضحاها يوم ٢٨ شباط سنة ١٩٥٥ . عندئذ فهمت انه يجب ان يكون لدينا اسلحة للدفاع عن انفسنا . لقد رأيت اللاجئين الفلسطينيين مشردين فهلعت وخفت من مجرد التفكير في امكانية حدوث ذلك للمصريين . لذلك طلبنا الاسلحة من الغرب الذي رفض ان يبيعنا اياها . وقد أخذناها من تشيكوسلوفاكيا بدون قيود سياسية .

ان هذا التصريح يُزيل جميع الملابسات ويشرح الظروف التي القيت فيها الخطبة على طلاب الاكاديمية العسكرية عام ١٩٥٥ . فقد كان هناك عدوان اسرائيلي على غزة ترك في الثامن والعشرين من شباط سنة ١٩٥٥ اربعين قتيلا مس المصريين . وعلى الاثر شعرت مصر بانها ضعيفة من حيث القوة العسكرية والاسلحة . ولم تستطع ان تحصل على السلاح من الشرق الا في ايلول . وفي انتظار ذلك كان يجب المحافظة على معنويات الشعب والجيش ، وكان يجب محاربة الزعم القائل بان الجيش المصري قد انهزم عسكرياً عام ١٩٤٨ ، وبانه كاد ينهزم مرة ثانية امام الاسرائيليين عام ١٩٥٥ .

ليست اسرائيل مَنْ هزمنا

في خطبته يذكّر الرئيس جمال عبد الناصر اذن بيوم السادس عشر من تشرين الاول سنة ١٩٤٨ ، ذلك اليوم الذي وجدنا فيه انفسنا فيه وجهاً لوجه مع شعب ، اقوى وافضل تسليحاً منا .

« كنا معزولين ومحاصرين »

ومع ذلك « قمنا بواجبنا تجاه الشرف والوطن ، وصددنا المعتدين :

« لقد رأيت بأم عيني الجنود اليهود يتراجعون ويتقهقرون أمام الجيش المصري على الرغم من ان الدبابات كانت تساندهم وتركوا بعضها في ساحة المعركة » .

ويضيف الرئيس « ان الجنود المصريين ، كانوا ، في عام ١٩٤٨ ، ضحايا الخيانة والهدنة التي فرضها مجلس الامن الدولي التابع للأمم المتحدة في الوقت الذي كانت اسرائيل في امسّ الحاجة الى فترة راحة لاعادة تنظيم صفوفها واستكمال تسليحها . »

« لقد استطاع اليهود ، بفضل الهدنة ، ان يقوّوا جيشهم ويسيطروا على صفوفنا . لم تكن اسرائيل هي التي هزمتنا عام ١٩٤٨ ، بل مجلس الامن الدولي وحلفاء اسرائيل » .

يؤكد الرئيس ان الحالة في سنة ١٩٥٥ تختلف كل الاختلاف عن تلك . والجيش المصري بقيادة عبد الحكيم عامر لم يعد كما كان في السابق . والعوامل التي ادّت الى فشلنا عام ١٩٤٨ قد زالت الى الابد :

« سندافع عن بلدنا ونواجه القوة بالقوة ... »

والجزء الثالث من « كل الحقيقة عن حرب فلسطين » في صفحاته الاحدى والعشرين يتضمن اعادة للنص المنشور في الجزء الاول مع بعض التنقيح .

يروي النص الاول في الصفحة الرابعة عشرة ، انه كان على الفوج

السادس في أواخر ايار ان ينتقل من غزة الى اسدود ليحل محل الفوج الرابع ، الذي تلقى تعليمات تدعو الى السخرية . لقد طلب اليه ان يهب الى نجدة الجيش الاردني الذي كاد العدو ان يقضي عليه في معركة باب الواد . وقد بدا هذا الامر غريباً جداً اذ كيف تحرم الحملة المصرية من فوج كامل ، اي من ربع القوات المقاتلة ، كي يرسل الى المهلكة في باب الواد ؟؟

والنص في الجزء الثالث يقول : « لكن لسوء الحظ ، عادوا وتراجعوا عن هذه الاوامر . كنا مستعدين للذهاب ، وذهبنا اذن ، الى حيث كان يجب ان نذهب ، الى اسدود حيث اخيراً وجدنا انفسنا وجهاً لوجه أمام العدو !! » .

ان هذه التضحيات التي وردت في الجزء الثالث تمثل جيداً النظرة ، الى حرب فلسطين كما اراد الرئيس جمال عبد الناصر أن يعطيها عـام ١٩٥٥ ، لطلاب الكلية الحربية ولكل مصر لان هذه المذكرات نشرت في المجلة الواسعة الانتشار « آخر ساعة » .

وبقاء رد الفعل البديهي الأصلي للضابط الشاب في النص رغم التطور اللاحق الذي اصاب نظرته الى الأمور يدلُّ على ان مذكرات الجزء الثالث تمثل جيداً ملحوظات وذكريات حية لضابط محارب في سنة ١٩٤٨ . من هنا تنشأ فائدتها القصوى بالنسبة لمن يود فهم النفسية والتكوين النفسي للبطل الذي سيصبح في المستقبل رائد القومية العربية .

يقول علماء الجيولوجيا ان تحليل الطبقات الترابية المتراكمة فوق بعضها يُتيح معرفة تاريخ الارض ، كذلك الامر في دراسة سير الرجال العظماء فان تحليل المستندات العائدة الى ايـام الطفولة ، أو الفتوة ، أو سن النضج ، يظهر لنا التأثيرات ، والاحداث ، والتجارب الـتي كونت الآراء والمفاهيم السياسية التي يتبنونها .

لنعد الآن الى ما يرويه الرئيس في مذكراته منذ السادس عشر من أيار ، تاريخ ذهابه الى الحرب : بعد مرور اربعة ايام فقط على اجتيازه بنجاح الامتحان الصعب في مدرسة اركان الحرب ترك وراءه المرأة الشابة التي كان قد تزوج منها عام ١٩٤٤ مع طفلتين رائعتين بارعتي الجمال بعيونهما السوداوين ، هما : هدى وعمرها سنتان ، ومنى عمرها سنة واحدة . ومن غريب الصدف ، ان جمال عبد الناصر رُزق بنتين قبل ذهابه الى حرب فلسطين ، فاذا به بعد عودته منها يرزق بثلاثة بنين . فهل معنى ذلك ان الضابط الذي خسر الحرب في فلسطين في الجولة الاولى قرر ان يزود وطنه بالجنود لكسب الجولة الثانية . وساعة الرحيل لم ترد تحية كاظم الزوجة الشجاعة الوقور ان يرتدي وداعها لزوجها طابعاً قاتماً بل ان النقيب جمال يقول : « لقد تركتُ افراد العائلة في ألم شديد ، وقد انتظروا نزولي آخر درجات السلم ليطلقوا لدموعهم العنان . »

وفي القطار المملوء بالجنود والمكتظ بالاسلحة ، كان ثلاثةُ نقباء في الثلاثين من عمرهم قد بسطوا مصوّراً حربياً وراحوا يتأملون فيه. كانوا يعلمون ان الجيش المصري قليل العَدد والعُدد، تنقصه التجارب الحربية، لانه خلال الحرب العالمية فُرض عليه ان يبقى في ثكناته ، فيما عدا بعض فرق المدفعية التي كُلفت حراسة القناة من الغارات الجوية . ومن دراستهم على المصور لمئات الكيلومترات التي يجب احتلالها لمواجهة « الكيبوتزم » اي المزارع اليهودية المحصنة ، تبيّن لهم ان المهمة التي كلفوا بها خطيرة :

سافر جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر ، وزكريا محيي الدين، معاً حتى العريش المدينة الصغيرة على الحدود، حيث ترْوي مياه الجوف

القادمة من شمالي سيناء غابات النخيل التي يداعبها النسيم .

وفي المساء وصلوا الى العريش الغارقة في الظلمة . وفي المحطة لم يجدوا احداً في انتظارهم لاعطائهم التعليمات . بحثوا عن مركز القيادة فوجدوه خالياً خاوياً الا من ضابط صغير من الاركان العامة حيث كان يبحث عما سيتناوله من طعام ، فدعوه لمقاسمتهم طعامهم . « كانت ضحكاتنا تنساب على سجيتها ، وقهقهتنا ترن ، تاركة صدى غريباً في نفسي » ان هذا يجعلك تشعر بالطيبة المصرية لا سيما طيبة هؤلاء العسكريين الشباب الذين يحبون الحياة ، والمزاح ولكن كل ذلك المرح كان يرزح تحت ثقل القلق لمجرد التفكير في ان قراراً خطيراً كاعلان حرب قد أتخذ دون ان تكون القيادة العليا قد قدّرت الصعوبات من تنظيم النقل وجهاز الامن وتزويد الوحدات المحاربة بالاسلحة والذخائر .

علم عبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين في العريش بان الفوجين التاسع والاول في غزة وان سيارة حربية ستأتي لنقلهما الى هناك . اما الفوج السادس فهو اقرب ، في رفح اول بلدة فلسطينية على الحدود . وقد اعلنت صحف القاهرة انه قد احرز نصراً وطهّر مزرعة «دنقور» الصهيونية . ولدى وصول النقيب جمال الى رفح علم بان الفوج قد رحل عنها منذ الخامس عشر من ايار بناء لاوامر القاهرة ، ليحتل «دنقور» ؛ غير ان الجنود والضباط لم يكن لديهم اية معلومات عن المزرعة المحصنة التي جاءتهم الاوامر بمهاجمتها . وقد وصلوا اليها منهوكي القوى بعد مسير طويل مضن ، واصطدموا بخطوط دفاعية من الاسلاك الشائكة يختبيء وراءها الجنود الصهيونيون الذين اصلوهم ناراً حامية من رشاشاتهم :

وبعد ان اصيب الفوج بخسائر فادحة غير منتظرة اعطى المقدم الامر بالتراجع الى رفح حيث انقشعت اوهام المحاربين في الوقت الذي كان

الناس فيه يقرأون البلاغ الطنان الرنان الذي اصدرته القاهرة عن تطهير المزرعة الصهيونية .

الف ليرة لشراء زيتون وجبن

استقلّ الفوج السادس القطار الى غزة حيث يجب ان يحل محل الفوج التاسع المتوجّه الى مجدل – اسدود : وفي غزة التقى جمال عبد الناصر بعبد الحكيم عامر من جديد ، فسلّمه هـذا المعسكر الذي تحت امرته واعطاه الف جنيه ليشتري لجنوده بها زيتوناً وجبناً . وذلك لان القيادة العليا لم تكن قد اعدّت المطابخ الضرورية لطبخ الاطعمة الساخنة . فليتدبّر الجنود انفسهم ، محلياً ، بالمال. شعر النقيب انشاب بثورة تعتريه بسبب هذا النقص في الاعداد والتنظيم . « كان قلبي ينفطر وكنت اثور لمجرّد تفكيري في الجندي الذي يحارب وهو عاري الجسم ضد المراكز المحصنة ويعود الى معسكره بعد المعركة لينزوي كالجرذ في احدى الزوايا يقضم كسرة من الخبز وقطعة من الجبن » :

الى غزة وفد الجرحى افواجاً من دير سنيد ، المستعمرة اليهودية : كان المشاة المصريون قد امروا بالتوجه اليها بالخفة نفسها التي صدرت فيه الاوامر الى الفوج السادس كي يهاجم دنقور . « أطلق الجنود بدون حماية المصفحات ، في وضح النهار ضد التحصينات القوية ، المزوّدة بمدافع ورشاشات تديرها ايد مجربة . وكلما كانت تخرّ الموجة من جنودنا صرعى ، كانت موجة اخرى تحلّ محلها وكان الجنـود يقبلون على الموت بحرارة نادرة وانتهى الامر بسقوط دير سنيد في ايدي المصريين ولكن بأي ثمن « لقـد كانت ليلة العشرين من ايار من

احزن ليالي حياتي ، وقد امضيتها في المستشفى حيث كانت الاسرة جميعها تضم اجساماً مشوهة لجنود جرحوا في دير سنيد ... أجل ، لم يكن هناك في الحقيقة اية قوة تستطيع ان تمنع مشاتنا من مواجهة الموت بجرأة . لكن هل كنا نرسل جنودنا ليشتركوا في معركة ام في مذبحة ؟ »

وهكذا ، بعد تجربة دير سنيد القاسية المؤلمة ، ارسل الفوج التاسع الى اسدود في السهل الساحلي قرب المجدلة . وفهم جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عـامر ان القيادة العليا المصرية تقوم « بحرب سياسية » وهمّها فيها ان تحتلّ اكثر ما يمكن من مواقع ، دون ان تكترث لما قد يرافق ذلك من اخطار تصيب الجنود الذين اطلقوا في اتجاه تل ابيب ، والمستعمرات المنيعة التحصين داخل الاراضي ؛ الامر الذي جعل خطوط المواصلات للجيش المصري ضيقة ودقيقة ، مع العلم بان الافواج الاربعة لا تكفي لاحتلال الاراضي المحتلة وحماية نفسها، ولم يكن لدى القيـادة العامة المقامة في غزة احتياطي آلي يتيح لها ان تبادر هي الى فتح عمليات حربية ضد المواقع الاسرائيلية . ومع ذلك ، من اجل تأمين الاتصال بين المتطوعين العرب العاملين في منطقة حبرون وبيت لحم، تلقّى الفوج الاول الاوامر بالزحف على عراق سويدان والفالوجه ، وبيت حبرون واحتلالها . وبذلك اصبح على الوحدة التي التحق بها زكريا محي الدين ان تؤمّن الاتصال بقوات التحرير التي يقودها الزعيم احمد عبد العزيز والنقيب كمال الدين حسين .

وما كاد الفوج السابع يصل الى غزة ؛ حتى نقل الفوج السادس الى اسدود ، حيث أمضى جمال عبد الناصر ليلته في احد بساتين الليمون مع عبد الحكيم عامر الذي كان يتتبع باللاسلكي أخبار سير المعركة الدائرة بشأن احتلال المعسكر البريطاني سابقـاً في نيتساليم . وكان ان

تقدم النقيب محمود خليفه ، احد اعضاء منظمة الضباط الاحرار ، كفدائي ليقود المهاجمين . وفي الغد علم ان العملية تمت بنجاح ، ولكن حياة محمود خليفه كانت ثمناً لها . فقد استشهد النقيب في ساحة الشرف بينما أصيب عبد الحكيم عامر نفسه بشظية قنبلة .

ان مذكرات الرئيس جمال عبد الناصر تعطينا وجهة نظر معينة عن العمليات الحربية ، من ضابط ملتحق بوحدة مقاتلة معينة . انها لا تعطي صورة عامة لحرب فلسطين . وكي ندرك أهميتها كمستند ، يجب ان نُلقي ضوءاً على أوضاع كلٍ من مختلف الجيوش المشتركة في الحرب . كما اننا يجب ان نحيط علماً بتدخلات مجلس الامن التابع لهيئة الامم المتحدة ، والوسيط الذي اختاره المجلس .

هدنة تنقذ ١٢٥ الف يهودي

بينما كان الجنود والضباط يقاتلون بكل ما أوتوا من قوة ، كانت المفاوضات مستمرة في هيئة الامم . وقد استطاع مجلس الامن الدولي ان يحصل على موافقة الدول العربية واسرائيل معاً بشأن هدنة شهر بدأت في الحادي عشر من حزيران سنة ١٩٤٨ ، ووصل الكونت برنادوت الى فلسطين ، على رأس خمسة وعشرين مراقباً اميركياً ، وفرنسياً ، وبلجيكياً ، وسويدياً ؛ انتشروا في انحاء فلسطين لمراقبة وقف العمليات العسكرية .

وقد أفادت الهدنة ، بصورة خاصة ، المئة وخمسة وعشرين الف يهودي المحاصرين في القدس من قبل الاردنيين من الشرق ، وجيش الانقاذ الذي كان يقوده اللواء فوزي القاوقجي ، والعراقيين من الشمال

والغرب ، ومن قبل المصريين من الجنوب . وكانت خزانات اللطرون ومضخاتها التي تموّن الاحياء اليهودية من القدس بالماء في ايدي القوات العربية . وسقوط القدس العطشى والجائعة لم يكن إلا مسألة ايام ؛ فاذا بوقف اطلاق النار يتيح للاسرائيليين ان يتزودا بالمؤونة اللازمة ، ويعيدوا اصلاح مضخات المياه في اللطرون ، وكذلك أفادت الهدنة الاسرائيليين لأنهم استغلوا وقف اطلاق النار لاعادة تنظيم صفوفهم واحتلال القرى العربية العزلاء .

أما الهدنة بالنسبة للجيوش العربية فقد كانت فترة راحة ، استعادت أنفاسها بعد الجولة الاولى مع اسرائيل . غير ان الجو الذي رافق المفاوضات أضعف الروح النضالية . والقيادات العسكرية العربية السبع لم تستطع ان تتفق على منهاج واحد للعمل ضد العدو المشترك .

— وفي اسدود كان النقيب جمال عبد الناصر يراقب المنطقة المصرية ، والمنطقة التي يسيطر عليها الاعداء من على سطح خزان المياه المشرف على المنطقة .

وفي المنطقة التي يحتلها الجيش المصري كان الجنود يرتاحون ويتناقشون في السياسة ؛ ويتصرفون كأنّ الهدنة ستؤدي الى السلام .

اما من الجانب الاسرائيلي ، فكانوا يعملون ليل نهار ، ويتحصنون ، ويتسللون الى أراض جديدة دون ضجة . في اليوم الاول من الهدنة تقدم العدو واحتل « العبدة » القرية العربية « التي تكاد تكون في خطوطنا » ؛ ثم احتل العدو « دوره » و « القصيمة » و « عسلوج » و « جولس » وجنوبي النقب .

لم يكن في استطاعة النقيب جمال عبد الناصر ان يرى جنوبي النقب من برج مراقبته في اسدود . وفي أثناء الهدنة الثانية المفروضة في الثامن عشر من تموز ، بصورة خاصة ، عمدت القوات الاسرائيلية الى احتلال

النقب . وكانت المعارك شديدة العنف خلال شهري تشرين الاول وكانون الاول . ومن المؤكد ان الاسرائيليين ، منذ شهر حزيران ، استغلوا وقف اطلاق النار لتحصين مواقعهم ، واحتلال مراكز جديدة في النقب .

مناورات « ربيكي »

في صفوف المصريين كان الجنود يستمتعون بالهدنة ، معتقدين ان الحرب « السياسية » ستنتهي . « كنا نعيش في أسدود وكأننا في احدى ثكنات القاهرة . تنطلق القهقهات من هنا وهناك تتخللها الكلمات الممتعة ؛ آنئذ سأل النقيب عبد الناصر احد الجنود فجأة : ماذا تفعل هنا ؟ فأجاب الجندي : « مناورات أفندم ! » قال النقيب : « أية مناورات ؟ » فجاء الجواب : « مناورات ربيكي يا سيدي » .

ان ربيكي منطقة عسكرية واقعة على طريق القاهرة — السويس ، اعتاد الجيش اجراء مناوراته السنوية فيها . والجندي في جهله كان يعتقد انه يشترك في مناورات تقليدية داخل الاراضي المصرية ، ولم يدر في خلده انه كان في حرب ضد عدو مخيف . لقد أضحكت هذه الكلمة الضباط الشباب كثيراً . واما جمال فقد صعقه هذا الجهل واللامبالاة وكتب في مذكراته : « لقد بكيت عندئذ بكاء مراً ، في مقر القيادة العامة » . واقتنع جمال بأنه ليس في ملاكات الجيش فحسب يجب ان يحصل انقلاب جذري ؛ بل يجب ان يتناول التركيب السياسي للشعب المصري ايضاً . ولذلك بذل النقيب جمال عبد الناصر منذ ذلك الحين جهده لادخال عناصر جديدة الى منظمة الضباط الاحرار . وكان يُحيط عمله هذا بالحذر الشديد ، ويتوخى قبل كل شيء الحصول على ثقة

فلسطين

زملائه ، وتوثيق علاقته بهم . مؤمناً بأن الثقة والصداقة تتحولان فيما بعد الى ما هو أدق . وفي مكتبة الكلية الحربية كان جمال قد طالع يوماً كتاباً لدال كارينجي « كيف نكسب الاصدقاء وتؤثر في الآخرين ؟ » وهو الآن يحاول ان يطبق عملياً نصائح العالم النفسي الاميركي ... وفيما كان ينظر حوله ، تعرّف الى عدد كبير من الضباط الاحرار ، كان قد قابلهم في الخنادق ، خلال هذه الحقبة المذهلة من حياته في فلسطين .

لقد ظن الملك فاروق ان الحرب ضد اسرائيل ، ستريحه من الضباط المتآمرين عليه ، انّ ظنّه قد خاب . أجل قد استشهد عدد كبير من العناصر الجديدة الممتازة في المعارك ، ولكن الحركة التحررية خرجت من المحنة الفلسطينية أقوى وأوسع .

كان على هدنة الشهر التي قبلت في اول حزيران ولم تنفذ الا في الحادي عشر منه ان تنتهي في الثلاثين منه ، وقد استمرت في الواقع حتى الثامن من تموز .

وفي الثامن والعشرين من حزيران ، عُقد مؤتمر للاركان العامة ، ووزعت تعليمات تقضي بشن هجوم عام فور اعلان انتهاء الهدنة . وتقرر ان يقوم الفوج السابع الذي وصل حديثاً الى الجبهة بمهاجمة « دوره » واحتلالها ، كما تقرر ان يبدأ الفوج السادس اعماله الحربية دون ان يحدد لها هدفاً معيناً . ولكن الدلائل كلها كانت تشير الى انه سيكون قرية « الجولس » المجاورة .

وتساءل جمال عبد الناصر : لماذا تركت القيادة المصرية العليا الاسرائيليين يحتلون القرى اثناء الهدنة ، ويحصنونها على مهل ، لتعود وتأمر بمهاجمتها بعد ان تكون قد أحيطت بالخنادق الواقية ؟؟ وقد ثارت ثائرته لاستخفاف القيادة العامة بحياة الجنود ، وصمم بسبب ذلك على ان يعد باعتناء زائد العملية المقترحة ، فذهب بنفسه يتعرف الى الاماكن لكن يُتاح له ان يهاجم بأقل خطر ممكن ، وأكبر حظ من النجاح . وقام بعملية الاستكشاف

هذه مع ضابطين ورقيبين ، في بساتين الجولس والدوره ، فوجدوا هناك عناقيد العنب الشهية التي تذوقوها وأيقنوا من ان وسائل الدفاع ضعيفة في هذه المنطقة ، والا كان العدو قطف هذه العناقيد المتدلية قبل وصولهم . وعاد جمال الى المنطقة في اليوم التالي بصحبة مقدم الفوج ورؤساء الكتائب ، ليعرف كل منهم محلياً ما هو الدور الذي عليه ان يقوم به ساعة الهجوم .

وفي السادس من تموز تقرر ان يبدأ الهجوم في الثامن منه ، وكان النقيب عبد الناصر يتيه افتخاراً لأنه اعد العدة جيداً لهذا الهجوم . «كل واحد من ضباطنا كان يعلم ماذا يجب عليه ان يفعل وكنا جميعاً على أتم الاستعداد . وكنا ننتظر فقط ان يحتل الفوج السابع الدوره ليتوجه الفوج السادس الى الخنادق » .

وفي السابع من تموز رقي النقيب جمال عبد الناصر الى رتبة « مقدم » وكان يتقد حمية وحماسة وكان على يقين من ان هذه العملية المعدة حسب اصول الفن الحربي في حال نجاحها سترفع معنويات الفوج ، وتجعله يقتنع بأنه متفوق على العدو .

نار حمراء عوضاً عن نار خضراء

ولسوء الحظ ، وقع خطأ ، قلب رأساً على عقب كل ما درسه الضباط الشباب من مبادىء استراتيجية في الكلية الحربية وكل ما اعدوه بلهفة لتنفيذه عملياً في حملتهم على العدو : « كان على مفرزة سودانية ، ان تهاجم « دوره » اثناء الليل وتستولي عليها بعد الهجوم المفاجيء . وفي حالة نجاح المهمة ، كان على المفرزة ان تشعل ناراً خضراء تجعل الفوج السابع يتقدم لمساندتها وشد أزرها . واما في حالة الفشل فكان عليها ان تشعل ناراً حمراء وتبتعد عن المكان لتتيح

لمدفعيتنا الثقيلة ان تتدخل وتدك الموقع » . والهجوم السوداني الصاعق نجح نجاحاً باهراً . ولكن عوضاً عن النور الأخضر الذي كان الفوج السابع ينتظره ، أعطى الجندي المكلف بهذه المهمة ، خطأ اشارة حمراء الأمر الذي حمل المدفعية الثقيلة غاضبة ان تدك قرية دوره التي يحتلها السودانيون .

وهكذا وجدت المفرزة السودانية نفسها تحت قنابل المدفعية المصرية ، مما اتاح للعدو الذي كان قد اخذ على حين غرة ان يسترد انفاسه ويقاوم ويستعيد الموقع الذي خسره . ولا يقول جمال عبد الناصر شيئاً عن عمل الفوج السابع الذي يظهر انه لم يتدخل . وكتب جمال عن ذلك : « في الفوج السادس ، كدنا جميعاً نُجن ، وكادت في الواقع ، تفشل العملية التي كنا قد أعددناها . وخسرنا هكذا ، مع جميع آمالنا ، الجهود التي بذلناها . ومخططاتنا اصبحت لا قيمة لها . ولم يبق امامنا سوى انتظار تسلسل الأحداث راجين من الله ان يمنحنا فرصة جديدة لدعم مركزنا » .

في الحقيقة ، كان ينقص الفوجين السابع والسادس القوة المؤثرة في الهجوم على موقع بيت دوره . ان جهل الجندي السوداني ، الذي أفسد الخطة الموضوعة ، لم يكن يستدعي ايقاف العملية كلياً . وكان من الممكن اكثر دعم المركز بعمل جماعي سريع ترافقه خسائر مؤسفة . وذلك كان خيراً من ان « نرجو الله ليمنحنا فرصة لدعم مركزنا . » والفكرة القائلة بأن الحرب لم تكن حرباً حقيقية بل حرباً سياسية اوقفتها الهدنة بناء على قرار اتخذه مجلس الأمن التابع للامم المتحدة في نيويورك ، كانت قد اضعفت روح القتال عند القوات المصرية . اما الاسرائيليون الذين جاؤوا الى فلسطين لأن حياتهم وكرامتهم كانتا في خطر من حياة التشرد فكانوا يدافعون عن مستعمراتهم لأنهم قرروا ان يوجدوا مكاناً لهم يعيشون فيه ولو كلفهم ذلك حياتهم ، بعكس الجنود

المصريين الضائعين بعيداً عن مسقط رؤوسهم الذين كانوا يخلطون بين الحرب ومناورات ربيكي . وكان يمكن ان تكون الحالة غير ذلك لو ان الجندي المصري كان يحارب في وادي النيل ، في الدلتا او الصعيد، دفاعاً عن أرضه وبيته وعائلته .

ان مذكرات الرئيس جمال عبد الناصر تؤكد البلبلة التي كانت تهيمن على الجنود والضباط المصريين .

في التاسع من تموز ، غداة الهجوم الفاشل ، كان المقدم جمال عبد الناصر وزملاؤه يتناولون طعام الفطور في مطعم الفوج السادس ، عندما جاء ساعي البريد العسكري يسلمه امراً مختوماً يقضي بأن يترك الفوج السادس مكانه للفوج الخامس القادم من غزة ، ليهاجم غداً في التاسع من تموز قرية الجولس ..

لم يكن في هذا الأمر شيء غريب سوى وصوله الى الفوج السادس متأخراً يوماً واحداً . ولم يكن ذلك الا تأكيداً لمخطط العمليات التي انقطعت ، في الأمس ، على أثر الخطأ الذي ارتكبه الجندي السوداني في اعطاء الاشارة . والخنادق التي كان يجب ان يحتلها الفوج السادس عندما يكون الفوج السابع قد احتل دوره ، هي بدون شك خنادق الجولس ، والا اقتصر عمل الوحدة التي يقودها جمال عبد الناصر على احتلال القرية المأخوذة على حين غرة في الليل على يد مفرزة سودانية يساندها الطابور السابع بأكمله . وكان يبدو منطقياً ان يكون عمل الفوج السادس ، في الهجوم العام المقرر في القيادة العليا ، موجهاً ضد قرية جولس المجاورة التي تشرف على بيت دوره .

ومع ذلك كتب جمال عبد الناصر : « لقد ثارت ثائرتي ، ولأول مره في حياتي ، رحت احتج في ساحة القتال على امر صدر عن رؤسائي – والضباط الآخرون كانوا ايضاً فريسة لشعور مماثل – لقد وجدنا انفسنا فجأة امام عملية لم نكن ننتظرها ولم يقل لنا احد شيئاً عن

موقع جولس ، ولا عن القوات العدوة التي كانت تدافع عنها ، ولا عن القوات المصرية التي كانت تحاصرها .

معركة سيئة القيادة

لم يكن قائد الفوج السادس ، الذي تلقى بعد ظهر التاسع من تموز امراً بوجوب الاستيلاء غداً على قرية الجولس ، يعتقد انه قادر على تنفيذ الامر مباشرة ومع ذلك استخدم الثلاث الساعات الباقية حتى الغروب للذهاب والتعرف الى مراكز العدو . فهو لم يكن يريد ان يخاطر في فشل جديد ولم يكن على استعداد لاعادة تجربة دنقور المريرة التي كانت اول لقاء بين الفوج والاعداء ، هذا اللقاء الذي ترك في مخيلة الجنود ذكرى مؤلمة .

تقدم المقدم عبد الناصر وزملاؤه في ظلال الاشجار الى مسافة كيلومتر فقط من الجولس ثم عادوا الى المعسكر عندما بدأ العدو يطلق قنابله في اتجاههم اذ شعر بقدومهم نحو مراكزه.

وبعد عودته الى المقر العام في الليل ، راح المقدّم يعدّ الخطط لعمليات الغد الحربية . واقترح القيام بشبه هجوم من البساتين حيث لا بدّ للعدو الذي تعرّف الى الضباط الكشافة من ان ينصب شركاً ؛ بينما يتم الهجوم الرئيسي من الخلف بعد ان يتمّ التسلل عبر حقول الذرة . ولكن خلافاً وقع بين ضابط الاركان العامة وقائد الفوج الذي راح يسخر ويسفّه «نظريات الكلية الحربية» . وبينما كان جمال عبد الناصر من انصار برنامج محدّد ، يعيّن مسبقاً دور المدفعية والطيران ، كان القائد يودّ ان يحتفظ لنفسه بقيادة هذين السلاحين اللذين سيُعطي لهما اوامره الهمايونية « عندما يرى ذلك مفيداً » .

بدأت المعركة في الفجر . وكان القائد وضابط الاركان العامة

يراقبهما من على برجها وهو خزان مياه اسدود على الارجح. وفجأة اخذت المعركة اتجاهاً غير مستحب ان لم يكن مقلقاً . فاذا بالقائد يقرّر : « لنذهب ونرى ماذا حلّ بجنودنا الذين يحاربون اسفل التلة » :

حاول المقدم جمال عبد الناصر ان يُفهِم رئيسه بان دور القائد ليس في قذف نفسه في خضم المعركة ، بل ادارة مختلف العمليات وابقاء الاتصال مع كل الوحدات المقاتلة . غير ان رئيسه لطيبة قلبه لم يُصغِ اليه بل توجّه مع نائبه نحو ميدان القتال . وما كادت سيارتهما تتحرك حتى غرزت في الوحل فاكملا طريقهما على الاقدام واقتربا من المشاة المندفعين بشجاعة نحو مراكز الاعداء . ورأى القائد جنوده يخرون تحت نيران العدو ، بعضهم صرعى وبعضهم جرحى فبدأ يرغي ويزبد كالثور الهائج قائلاً : « جنودنا يموتون » .

وكان هناك بطارية من اربعة مدافع تنتظر الاوامر لتبدأ باطلاق النار . فامرها القائد بان تقترب جهد المستطاع من الجولس، بين حقول الذرة لتقصف المركز بمجرّد ان يصبح تحت مرمى قنابلها . وكلّف جمال عبد الناصر بمرافقة البطارية ، مع ان مكانه يجب ان يكون المقر العام حيث لم يبق احد للسهر على حسن تنفيذ المخطط الموضوع للعمليات: ثار المقدم الشاب ولم يرد ان يظهر جباناً تنقصه الشجاعة. فرافق البطارية، واعطاها تعليمات البدء في عمليات القصف ثم عاد على جناح السرعة الى المقر العام حيث وجد الرسائل القادمة من الجبهة ، التي لم يرد احد عليها . في الاولى يقول المرسل : « لقد وصلنا الى الهدف » ، وفي الثانية يطلب : « ارسلوا لنا ذخائر » ، بينما يطلب في الثالثة حمالات لنقل الجرحى : حاول جمال ان يُعيد الاتصال بين الوحدات المقاتلة ، ولكنه علم بان قائد الفوج كان قد اعطى امره بالتراجع ، دون ان يعلم بذلك كل المفارز العاملة تحت امرته : امضى جمال ليلة مخيفة ، يقض مضجعه خبر موت الضابط الذي رافقه في جولته الاستكشافية بين بساتين

بيت دوره ويُقلقه فقدان ثقة الفوج في رؤسائه :

في صبيحة الحادي عشر من تموز ، جاءت رسالة من القيادة العامة في غزة تأمر قائد الفوج بان يولي القيادة الى مساعده ويعود فوراً الى القاهرة . ثم جاءت رسالة ثانية تقول : « يؤمر الفوج السادس بوجوب احتلال الجولس اليوم » .

كان جمال عبد الناصر مقتنعاً تمام الاقتناع بان العملية مستحيلة : فالجنود في حالة انهيار رهيبة جعلتهم غير قادرين على تنفيذ هذا الامر. لذلك توجّه القائد المساعد مع ضابط اركانه الى مقر القيادة العامة في غزة . وهناك وجدوا في مكتب سلاح الطيران ، مجموعة ثمينة من صور موقع الجولس كان المسؤولون قد اهملوا ارسالها اليهم . وهذه الصور تظهر ان هناك مركزاً للاعداء على رأس التلة يشرف على القرية الواقعة في المنحدر . واحتلال الجولس دون السيطرة على هذا المركز المشرف عليها معناه وضع القوات المصرية تحت رحمة الاعداء وعلى مرمى من نيرانهم . فثار المقدم جمال عبد الناصر ضد ضباط الاركان العامة الشبان، القابعين مرفهين وراء مكاتبهم في مقاعدهم المريحة ، لا يخامرهم اي اهتمام بامر الجنود المحاربين في الخنادق ، ولا بالصعوبات التي تسببها لهم اوامر متناقضة ؟!

المقدم عبد الناصر يصاب في صدره

ومهما يكن من امر فان الواجب يقضي بالاستيلاء على الجولس. وهذا الاحتلال ينبغي ان ينفّذ ليفصل عن النقب مجموعةً من المستعمرات اليهودية المحصّنة . والهجوم موجّه ايضاً ضد النقب حيث الاسرائيليون على مفترق طرق هام . رافق جمال عبد الناصر في سيارته الضابط المكلف بالعملية واثناء الطريق دوّت طلقات نارية من حقل ذرة مجاور . وشعر

جمال بشيء في صدره واذا بالدم يسيل بغزارة وعن ذلك يقول في مذكراته : « لقد اصابتني رصاصة في صدري ، وبدا لي انها استقرت قرب القلب . وحاولت ان اوقف النزيف بمنديلي ، بينما انتابني شعور غريب . لم اكن اشعر باي خوف او حزن . وانما كنت مغموراً بالاسف ، وارتسم امام ناظري السؤال الرهيب : « ترى هل هذه هي النهاية ؟ » كان جمال يفكر في طفلتيه هدى ومنى ، وفي كل اسرته . وبينما كانت السيارة تُسرع نحو مستشفى المجدل ، تذكر عبد الناصر طفولته وفتوته ، والاولاد يلعبون في البيت ، وتذكر الضباط الاحرار الذين اقسموا على تحرير وطنهم ، وتذكر ايضاً المفاجآت المؤلمة في حرب فلسطين ، كما تراءت له شجاعة الجنود والضباط في الجبهة على الرغم من الصعوبات .

وفي مستشفى المجدل كشف عليه الطبيب . وكان الدم يسيل بغزارة ومع ذلك لم تكن اية رصاصة قد دخلت الى صدر المقدّم . ويظهر ان القذيفة اصابت السيارة المصفحة فتفتت الغلاف الفولاذي المنكّل المحيط بالرصاص ، واصابت شظية منه صدر جمال فأسالت منه هذه الدماء . تمدّد المقدم على طاولة العمليات فاستخرج الجرّاح من صدره شظيتين من النيكل . وحمد جمال الله الذي قد انقذه .

في مستشفى المجدل لاحظ جمال مرة اخرى سوء التنظيم في الخدمات . اذ طلب ان يقدّم اليه الطعام فقيل له يجب ان يأتيك طعامك من الفوج الذي انت ملحق به . وكان هذا الطابور المسكين في ذلك الوقت يُعاني في الجبهة الامرين ويطلب عبثاً ان ترسل اليه المؤونة والذخيرة من قيادة عامة لا ترى ولا تسمع . وحتى يحصل جمال على طعام له ذهب احد الجنود الى سوق المجدل واشترى للجريح ثلاث قطع من اللحم المشوي وعنقوداً من العنب .

لم يمض طويل وقت، حتى بدأ الجرحى المصابون اثناء عملية الهجوم على النقب ، يفدون بالعشرات على مستشفى المجدل . وكان المقدم جمال عبد الناصر الذي انهكه النزيف وحطمته الصدمة العصبية ، في حاجة الى قليل من الراحة . ولكن الحالة كانت مخيفة حوله وهو يصف ذلك فيقول : « ان ثياب كل هؤلاء الجنود كانت ملطخة بالدماء ، وكنت تسمع الزفرات والأنين الذي كان يبذل الجرحى جهدهم لاخفائه مستعملين كل ما لديهم من شجاعة . وقد اصيب احد رفاق السلاح من تلاميذي في الكلية الحربية بصدمة عصبية . وصار يهذي بصورة لاشعورية . وما زلت اذكر اليوم الذي جاء فيه بثيابه المدنية الى الكلية الحربية . لقد حاولنا ان نخلق منه رجلاً عسكرياً .-وها هو ذا المصير الذي اعددناه له . لقد أمضيت ليلة بيضاء ، لم يغمض لي فيها جفن . كنت افكر في الحرب نفسها . في الحرب التى أمقتها ، ليس بالتحديد الحرب التي كنا نعيشها ، بل الحرب بصورة عامة ، اي حرب . وكنت اقول في نفسي ان الانسانية لا تستحق الحياة والبقاء اذا كانت لا تبذل قواها جميعاً من اجل السلام .

وجاء صديق ، تبادل معه المقدم الجريح بعض الأحاديث ثم افترقا وبعد لحظات رن جرس التلفون ليعلن ان الصديق الذي خرج منذ لحظة قد قتل بقنبلة .

لقد بذل المقدم جمال آنئذ جهداً كبيراً لضبط مشاعره لأن الانسياق وراء المشاعر ليس من شيم الجندي . وما كان منه الا ان اعلم الجهاز المختص باجراء عملية الدفن . وتعقيباً على ذلك كتب جمال « لقد عاهدت نفسي منذ ذلك الحين ، فيما اذا صرت يوماً مسؤولاً ان افكر الف مرة قبل ان ادفع جيشنا الى هاوية الحرب . ولن افعل ذلك الا عند

الضرورة القصوى ، يوم يكون الوطن مهدداً بالخطر ولا سبيل الى دفع الخطر عنه الا بالحرب ».

لقد وصل الى المستشفى قائد الفوج السادس ، وزار المقدم الذي زال اجازة يوم بعد الانهاك الذي الحقه به النزيف الدموي والصدمة العصبية وقد سأله جمال عما حل بالقوات الكشافة التي كان قد رافقها صباح امس الى مفترق الطرق المؤدي الى النقب ومجموعة المستعمرات اليهودية .. فأجاب القائد ان العدو قد هاجمها اثناء الايل ، فدافعت عن نفسها بالحراب والقنابل اليدوية ، واضطر العدو الى الانسحاب بينما تمركز جنودنا في الخنادق .. ثم سأل جمال : « وماذا حل بالهجوم الرئيسي على النقب ؟ » فكان الجواب :

« لقد فشل . ان الفوج التاسع لم يُشرك في القتال سوى مشاته فقط. وكان قائده يرسل جنوده على دفعات متتالية طعاماً لنيران العدو . وهكذا قضى اكثر من النصف . وانتهى الأمر بهذا القائد الى وقف المعركة واعطاء الأوامر بالتقهقر الى مراكزنا الاولى . وهل كان من الممكن ان ينجح هجوم على مستعمرات محصنة بدون دبابات ؟ !

كان المقدم الجريح يود ان يعلم ، في هذه الحالة ، ماذا حل بالمفرزة التي تمركزت عند مفترق الطرق . هل انسحبت من مراكزها ؟

اجاب المقدم !

– مع الأسف ، كلا !

خرج جمال عبد الناصر عندئذ عن طوره ، لعلمه بأن القوات العدوة، وقد تخلصت من الهجوم الرئيسي ، لا بد ان تنقلب نحو فريق الكشافة لتقضي عليه . قال القائد عندئذ بيأس :

– وماذا كنت تريدني ان افعل ؟ لقد اتصلت بالقيادة العامة طالباً السماح لي باعطاء الأوامر لهذه المفرزة بالانسحاب . فأجابني بأن هذا تخرج عن نطاق صلاحياتها : وجواباً على ذلك صرخ جمال :

ــ ولماذا لم تتصل بتلك السلطة الاخرى ؟ قال القائد : « لقد فعلت ذلك ، ولكنني تلقيت الجواب ذاته » .

على الاثر ، قفز جمال عبد الناصر من سريره وسار مع القائد الى الأركان العامة ، حيث ، حصلا بعد الحاح شديد، على الأمر بالانسحاب والأمر بمساعدة المدفعية لانقاذ المفرزة المحاصرة من قبل الأعداء . وقد أتاح القصف الشديد لمراكز الأعداء ، وقنابل الأعداء ، وقنابل الدخان ، للمفرزة التي أظهرت من البطولة ما لا يوصف ان تنجو وتلتحق بفوجها .

لم تكن هذه المعركة شريفة

كان جنود الفوج السادس منهوكي القوى ، اذ انهم منذ خمسة ايام وهم في المعركة لم يغمض لهم جفن . كانوا في حاجة ماسه الى الراحة في معزل عن ازيز القنابل فأشير اليهم بأن يدخلوا معسكراً بريطانياً سابقاً مهجوراً ، قرب تلة نيتساليم .

دخل المقدم جمال عبد الناصر وجنوده فرحين هذه الأبنية التي فقدت سقوفها وأبوابها ونوافذها . ولحسن الحظ كانت جدرانها عازلة واقية . ويقول جمال : « بسطت امتعتي على الأرض في غرفة قديمة ونمت تحت سماء متلألئة النجوم . ولكنني لم انعم طويلا بهذا المشهد الجميل » .

ما كاد الفوج يحط رحاله حتى وصلت رسالة تطلب ارسال كتيبة لنجدة الفوج التاسع الذي يحارب في أسدود . وهذه كتيبة اخرى يجب ان ترسل الى عراق سويدان . ثم هذه ثالثة طلبت على جناح السرعة للتوجه الى غزة ، حيث اصبحت القيادة العامة بدون حماية ، بعد ان اشركت كامل قواتها لقصر نظرها ، في معركة عامة ضد مستعمرة « بيرون أشاك » .

فثارت ثائرة المقدم عبد الناصر لالحاقه ضابط اركان حرب في طابور

بدون جنود ، بعد ان وزع جنوده على الافواج الاخرى . وفي ليل ١٧ – ١٨ تموز كان جمال في معسكر نيتساليم يصغي الى راديو القاهرة يعلن ان مجلس الامن الدولي قرر مرة ثانية وقف اطلاق النار ، في الغد عند الساعة الخامسة بعد الظهر ، وأدرك ان الاسرائيليين سيفيدون كما حدث في الهدنة الاولى من وقف اطلاق النار لتثبيت اقدامهم والاستيلاء على مراكز جديدة . وفي الثامن عشر من تموز ، بعد الساعة الخامسة شاهد ثلاث طائرات اسرائيلية تهاجم وتنسف طائرة مصرية كانت عائدة بسلام الى قاعدتها « لم يكن ذلك معركة شريفة بل كانت جريمة . »

أمضى المقدم جمال عبد الناصر ليلته في ملجأ لا سقف له وفي رأسه فكرة واحدة لا تفارقه « ما دامت القاهرة والاركان العامة تقودانا بهذه الصورة ، فلن يُتاح لأي منا ان يقود معركة بشروط متكافئة للدفاع عن حياته والذود عن شرف وطنه .. سنظل نقتل هكذا عن طريق الغدر والخيانة . »

.

هدنة دائمة الخرق

كتب جاك رينييه عن الهدنة الثانية التي فرضتها الامم المتحدة في ١٨ تموز سنة ١٩٤٨ ، يقول بأنها لم تكن مطلقاً موضع احترام : « استمرت المعارك في كل مكان ، ولكن على العموم ، في نطاق أضيق كأنها سرية . كان اليهود قد ربحوا ايضاً أراضي كثيرة ، فاحتلوا الجليل كله تقريباً .. وفي الجنوب أخذوا قسماً من النقب وأصبحوا على البحر الميت يفصلون تقريباً بين المعسكرين في منطقة حبرون – بيت لحم وبين قاعدتهم في غزة .. وفي آب وايلول استمر الضغط اليهودي بدون انقطاع . وهكذا اغتصبوا البلاد عن طريق الحيلة والخداع والمفاجأة . « اما ممثلو الامم المتحدة الذين بلغ عددهم اربعمائة مراقب فلم

يستطيعوا شيئاً . وهؤلاء المساكين الذين يستحقون التقدير والاعجاب كانوا مجردين من السلاح والصلاحية القانونية الفعليـة ، فهم مثلاً لم يحصلوا مطلقاً على اذن من اليهود لدخول مرفأ يافا ، ولا الى حيفا، في كل مرة كان يجري فيها تفريغ أسلحة أو انزال مهاجرين جدد ، كان عليهم ان ينتظروا ساعات ؛ واحياناً اياماً ، قبـل ان يسمح لهم بالذهاب الى مكان المعركة . واولئك الذين كانوا يتجاوزون هـذه الحواجز ، التي لم تذكر رسمياً مطلقاً ، كانوا يقتلون ، أو يقعون في قبضة البوليس الحربي الذي يعيدهم الى مراكزهم ، بحجـة المحافظة على سلامتهم ..

« وكان المقصود من معركة النقب احتلال المنطقة الجنوبية شبه الصحراوية من فلسطين ، وهي المنطقة التي يدافع عنها المصريون .

« بدأت هـذه المعركة في الرابع من تشرين الاول سنة ١٩٤٨ وانتهت في السابع من كانون الثاني سنة ١٩٤٩ ، ومن المستحسن ان نتذكر بأنه كان هناك هدنة مفروضة . ولكن يظهر ان وجود هـذه الهدنة لم يلزم احداً . وفي كل مرة كان يجد اليهود أمامهم مقاومة حسنة الاعداد فان ذلك كان أمراً غير عادي . لقد حرص المصريون على احترام الهدنة بعد المعركة ، الأمر الذي سبب خسارتهم . كانوا يصدقون اليهود والامم المتحدة بأن كل شيء انتهى كما كانوا يدعون ، وان القضية ليست سوى تقويم حدود ، أو حادث ناتج عن سوء تفاهم .

« وكان المصريون يحاربون بكل امكاناتهم وطاقتهم ، على الرغم من انهم في أكثر الاحيان كانوا يجدون طرق اتصالاتهم مع قواعدهم في غزة ومصر مقطوعة : وحامية الفالوجة قاومت الحصار طيلة شهرين من الزحف وخرجت من هذا الحصار مرفوعة الجبين ...

« ومن الغريب حقاً الملاحظة انه خلال كل هذه المعركة الطويلة في النقب لم يتدخل أي جيش عربي ، لا الاردنيون ولا العراقيون ، ولا

المتطوعون ، ولا حتى السوريون .. »

ان هذه الاسطر التي كتبها شاهد عيان محايد ، كان في مركز فريد في فلسطين ، بوصفه مندوباً للجنة الدولية للصليب الاحمر ، تُنير وتؤكد ما كتبه الرئيس جمال عبد الناصر في مذكراته عن هـذه المرحلة الثانية من حرب فلسطين .

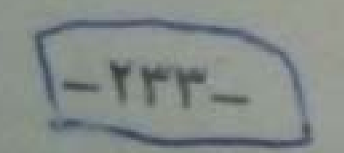
ما لم يرد ذكره في مذكرات عبد الناصر

قبل ان نستخلص الفائدة من ذلك المستند ، ونبحث عن تأثيراته في تكوين شخصية الرئيس جمال عبد الناصر وفي سياسته ، لنذكر ما لم يرد فيها .

انه اولاً لا يحتوي أية اشارة الى نشاط الوسيط الذي اختارته الامم المتحدة الكونت السويدي برنادوت الذي عرض في حزيران ١٩٤٨ مشروعاً لتقسيم فلسطين ، أكثر واقعية ومنطقاً ، وأفضل من مشروع الامم المتحدة بالنسبة للعرب . وقد أثار هذا العرض كما نعلم حفيظة الصهاينة المتعصبين . وفي الحادي عشر من ايلول سنة ١٩٤٨ خرّ الكونت برنادوت صريعاً في القدس برصاص احد الارهابيين من عصابة « شترن »

انا ندهش عندما لا نجد في مذكرات المقدم عبد الناصر أية اشارة الى نبل الوسيط الدولي وشجاعته . لقد وقف الكونت برنادوت موقفاً موضوعياً جريئاً في وقت كانت فيـه الدول الكبرى تتهرب من تحمل مسؤولياتها وتساعد في هـذا التهرب العصابات الصهيونية على طرد الفلسطينيين العرب من ديارهم .

وكذلك لا بدّ من ان نتساءل عن عدم وجود أية اشارة ايضاً الى مأساة الشجاع احمد عبد العزيز قائد الفدائيين العرب ، واستاذ الفروسية في الكليـة العسكرية الذي قتل خطأ برصاصة طائشة اثناء مروره في



سيارته قرب عراق المنشية في ٢٣ آب سنة ١٩٤٨ ، وفي كتاب « فلسفة الثورة » يذكر جمال عبد الناصر العبارة التي كان قد تفوه بها الوطني الكبير أمام كمال الدين حسين قبيل موته : « اسمع يا كمال ، ان ميدان الجهاد الاكبر هو في مصر ... لن تنتصر القومية العربية هنا في فلسطين إلا بعد انتصارها هناك » .

وفي مذكرات جمال عبد الناصر عن حرب فلسطين لا نجد أية كلمة عن الدور الذي لعبه في حرب فلسطين اللواء محمد نجيب الذي حارب بشجاعة ، مما أدى الى جرحه جرحاً بليغاً . ويعرف ذلك جيداً مساعده المقدم عبد الحكيم عامر ، وبفضل تصرفاته في المعركة وصفاته كمنظم وقائد استطاع ان يحوز على عطف الضباط الاحرار الذين جعلوه فيما بعد رئيساً لهم .

في عام ١٩٥٥ كنا لا نزال قريبين من أزمة سنة ١٩٥٤ التي دت الى فرض الاقامة الجبرية على اللواء . ولعل إغفال الرئيس جمال عبد الناصر لذكر اللواء محمد نجيب في خطابه الموجه الى طلاب الكلية العسكرية ناشىء عن ذلك . ونحن نذكر ان اللواء محمد نجيب ما كاد ينتخب رئيساً للجنة التنفيذية للضباط الاحرار قبيل الثورة ، حتى راح يسعى بعد ان أصبح رئيساً للجمهورية لفرض سياسة معاكسة لتلك التي رسمها عبد الناصر ووافق عليها أكثرية رفاقه في مجلس الثورة .

وكذلك في مذكرات الرئيس جمال لا نعثر على اية اشارة عن الشجاعة التي اظهرتها كتائب المتطوعين المصريين في القتال . واكثر هؤلاء كما نعرف من الاخوان المسلمين . ولا يرد ايضاً ما يشير الى مصرع النقراشي رئيس الوزارة المصرية بعد ثلاثة ايام فقط من اصدار قرار حل جمعية الاخوان المسلمين في كانون الاول سنة ١٩٤٨ . ان انور السادات نفسه قد وصفه بانه انزه رجل دولة في العهد البائد . ان احداثاً كهذه كانت قد تركت ولا شك اثراً عميقاً في معنويات

اولئك الذين كانوا يحاربون في فلسطين . إنْ في صفوف الجيش او في صفوف المتطوعين .

ويبدو ان الرئيس جمال كان يرغبُ في اسدال ستار النسيان على اعمال بطولة الاخوان المسلمين الذين تحوّلت جمعيتُهم الى منظّمة ارهابية حاولت ان تغتاله شخصياً في تشرين الاول سنة ١٩٥٤ .

لذلك لا ينبغي والحالة هذه ان نبحث في مذكرات الرئيس جمال عبد الناصر عن كل الحقيقة عن حرب فلسطين . انها تقدّم لنا نظرةً جزئية عن العمليات العسكرية وتحتوي الافكار التي رأى من المناسب بثّها في نفوس الضباط الشبان عام ١٩٥٥ في الوقت الذي كانت اسرائيل تهدّد من جديد جيشاً مصرياً قد أعيد تنظيمه على اسس جديدة. فالرئيس جمال عبد الناصر كان يعلم بان الاسلحة كانت غير كافية . ولكنه لم يقل ذلك ، ولم يعترف به الا في الخريف عندما كانت قد تمّت صفقةُ الاسلحة التشيكية فعدّلت الموقف .

وفي حزيران سنة ١٩٥٥ تلقّت مصرُ من بريطانية صفقةً من الاسلحة قد اوصت عليها الحكومةُ الوفدية عام ١٩٥١ ، وتضمُّ بعض دبابات (سنتوريون) ،ولكن هذه الصفقة كانت ضئيلةً غير كافية. ان الرئيس جمال عبد النـاصر كما ذكر دسموند ستيوارت كان شخصياً في بدء الثورة من معارضي فكرة احداث جيش مصري كبير باهظ التكاليف ، الامر الذي كان يصرّ عليه بعض زملائه من الضباط الاحرار :

وقد اوضح الرأي نفسه الصحفي البريطاني توم ليتل الذي يروي انه في تشرين الاول سنة ١٩٥٤ في المؤتمـر الصحفي الذي عقبَ توقيعَ الاتفاق البريطاني - المصري الخاص بالجلاء عن قناة السويس سمع احدَ الصحفيين المصريين المتحمسين يسأل فيما اذا كان هذا الاتفاق سيتمخض عن خلق جيش مصري قوي في قاعدة القنال .

وقد أحالَ الرئيسُ هذا السؤال الى القـائد الاعلى لقواته المسلحة

اللواء عبد الحكيم عامر الذي اجاب بان توسيع الجيش المصري يجب ان تحدّده ضرورة تطوير مصر اجتماعياً واقتصادياً :

وبعد عشرة اشهر من ذلك التاريخ كانت الحكومةُ المصرية تحوّل قسماً كبيراً من صادرات البلاد لدفع ثمن الاسلحة التشيكية التي اشترتها .

في اثناء ذلك كان خطر اسرائيل قد تفاقم : وكان عدوانُها على غزة في ١٨ شباط سنة ١٩٥٥ قد فتح عينَ الرئيس جمال عبد الناصر على الحقيقة :

ان هذه البيّنات تحدّ من الاهمية التاريخية لما نشره الرئيس جمال عبد الناصر ، وما ان يشار الى هذا الحد حتى تصبحَ مذكراتُه خزاناً لمعلومات صادقة تمام الصدق وافكار تقدّم افضل الشروح لتطور حركة الضباط الاحرار .

اجازة في القاهرة وعودة الى الجبهة

بعد الهدنة الثانية المفروضة في ١٨ تموز سنة ١٩٤٨ اصبحت الحربُ السياسيةُ حرباً عفنة بدأت تتلاشى بسببها غريزة القتال لدى المحاربين المصريين ، اذ كان الجنودُ والضباط لا يعلمون لماذا جاءوا الى فلسطين وبعد ان تعب الفوج السادس في خرائب معسكر نيتساليم المهجور قصد المقدم جمال عبد الناصر ورفاقه المدن المجاورة كغزة والمجدل ، وهناك وجدوا اصدقاءهم . وفي المساء ، تحت سماء متلألئة النجوم ، كان احد جنود الفوج ، وهو بائع ثلج سابق ينغم انشودات قروية تضرم نار الحنين الى الوطن في نفوس المحاربين البعيدين عن ديارهم :

آنذاك حصل المقدم على اجازة اربعة ايام ، ولدى عودته وجد القاهرة كما هي تحتفظ بطابعها اليومي الخاص ، الذي لا مكان لحرب فلسطين فيه : وفي الاركان العامة أعلن وصول أسلحة جديدة ، ولكن المقدم

الشاب لم يصدقهم :

في القاهرة لقي جمال عبد الناصر من جديد صديقه عبد الحكيم عامر الذي التهب جرح في يده ، كما قابل قائد الجناح حسن ابراهيم ، احد الضباط الأحرار الذي كانت مهمته تحويل الطائرات المصرية المدنية الى طائرات حربية :

والجدير بالذكر ان جمال عبد الناصر امضى صبيحة آخر يوم من اجازته في حديقة الحيوان حيث اخذ ابنته الصغرى منى التي لم ينسها مطلقاً وسيذكرها كثيراً في عراق المنشية عندما سيصادف فوق الأطلال المحطمة بعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا في براثن الحصار بعد ان دمرت بيوتهم وضاع كل ما يملكون . وعن ذلك كتب يقول : « لقد رأيت بينهم طفلة صغيرة ، كانت في عمر ابنتي منى ، وكنت اراها وقد خرجت الى الخطر والرصاص الطائش مندفعة امام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش او خرقة قماش .

« وكنت دائماً اردد في نفسي ، قد يحدث هذا لابنتي » .

بسبب الحياء الصعيدي لم يتحدث جمال عبد الناصر مطلقاً عن زوجته الأمينة الصبور تحية كاظم ، التي كانت الشريكة الفعلية في الهموم والثورات التي كان يقودها زوجها الضابط الوطني ، بل يتحدث من حين لآخر عن ابنائه الذين كان ينسى بالقرب منهم سخطه على الكبار ومعركته ضد عالم ظالم فاسد ؛

وبعد العودة الى الجبهة وجد المقدم جمال عبد الناصر من جديد « السلام في الحرب والحرب في السلام » ويقول : « كنا رجالاً رابضين في الخنادق فريسة لقلق اشد خطراً من العدو الذي كنا نحاربه » .

في اواخر شهر آب سنة ١٩٤٨ كما ذكرت سابقاً قتل الزعيم احمد عبد العزيز قائد الفدائيين المصريين في فلسطين وكان الى جانبه المقدم صلاح سالم ، وقد سبب مقتله حزناً شديداً في نفوس الضباط الاحرار

وكيف يكمم لبوشه كل هذا الأثر و سيغفل ذكره ؟

الذين كانوا في اكثرهم تلاميذ له في الكلية الحربية :

وفي التاسع من ايلول عقد مؤتمر الأركان العامة ، ونقـل الفوج السادس من نيتساليم الى المنطقة المجاورة لعراق المنشيـة وبيت جبرين . وكان عليه ان يؤمن الاتصال بين القوات المصرية المعسكرة في بيت لحم وحبرون ، وتلك التي تعسكر في المنطقة الساحلية بين المجدل وغزة ؛ مع العلم ان عراق المنشية التي يجتـازها الطريق الرئيسي بين حبرون، المجدل ، غزة ، تبعد مسافة كيلومترين عن مركز الفالوجة المحصن الذي يحميها . وبين عراق المنشية والمجدل مفترق طرق هام يسيطر عليه مركز عراق سويدان حيث اقام الفوج التاسع بطارية قوية من المدافع .

في ايلول كانت عرق المنشية لا تزال قرية مزدحمة بسكانها الألفين واللاجئين اليها من القرى العربية المجاورة ، والمستعمرات اليهودية تحيط بالقرية من كل الجهات وعلى مسافة كيلومترين الى الشمال تقع مستعمرة « جات » والى الجنوب مستعمرات « رحات » و « جاماما » وغيرهما وبعض القرى العربية كانت لا تزال قائمة في المنطقـة التي ينبغي الدفاع عنها والتي يبلغ طولها نحواً من ثلاثين كيلو متراً تقريباً . وقد لاحظ المقدم جمال عبد الناصر ان قواته ، اذا ما نشرت على طول هذا الخط الدفاعي فانه سيعوزها الوحدات السريعة الحركة اللازمة لتسلم المبادرة في العمليات :

ومع ذلك بدأت هذه المرحلة الجديدة من النشاط .. في نطاق الهدنة بانتصار .

آنئذ اعلم الحاكم المصري لبيت جبرين المقدم جمال عبد الناصر بأن العدو احتل قرية خربة الماعز ، وبدأ يحفر الخنـادق ويحصن مركزه الجديد . وأضاف الحاكم انه استعداداً للطوارىء قد عبـأ محلياً بعض المتطوعين الذين راحوا يقلقون بال العدو وهم في حاجة الى مساندة .

ان احتلال القوات الاسرائيلية في فترة وقف اطلاق النار لقريـة عربية وتحويلها الى قاعدة عسكرية ، هو بلا ريب خرق فاضح لشروط الهدنة ، لقد قدمت الاحتجاجات . ولكن الاحتجاج لا يؤدي الى شيء لذلك ما ان اعلم المقدم الأركان العامة بما حدث حتى امرتـه بوجوب طرد العدو من خربة الماعز .

فترك بيت جبرين على رأس كتيبة من سبعين جندياً بعد ان كان قد ارسل الى القرية عن طريق اخرى سيارتين مصفحتين ، وبطاريتين من « الفيكرز » وست شاحنات وكان ان هرب العـدو ودخل المشاة المصريون القرية ، دون ان يتكبدوا اية خسائر ، بينما ترك العدو وراءه عدداً من القتلى .

وكتب المقدم جمال عبد الناصر يصف حماسة العائدين من جنوده الى عراق المنشية بعد تسليمهم خربة الماعز الى المتطوعين العرب : « بالطبع كان الحظ الى جانبنا ، وقد عدنا في الليل وكان جنودنا يقفزون من الفرح ، وكانت معنوياتهم عالية جداً ، والطريق كانت جميلة ، وعلى الرغم من الظلام لا اعتقد انني رأيت في حياتي مشهداً ابهى وأجمل» .

ولكن هذه الغبطة كانت قصيرة المدى ، فقد عاد العدو بعد يومين وأصلى المتطوعين العرب ناراً حامية عنيفة اجبرتهم على الانسحاب من القرية . فأمرت الأركان العامة الفوج السادس بوجوب استعادة القرية ، ثم ألغي هذا الأمر ، وأخيراً كلف بهذه المهمـة الفوج الأول الذي يقوده زكريا محيي الدين .

اتصل المقدم جمال عبد الناصر بصديقه زكريا محيي الدين وعرض عليه ان يسهم مع جنوده في العملية لأنهم يعرفون المنطقة جيداً ، وعن ذلك يقول جمال في مذكراته : « .. عندما وصلنا الى منتصف طريق خربة الماعز رأينا انه من الأفضل تأجيل الهجوم المعاكس الى فجر الغد» : وأمضى الصديقان ليلتهما في العراء يتحدثان عن العدو وعن القيادة العليا

وفي الفجر بدأ الهجوم فشقت شاحنات الفوج والحالة في القاهرة . ركب المقدم جمال عبد السادس خطوط العدو وطلبت مساندة المشاة . ركب المقدم جمال عبد الناصر في احدى الشاحنات واتجه الى خربة الماعز وعن ذلك يقول :

« .. كانت نار جهنمية تصلي ، والعدو الغاضب كان يقصف القرية بكل مدفعيته ، ولأول مرة في حياتي ، اعترف بأنني شعرت بالخوف ، كان رأسي يدق كالطبل ، وكنت افكر في عائلتي في القاهرة ، كنت لا ادري ما الذي انتابني . ولحسن الحظ زالت هذه الحالة النفسية القلقة بعد ثلاث دقائق استعدت بعدها رشدي وغمرني شعور اللامبالاة الذي هو افضل سند للمحارب » .

« .. كنت اشترك بصورة غير رسمية في هذا الهجوم ، ولم يبق امامي الآن سوى الانسحاب » .. وهذا ما فعله بدلاً من ان يتابع طريقه الى خربة الماعز . وفي الطريق صادف زكريا محيي الدين متجهاً الى المركز الذي تلقى الامر بوجوب احتلاله .

وقد انتظر زكريا محيي الدين بعد اطلاعه على خبر استعادة العدو لخربة الماعز الاوامر الجديدة ، وطال انتظاره ثلاثة ايام استطاع العدو خلالها ان يحول القرية الى حصن حصين .

كان في استطاعة الرئيس جمال عبد الناصر ان يغفل ذكر الخوف الذي اصابه وهو في طريقه الى خربة الماعز ، وكان في امكانه ان لا يقول بأنه اكتفى بعد عرضه على زكريا محيي الدين تعاونه معه لاحتلال القرية، بأن يرسل الى الجبهة مفرزة من الشاحنات ، كما كان في امكانه ان لا يذكر بأن زكريا محيي الدين وقد تلقى امراً باحتلال القرية على رأس الفوج الاول ، عوضاً عن ان يبدأ هجومه ، انتظر ثلاثة ايام لتأكيد الامر عندما علم بأن اليهود اصبحوا فيها .

واذا كانت هذه التفاصيل قد اعطيت لنا ، فذلك لان جمال عبد الناصر يروي الحقائق كما حصلت موقناً ان العسكريين ليسوا ابطالاً في كل الايام ، وانه يفكر مرتين قبل ان يخاطر بحياته ، ويعرض نفسه

لقنابل العدو من اجل احتلال قرية في فلسطين ، قد تأمر القيادة العليا بالانسحاب منها غداً ، او ترى الامم المتحدة اعطاءها لهذا او ذاك من الفريقين بعد غد ، ان الجندي المصري شجاع ولكنه في حاجة لان يشعر بمتانة صفوفه ، وبحسن قيادته العليا وضنها بدمائه ، ويجب ان يعلم الجندي والضابط لماذا ولاجل من يقاتلان ، كان الجيش المصري آنئذ في حالة هدنة ، وخارج حدوده ، كان يردُ بعنف عندما يهاجمه العدو ، ويحاول ان يقطع عليـــه خطوط مواصلاته ، ولكن الضباط والجنود كانوا قد وطدوا العزم على ان لا يرموا بانفسهم في الأتون . ويعرضوا صدورهم لقنابل الاعداء من اجل احتلال موقــع مشكوك في فائدته .

واخيراً يجب ان نتذكر بأن الفوج التاسع كان قد مرَّ بتجربة مريرة في بدء حرب فلسطين . وذلك عندما دفع في العشرين من ايار الى قرية دير سنيد المحصنة قبل إعداد المدفعية ودون حماية المصفحات ، وكانت النتيجة ان القى المشاة المصريون انفسهم في موجات متتابعة امام خطوط العدو الدفاعية فذهبوا طعاماً سائغاً لنيران رشاشات الصهاينة وقذائفهم : لقد استطاعوا في النهاية ان يحتلوا الموقع ولكن الثمن كان باهظاً جداً . والذين بقوا على قيد الحياة بعد هذه التجربة المريرة لن يُقدموا عــلى اعادة تجربة دير سنيد التي لا تُنسى .

دحر العدو امام عراق المنشية

على الرغم من الهدنة ، حاولت القوات الاسرائيلية جاهدة ان تقطع الانصال بين عراق المنشية وبيت جبرين ، فاستطاعت ان تحتل موقعاً على الطريق وانصرفت الى اقامة خطوط دفاعية فيه واحاطته بالاسلاك الشائكة ، فتلقى المقدم جمال امراً بضرورة منع العدو من قطع الطريق الرئيسية بين حبرون وغزه ، وفي الخامس عشر من تشرين الاول عند

الساعة الثالثة صباحاً كان واقفاً يراجع لآخر مرة اعداداته للهجوم الذي سيتم عند الساعة الخامسة صباحاً لاستعادة ذلك الموقع من العدو . كان كل شيء هادئاً في الجوار ، ومستعمرة « جات » اليهودية بـدت كالاموات ، انها كانت تغط في نوم عميق .

وقبل ان تدق الساعة الخامسة ساعة الصفر تمزق السكون بصورة رهيبة ، فقد صب العدو نيرانه على عراق المنشية .

ان الاسرائيليين لم يكتفوا بارسال قواتهم لقطع المواصلات بين المصريين بل بدأوا على الرغم من وقف اطلاق النار الذي تفرضه الامم المتحدة ، قصف قرية عربية يحتلها الجيش المصري ويقيم فيها قسم من اهلها وعدد من اللاجئين البائسين .

وجعل الاسرائيليون بداية لهجومهم يوم عيد الفطر معتقدين ان القوات المصرية في ذاك اليوم لن تكون مستعدة للقتال ، وهكذا وجـد جمال عبد الناصر الذي كان يستعد لاسترجاع الموقع الذي احتله الاعداء في الطريق ، ان القريـة نفسها التي يدافع عنها تتعرض للقصف وشاهد على طريق بيت جبرين دبابات مصفحة تتقدم نحو عراق المنشية .

كانت القوات المصرية موزعة على طول ثلاثين كيلو متراً ، كلف الفوج السادس الدفاع عنها . ولم يكن يحمي القرية سوى مدفعين مضادين للدبابات وبعض الالغام التي لم ترسل الا بعد جهد جهيد .

تقدمت دبابات العدو ووصلت الى الخطوط المصرية الدفاعية واجتازتها ودخلت القرية ولسوء الحظ تعطل المدفعان بقنبلتين من قنابل مدافـع الهاون اليهودية .

قاومت القوات المصرية بكل ما أوتيت من قوة ، وحمـل الجنود مدافعهم الصغيرة وكمنوا بين أشجار الصبار عند مخرج القرية ، واختبأ أحد الجنود وراء أكمة من الصبار باعصاب أمتن من الفولاذ ، ينتظر اقتراب احدى دبابات العدو ليفرغ فيها مدفعه وجام غضبه . وفي لمحة بصر

تحولت الدبابة هباء .

وفي نفس الوقت تقدم أحد ضباط الفوج ينقضّ على دبابة اخرى واصطدمت ثالثة بلغم فنسفت .

وهكذا بقي من الدبابات العدوة الست التي كانت قادمة نحونا ثلاث فحسب ، وثلاث نسفت في برهة وجيزة . فعادت الدبابات الباقية من حيث أتت مذعورة من هول المشهد الذي رأته .

وفي القرية نفسها كان الاسرائيليون بحماية مدفعيتهم قد تسللوا حتى مبنى المدرسة غير ان القوات المصرية ، وعلى الاخص كتيبة سودانية ردتهم على اعقابهم ، واقفلت الثغرة التي كان قد فتحها العدو ، وكانت المدفعية الاسرائيلية تزرع القرية بقنابلها ، وسمع المقدم جمال عبد الناصر صوتاً غريباً على مقربة منه ، كان ذلك كتصفيق جناحي طائر مصاب ، انه صوت قنبلة وصلت الى هدفها . افترش الارض بسرعة الى جانب حائط متهدم ، ولم تمض دقيقتان حتى سمع دوى انفجار قنبلة .

نهض الضابط وعليه غبار الانفجار ، ثم حث جنوده على العمل . فاندفع الى المعركة كل من يستطيع الحراك يحمل اي سلاح وقع في يده ، وقد رأى جمال عندئذ احد الجنود يحمل بندقية جديدة ، فسأله من اين حصل عليها ، فاجاب والبشر يطفح من وجهه « .. من اليهود افندم » .

لقد أحبط الهجوم ، الا ان المقدم جمال عبد الناصر كان يشعر بأن العدو سيعيد الكرة ، فحصل من قائد المنطقة ، وهو على الارجح الامير الاي سيد طه السوداني الشجاع الذي دافع عن الفالوجة ، على اربعة مدافع وثلاث شحنات ذخيرة ، وعندما شنّ اليهود هجومهم الثاني في الساعة العاشرة صباحاً ، كانت المدافع تقصف العدو باستمرار ، وتدمر له دبابتين ، وترغم الاخرى على الهرب ، وصدّ هجوم ثالث كذلك بعد

ظهر ذاك اليوم .

ويقول جمال عن أثر ذلك الحادث ... « في الساعة الخامسة كانت معنويات مشاتنا ارفع منها في اي وقت مضى . واستعرضتُ جنودي فرأيت الثقة بالنفس تشع من عيونهم ، كان الاصرار بادياً في كل حركاتهم ، ولذلك شعرت بالفخر والاعتزاز . ولكن شيئاً واحداً كان يحز بنفسي لقد استشهد كثيرون من زملائي وجنودي في ساحة الشرف بعد ان اعطوا البرهان الساطع على شجاعتهم وروح التضحية عندهم ، واثناء الليل اصطدمت احدى دورياتنا بجثث عدد من سائقينا وطباخينا الذين أبوا الا ان يشتركوا في المعركة ببسالة ، فخروا صرعى بعيداً عن الاسلاك الشائكة التي كانت تحمي مراكزنا ، ان هؤلاء الشجعان لم يكتفوا بصد العدو ، بل ارادوا ان يتبعوه في هربه حتى خطوطه الدفاعية» .

احتلال عراق سويدان وتحيز الامم المتحدة

ولسوء الحظ بالنسبة للمصريين ، قام اليهود بهجوم آخر على عراق سويدان ، وبعكس هجومهم الاول الفاشل على عراق المنشية كان نصيبهم هذه المرة النجاح بين الفالوجة والمجدل . وعن هذه المعركة يقول جمال في مذكراته :

« .. كان الزعيم اليهودي « بيغال الون » قائد قوات الاعداء في معارك النقب يشجع رجاله بخطبه النارية ، ويدفعهم الى مهاجمة المركز الواقع على مفترق الطرق ، وقد نجح في مهمته هذه مع الاسف . لقد ذهلتُ لسقوط هذا الموقع « وكنت مقتنعاً » بأنه كان ذا اهمية قصوى بالنسبة الينا . وان خسارتنا له تعني قطع كل اتصال بين قواتنا في عراق سويدان وحبرون . وقد حشدنا لذلك قواتٍ كبيرة قرب هذا المفترق،

ولا اذيع سراً اذا اكدت ان بطارية من اثني عشر مدفعاً من طراز « فيكرز » كانت تحميه ، ولكن فشلنا كان ذريعاً ، وكان قد كلف بحماية هذا المركز الفوج التاسع الذي كان قائده الاول في اجازة ، ومن غريب الصدف ان القائد الثاني قتل بشظية قنبلة من قنابل الهاون ، وركب الثالث سيارته واختفى ليظهر في الاسماعيلية فيما بعد ؛ بينما كان الرابع يترك الفوج ليعود الى الاركان العامة في المجدل . ومن سوء الطالع ايضاً ان عبد الحكيم عامر ضابط الاركان في هذا الفوج ، كان قد نقل الى الفوج الثاني ، ولو كان عبد الحكيم ما يزال في مركزه لاختلف مجرى المعركة ، ولعجز العدو عن ان يخرق خطوطنا بسهولة اثناء الهجوم الليلي كما فعل . انني لا اقول هذا بدافع الصداقة ، بل تقديراً للواقع فقط ، واقراراً بالحقيقة . »

وهكذا عزلت القوات المصرية في الفالوجة وعراق المنشية عن قاعدتها في المجدل–غزة بعد احتلال اليهود لمفترق طرق عراق سويدان .

وبعد ايام قطع العدو الطرق الرئيسية المؤدية الى بيت جبرين – حبرون . واصبح المصريون محاصرين من الشرق والغرب ، وعلق جمال على ذلك بقوله :

« .. كان العدو يظهر نشاطاً زائداً ، والغارات الجوية على مراكزنا كانت تتضاعف وتزداد عنفاً ، اما طيراننا فلم نعد نرى منه اية طائرة، وكان قد اختفى من الافق تماماً ، وفي الوقت نفسه كانت مدفعية الاعداء تقصفنا باستمرار ، مما ادى الى اصابة عدد كبير من الجنود بجروح ، وكان وجودهم بيننا يترك اثراً سيئاً في معنوياتنا ، وكنت اتمنى لو استطيع نقلهم الى مكان آخر ، حيث يستطيعون ان يلقوا العناية اللازمة .

« وعلاوة على ذلك كان يوجد الى جانب الجرحى عددٌ من المرضى، وقد توجهت صباح احد الايام لعيادة صديق لي كان يتألم آلاماً مبرحة

من الزائدة . وكان يجب اجراء عملية له اذا كنـــا نريد ان نتحاشى المصير الاسود .

« ولكن كيف يمكن اجراء هـــذه العملية الجراحية في موقـــع عسكري محاصر ؟؟

« تركت المستشفى غاضباً ، وأشرت على ادارة النقل التابعة لفوجنا ان تبحث عن طريق آخر يؤدي الى بيت جبرين ، وكان فرحي عظيماً عندما علمت بعد هنيهة بأن طريقاً جانبية توصل الى بيت جبرين كان قد تم اكتشافها . وقد كان ذلك عزاء كبيراً لي ، فأصدرت الاوامر فوراً بوجوب نقل المرضى والجرحى عن هذه الطريق .

« وكدت في ذلك اليوم احطم جهاز الراديو الذي كان معنـــا . لاضع حداً للاذاعات السخيفة التي كنا نسمعها . لقد نقل الينا ان مجلس الامن الدولي قد أمر بوجوب وقف اطلاق النار . فاين كان المجلس وماذا كان يفعل حتى الآن ؟ .. لقد عاود العدو عمليـــاته الحربية في الخامس عشر من تشرين الاول ، ومع ذلك لم يتحرك مجلس الامن كأنه أصيب بالعمى والطرش والخرس .

« وخلال ايام ١٧ – ١٨ – ١٩ – ٢٠ تشرين الاول ، كان العدو قد تمكن من قطع خطوطنا ، عندئذ ، وعندئذ فقط أفاق مجلس الامن من غفوته ، ليصدر اوامره بوجوب وقف اطلاق النار .

« لقد كان ذلك مخططاً مدروساً ، وكان مؤامرة ضدنا »

من هذا الوصف الدقيق يبدو واضحاً ان مجلس الامن الدولي المتهم بالتحيز لصالح الصهاينة لم يأمر بوقف العمليات الحربية الا بعـــد ما وصلوا الى اهدافهم واصبحوا في حاجة الى راحة لتثبيت اقدامهم في المراكز التي غنموها .

وفي كتاب عن اعمال اللجنة الدولية التابعة للصليب الاحمر في فلسطين اكد جاك رينييه انه على الرغم من الهدنة ، كان اليهود يهاجمون بعنف

المراكز المصرية في اواسط تشرين الاول سنة ١٩٤٨

وكتب رينييه عن ذلك قائلاً : خلال ثمانية ايام متتالية من ١٥ الى ٢٢ تشرين الاول كانت غزة تتعرض كل ليلة الى القصف من الجو وكل نهار الى القصف من المدفعية وقد سقط عليها آلاف من القنابل، مما ادى الى موت المئات من الناس كما خلفت الكثير من الدمار . وبعثتنا نفسها لم تنج من الاذى ، واعضاؤها الاربعة عاشوا تلك الفترة ساعات مضنية جداً ، لا ينامون الا قليلاً في القبو او في ملجأ واق من قنابل الطائرات الحديثة تقض مضجعهم صفارات الانذار التي لا تنقطع، ومع ذلك ظل الدكتور فلمان وممرضاته السويسريات الثلاث مثابرين على التوجه كل يوم الى المعسكر البريطاني القديم جنوب غزة حيث يقاسي مائتا الف لاجىء آلام الجوع والمرض .

ان الصهاينة لم يحترموا الهدنة ، واذا كانت سلبية الدول الكبرى التي تسيطر على مجلس الامن التابع للأمم المتحدة ليس لها ما يبررها ، فيجب الا نبخس اولئك الذين اوفدتهم هيئة الامم لتمثيلها محلياً حقهم . فقد بذل هؤلاء جهدهم لاعادة السلام المفقود الى الاراضي المقدسة .

الصورة الجميلة للكونت برنادوت

لا بدّ لكل من يدرس المشكلة الفلسطينية من ان يتذكر الطلعة البهية للكونت برنادوت رئيس منظمة الصليب الاحمر السويدية ، والوسيط الدولي الموفد من قبل الامم المتحدة . لقد قابلته في القاهرة في اوائل ايلول سنة ١٩٤٨ في الوقت الذي كان فيه الفريقان المعنيان من عرب ويهود يرفضان بعنف مشروع تقسيم فلسطين الذي كان قدمه في الثاني من آب سنة ١٩٤٨ الى الجمعية العامة التابعة لهيئة الامم .

كان بهدوئه ونظرته الموضوعية يرى نفسه موضع انتقاد من قبل الوطنيين العرب والمتطرفين اليهود . كان يعرف انه مهدد بالقتل من قبل الارهابيين من الطرفين . وعلى الرغم من كل هذه الاحقاد كان يتوجه الى فلسطين محاولاً ان يفرض بنفوذه المعنوي احترام هدنة الثامن عشر من تموز

وبعد بضعة ايام ، في السابع عشر من ايلول ، وصل الكونت برنادوت الى القدس ، المدينة الممزقة بين العرب واليهود . وبعد زيارة قام بها لبعثة اللجنة الدولية للصليب الاحمر ، خرج الوسيط من هناك متوجهاً الى قلب القدس . ويصف رينييه ما حدث اثر ذلك فيقول :

« ... على رأس قافلة صغيرة من ثلاث سيارات كانت تسير سيارة عسكرية تابعة لهيئة الامم المتحدة ، وفيها عددٌ من الضباط المراقبين ووراءها احدى سياراتنا يقودها الدكتور فازل وحيداً ، وأخيراً السيارة الثالثة التي كانت تقل الكونت برنادوت والكولونيل الفرنسي سيرو وضابط سويدي وراكبين آخرين .

« سلكت القافلة أولاً طريق منحدر الى تلة تطل على اليهود والعرب الذين كانوا يحبّون ان يتمرنوا على الرماية باطلاقهم الرصاص على السيارات المارة من هناك . ثم دخلت المدينة في أحياء مهجورة لتصل الى منطقة يسكنها اليهود وتسيطر عليها عصابة « شتيرن » وكانت قد جرت العادة على ان يجري توقيف وتفتيش كل من يمر من هناك لدى الدخول والخروج ، مع ان الحي من صلب المدينة اليهودية .

« وكنا قد احتطنا منذ البدء في اعطاء عصابة شتيرن اسماء وهويات مندوبينا الذين يضطرون الى المرور من هناك . وفي المناسبة كان لا يفوتنا أبداً التحدث الى الحراس وزيارة رئيس العصابة نفسه ، وهكذا كنا معروفين من الجميع . وكنا نمر ، فيما عدا بعض الحالات الشاذة ، بسهولة تامة .

« وعندما وصلت قافلة الكونت برنادوت الى نقطة الحرس الثانية قطعت الطريق عليها سيارة مجهولة ، وترجل منها رجلان بالزي العسكري، مسلحان بالرشاشات ، راحا يفتشان ركاب السيارات . وبعد تحري الاولى انتقلا الى الثانية ، وبسرعة انتهيا من استجواب الدكتور فازل لينصرفا الى السيارة الثالثة ، وسألا فيما اذا كان برنادوت فيها ؟... وانتظرا ، وما كادا يسمعان الجواب حتى أفرغا رصاص رشاشيهما في جسمه ، ففارق الحياة في الحال . وحاول الكولونيل الفرنسي سيرو ، وكان الآخر جالساً في السيارة ، ان يحمي برنادوت بجسمه فسقط قتيلاً معه . وما كاد الدكتور فازل يسمع صوت الرصاص حتى أسرع في سيارته نحو الجرحى ، فيما كان القاتلان يعودان الى سيارتهما . ولكن الاوان كان قد فات ، وقضي الامر ، ولم يعد في استطاعة احد أن يفعل شيئاً .. »

أوقفت السلطات الاسرائيلية رؤساء عصابة « شتيرن » ووضعتهم في معسكر هربوا منه بعد خمسة عشر يوماً فقط . ان مصرع الوسيط الدولي كان بالنسبة لمراقبي الامم المتحدة صدمةً كبيرة وأصبح أكثرهم حذرين اذا لم نقل متحفظين : ولكن الآخرين قاموا بأعمال جريئة ، يزيد من بطولتها انها تمت رغم الاخطار المحدقة .

واثر مصرع الكونت برنادوت تولى رالف بانش الاميركي الملون مهمته بالوكالة ، ومن قاعدته في جزيرة رودس أنهى مفاوضات الهدنة بنجاح :

وانتهت العمليات العسكرية في بداية شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٩ ولكن اغتباطنا يزول عندما نعلم بأن القوة غلبت الحق ، وبانه لا مشروع التقسيم الذي وضعه برنادوت ، ولا مشروع التقسيم الذي وضعته اللجنة الدولية التابعة للامم المتحدة ، لم ينفذا ويُحترما . لقد احتفظت اسرائيل بالاراضي التي حصلت عليها عن طريق الحيلة أو عن طريق القوة :

وما زال سكان فلسطين العرب ، وعددهم يناهز المليون ، يعيشون في المخيمات عيشة بائسة في الاقطار العربية المجاورة ، على ما تتكرم به عليهم هيئة الاغاثة الدولية .

لنعد الآن الى قصة المقدم جمال عبد الناصر المحاصر في تشرين الاول سنة ١٩٤٨ في منطقة الفالوجة — عراق المنشية .

حرب الاعصاب

نهار الخميس في الحادي والعشرين من تشرين الاول عقد مؤتمر للاركان العامة في الفالوجة برئاسة الاميرالاي السوداني سيد طه « الضبع الاسود » كما كان يسميه رجاله . وحضر ذلك المؤتمر قادة وضباط أركان الافواج الثلاثة المحاصرة ، الاول والثاني والسادس ، وكان الاميرالاي قد تلقى امراً بانسحاب القوات المصرية .

وكان المقدم جمال عبد الناصر يعتقد بأن الانسحاب هو أفضل حل : ترى هل كان من المنطق ان تبقى تلك القوات المصرية المحاربة محاصرة في مواقع كل مخارجها في الشرق كما في الغرب مقفلة ؟ وعلاوة على ذلك كانت الغـاية في وجودنا هنا فصل النقب عن باقي الاراضي الفلسطينية الممتدة الى الشمال . وبما ان الاتصال بين المنطقين قد تم ، فلماذا نبقى نحن في مواقعنا هذه بعد ان باتت بدون فائـدة ؟ وكان جمال عبد الناصر يعتقد ان الافواج المصرية بتراجعها الى بيت جبرين ، وحبرون عن الطريق الثانوية التي بقيت حرة تعيد الاتصال بينها وبين القوات المصرية الاخرى التي كانت لا تزال تحتل منطقـة حبرون — بئر السبع ، الامر الذي سيضطر الاسرائيليين على المحاربة على جبهتين بمجرد انتهاء فترة الهدنة الثانية .

عندئذ جاء أمر جديد من القيادة العليا يلغي الامر السابق :

وفي الثالث والعشرين من تشرين الاول احتل اليهود الطريق الجانبية المؤدية الى بيت جبرين على الرغم من انهم كانوا قد أعلنوا قبولهم لوقف اطلاق النار في اليوم السابق . وفي الثاني والعشرين من تشرين الاول ، عند الساعة الثانية بعد الظهر ، وكالعادة الشائعة لم يكن وقف العمليات الحربية موضع احترام من قبل القوات الصهيونية ، لا سيما اذا كان لصالح الجيوش العربية .

ولما تلقى سيد طه في الثالث والعشرين من تشرين الاول بعد الظهر رسالة ثالثة من القيادة العليا تأمر بالانسحاب الى حبرون ، كان هذا الامر قد بات مستحيل التنفيذ ، بعد ان كان العدو قد أكمل حلقات الحصار .

« لقد أمضينا ليلة رهيبة ، فريسة لحرب الاعصاب ، وكانت طائرات العدو خلالها تمطرنا بوابل من المنشورات ، وقد قرأت احدها وهو موجه الى الفوجين الثاني وللرابع ، وقد جاء فيه :

« .. ايها الضباط والجنود ، هل تدرون انكم محاصرون ؟ وهل تعلمون بأن فوجيكما لا يستطيعان الاتصال ببعضهما البعض ؟ أتدرون ماذا يعني الحصار ؟ انه الابادة والموت ، وستتحققون من ذلك قريباً ، ان قوادكم لن يستطيعوا الوفاء بوعودهم الكاذبة القائلة بقرب وصول نجدات من العتاد والرجال .

« ... ان أي أمر من هذا لن يصل اليكم ، لأن قواتنا قد احتلت بئر سبع ، بعد ان اشتركت في معركة مع قواتكم وسحقتها . واذا كنتم تنتظرون النجدة من الملك عبدالله فاعلموا انه يقترح طرد قواتكم من قواعد بيت لحم وحبرون .انكم الآن ترون نتائج الدعاوة الكاذبة التي حملتكم من مصر الى هنا . ان قادتكم وساستكم كانوا قد أكدوا بأن حملة فلسطين ستكون نزهة ، وكانوا قد وعدوكم بالغنائم والمباهج ، فأين هي الغنائم ؟ وأين هي المباهج ؟ انكم لم تحصدوا هنا سوى البلايا

والخسائر الفادحة ، وسيبقى هـذا نصيبكم في المستقبل . لقد رأيتم بأم أعينكم ان اليهود يعرفون كيف يحاربون ، وانهم يدافعون عن وطنهم . فهم لم يحتلوا بلداً اجنبياً ، ولم يفكروا مطلقاً ولن يفكروا في اغتصاب ما ليس لهم .

« .. واذا ألقيتم نظرة على المصور الجغرافي تحققتم من ان القوات اليهودية تحيط بكم كما يحيط السوار بالمعصم .

« .. عليكم ان تختاروا ، فاذا كنتم تريدون الحياة فاستسلموا ، تعودوا الى ذويكم . واولئك الذين ادعوا بأننا نقتل أسرانا كاذبون . لقد كان ذلك من اسوأ وسائل الدعاوة التي لجأ اليها قادتكم العسكريون الذين ينتظرون الترقيات والاوسمة ، غير مهتمين بجنودهم الذين يتساقطون صرعى بالالوف .

« .. لهم الاوسمة ، ولكم الموت ..

« .. لقد سبق للواء احمد علي المواوي وأعطى أمراً لجنوده المحاصرين في بيت عانا وعراق سويدان بوجوب القتال حتى الموت . ولكن أين سعادته الآن ؟ لقد هرب كالجبان الرعديد بمجرد أسرنا بعض ضباطه .

« .. أين قائد بئر سبع ؟

« .. لقد ترك جنوده المغلوبين على امرهم ولاذ بالفرار .

« .. لقد هرب عند المفترق ، اما الجيش فقد استمر في المقاومة .

« .. لقد حصل الشيء نفسه في « حليقات » وغيرها من المراكز التي احتلتها قواتنا .

« .. فكروا قبل ان تموتوا .

« .. أصغوا الى رفاقكم الاسرى الذين ينصحونكم بالاستسلام ، أنقذوا أنفسكم بأنفسكم باستسلامكم »

« .. كل جندي يمتثل أمامنا وفي يده هذا المنشور ينجو من الموت ويعود الى ذويه بسلام .

« .. ايها الضباط .

« .. اعلموا بأننا سنحترم حقـوق المندوبين الذين ترسلوهم الينا رافعين العلم الابيض بشأن المفاوضات ونصون حياتهم . كونوا مطمئنين من ان امتيازاتكم العسكرية ستكون موضع احترام .

« .. ها انكم الآن قد أعلمتم وأنذرتم .. »

علـم أبيض

في الرابع والعشرين من تشرين الاول اقتربت مصفحة اسرائيلية من الخطوط المصرية ترفع علماً ابيض : وكان فيها مكبر للصوت يعلن أن ضابطاً اسرائيلياً يرغب في مقابلة ضابط مصري :

ويقول جمال عبد الناصر عن هذا الحادث :

« قررت ان اتجه بنفسي نحو الصوت المنادي : رأيت السيارة المعروفة بعلمها الابيض المرفوع ، بينما كان مكبر الصوت لا يزال يعلن بدون انقطاع عن الرغبة التي جاءت السيارة من أجلها ، فاقتربت وطلبت من حراسنا ان يفتحوا الحاجز الذي يقفل الطريق أمام خطوطنا . قفزت الى سيارة الجيب ، وكنت ارتدي سروالاً عسكرياً وسترة من الصوف الكاكي . رافقني اثنان من زملائي ورقيب يحمل رشاشاً ، وانطلقت سيارتي بأقصى سرعتها في اتجاه العدو . وكان ينتابني شعور غريب . وفيما عدا هدير محرك سيارتنا كان السكون شاملاً . توقفنا قبالة السيارة المصفحة ، فراح الضباط الموجودين فيها ينظرون الينا مشدوهين . وفجأة أخرج احدهم رأسه من وراء غطاء السيارة وقال لنا متعجرفاً بالانجليزية :

– اني مساعد القائد العام لهـذه المنطقة ، وانا مكلف بابلاغكم عن حالتكم ، انكم محاصرون من كل الجهات ، لذلك ندعوكم الى الاستسلام .

فأجبته بلهجة هادئة :
– اننا نعرف وضعنا معرفة تامة ، ولكننا لن نستسلم .
وأضفت دون أي ارتجاج في صوتي :
– اننا ندافع هنا عن شرف جيشنا .
عندئذ بـدأ الضابط اليهودي يتحدث باللغة العربية ، ثم عاد الى الانجليزية ، تاركاً لهجته المتعالية التي بدأ بها حديثه ، وشرح لي من جديد الوضع الذي كنا فيه .
فأجبته :
– انك تتعب نفسك بدون فائدة ، فنحن نرفض ان نستسلم .
فحدجني بنظرة وقال لي ، وعلامات الرضى بادية عليه :
– ألا تريد ان تستشير رؤساءك ؟
قلت له :
– هذه القضية ليست موضع نقاش .
ثم عاد من جديد يحدجني بنظره . وساد سكون ، ثم تلاقت نظراتنا ، وفجأة شعرت بأنه خلع قناع التعجرف ، وقال لي بصوت منخفض مهذب :
– اننا نرغب في أن نعرض عليكم طلباً انسانياً .
فسألته : وما هو هذا الطلب !
– اننا نرغب في سحب جثث قتلانا من المعركة الاخيرة ، وانت تعلم بأن اهالي الضحايا يرغبون في دفن قتلاهم ، هل عندكم أي مانع بهذا الشأن ؟
فقلت له وانا أحدجه بنظري :
– اننا نوافق على طلبكم هذا ...
واثناء عودتنا الى مراكزنا انفجر جميع من في السيارة معي ضاحكين : كنا نقارن بين بداية المقابلة ونهايتها ، اولها عجرفة وزهو في طلبهم

الينا ان نستسلم ، وآخرها هدوء وتهذيب ورجاء في السماح لهم بسحب جثث قتلاهم من ميدان الجبهة . »

بتلك الكلمات تنتهي مذكرات الرئيس عبد الناصر في « كل الحقيقة عن حرب فلسطين » .

ومع ذلك بعد هـذا الهدوء الموقت كُتِبَ للمعركة ان تستمر في النقب خـلال شهري تشرين الثاني وكانون الاول سنة ١٩٤٨ وكتب للفالوجة وعراق المنشية ان تقاوما ببطولة حصاراً طويلا .

غداة الميلاد حاول الاسرائيليون من جديد قطع المواصلات بين غزة ومصر ، ثم شنوا هجوماً عنيفاً على عراق المنشية ، معتقدين امكانيـة احتلالها ، ثم احتلال الفالوجة ، حيث تصر قوات عنيدة على الدفاع عن شرف مصر .

بشأن أحداث الايام الاخيرة من كانون الاول سنة ١٩٤٨ حصلت على معلومات كافية من شهود عيان من ضباط واطباء كانوا قد اشتركوا في العمليات الحربية ، أتاحت لي أن أنسج روايـة موضوعية تظهر بجلاء صفات التبصر والهـدوء والعناد في شخصية المقدم جمال عبد الناصر .

عِراق المنشيّة
تنجو بفضل رباطة جأش جمال عبد الناصر

في كانون الأول سنة ١٩٤٨ ، بعد مرور سبعة أشهر على حرب فلسطين بسبب الهدنة الأولى وما رافقها من تدخل هيئة الأمم ، ثبتت القوات الاسرائيلية مراكزها . ومع ذلك ظلت القوات المصرية تعتمد على اسلحتها القديمة البالية ، فمدافعها البريطانية كانت بدون ذخائر ، ودباباتها الاميركية كانت عاطلة عن العمل لعدم وجود قطع غيار لها . والقنابل اليدوية المستوردة من ايطالية كانت سيئة الصنع وتنفجر احياناً في وجه حاملها ، لأن حرارة اليد كانت كافية لتفجيرها . وبنادق الموزير المستوردة من اسبانية كانت قديمة يعود تاريخها الى سنة ١٩١٢ ، اي انها كانت عاجزة كل العجز امام الاسلحة الأوتوماتيكية التشيكية والروسية والاميركية التي في حوزة الصهاينة . وعلى الرغم من ان الهدنة الاولى المفروضة من الامم المتحدة في تموز سنة ١٩٤٨ قد وافق عليها الطرفان فإن الاسرائيليين ، بعد مقتل الكونت برنادوت على يد عصابة « شتيرن » الارهابية قد عاودوا هجومهم في النقب بين ١٤ و ٢٢ تشرين الاول اولاً ، ثم من جديد في الثالث والعشرين من كانون الاول ؛

والقوات المصرية التي كانت قد تقدمت في الربيع حتى خط بيت لحم – حبرون اضطرت ان تتراجع الى بئر السبع ، ثم الى قاعدتها في غزة . لأن التموين كان صعباً بالنسبة لها والاتصال مع مصر – غزة – رفح – كان ينقطع احياناً بسبب الغارات الجوية اليهودية .

وبعد ان احتل اليهود بيت جبرين وخربوا عراق سويدان اضطرت حامية المجدل الى الانسحاب الى غزة .

اما الفالوجة وعراق المنشية المتصلتان ببعضهما بحفرة عميقة حفرتها السيول ، فكانتا محاصرتين ، وقاومتا الحصار الذي دام ستين يوماً بشجاعة فائقة . وكان يقود حامية الفالوجة الفهد الأسود « الأميرالاي سيد طه » . وخرجت القوات المصرية منها مرفوعة الرأس ، محافظة على شرفها العسكري بعد توقيع هدنة ٢٤ شباط سنة ١٩٤٩ .

وكي تستطيع الفالوجة المقاومة يجب ألا تقع عراق المنشية التي لا يفصلها عنها سوى مسافة كيلو مترين ، في يد العدو .

كان هذا القطاع بقيادة المقدم جمال عبد الناصر ضابط الاركان في الفوج السادس . والقرية نفسها القائمة في القسم الاكبر منها الى جنوبي طريق المجدل – بيت جبرين – كانت قد تعرضت للقصف من قبل العدو ، الامر الذي اضطر قسماً من الاهالي للجوء الى غزة . وكان مركز القيادة مقاماً الى شمالي الطريق . وكانت القوات المصرية موزعة في الخنادق او مختبئة في ما تبقى من بيوت القرية .

وكان المقدم جمال عبد الناصر قد نظم بعناية فائقة الدفاع عن القرية : فالخنادق التي في القرية كانت قد طغت عليها مياه السيول ، وكان هناك ملاجىء وُصل كل منها بمخرج . وهذه كانت تتيح للجنود ان يتمددوا على الارض الجافة اثناء فترات الهدوء . وكان النقيب عبد الخالق ابو ديه مع كتيبتين احداهما سودانية ، مكلفاً بالدفاع عن القطاع

الجنوبي ، وكان في حوزته مدافع هاون من اربع بوصات ، ورشاشات فيكرز جيدة ، ولكن الذخيرة كانت محدودة ، وكان قد تلقى امراً بوجوب تدبر امره .

وكانت العلاقات بين الجنود والسكان المدنيين متينة قوية . فالقمح المخزون في بيوت اهل القرية كان ضابط الادارة قد اشتراه وجمعه ، ومطاحن يدوية كانت تؤمن الطحين ، وفرن القرية كان يؤمن الخبز في كل صباح ، على يد عشرين قروية . وإيصالات الدفع الموقعة من القائد العسكري كانت تسوّى في الاركان العامـة للجيش في غزة التي كان القرويون يذهبون اليها اثناء الليـل . والتعاون بين الجيش والثمانمئة مدني الذين بقوا في القرية كان كاملا .

في السادس والعشرين من كانون الاول شن الاسرائيليون هجومـاً عنيفاً على رفح، وكان القصد منه قطع الاتصال بين مصر وقاعدة غزة ؛ ولكنهم ردوا على اعقابهم مهزومين على يد القوات المصرية التي كـان يقودها اللواء فؤاد صادق ومعاونه عبد الحكيم عامر .

وفي الوقت ذاته وجه قصف شديد على عراق المنشية من التـلال المحيطة بالقرية .

وفي ليل الثامن والعشرين من كانون الاول حوالى الساعة الثانيـة صباحاً اوقفت المدفعية الاسرائيليـة عمليات القصف . وفي جنح الليل وتحت الضباب والمطر الغزير تسلل العدو الى القسم الذي توجد فيه الشعبة الادارية ، واستولى على المطاحن والفرن ومستودع السيارات والمؤونـة ، واستسلم المدنيون ؛ وأقام القائد الاسرائيلي مقر قيادته في بيت المختار . ووصل اليهود الى قلب القطاع الجنوبي ، حتى المسجد الذي يضم مئة وعشرين جريحاً ومريضاً . من مركزه كان النقيب ابو ديه يسمع اصوات الاسرائيليين واوامرهم . ولحسن الحظ لم ينقطع الهاتف الذي يصله بمركز قيادة المقدم جمال عبد الناصر اثناء عمليات القصف ، ولذلك استطاع ان

يعلمه بالحالة الراهنة :

لم يفقد القائد رباطة جأشه ؛ بل انصرف فوراً الى اخذ الترتيبات اللازمة لتنظيم الهجوم المعاكس . وأمر النقيب ابو ديه بأن يستعد لصد العدو بقوة . وبما انه هو لم يكن لديه في مركز القيادة سوى عدداً ضئيل من الرجال ، فقد سحب من الخنادق الخارجيـة الجنود الذين كانوا يعسكرون فيها ؛ وحشد كل القوات المتوفرة ، وسلح الطباخين حتى اصبح لديه ما يقرب من مئة رجل . وضعهم في سرية تامة وراء صف الأشجار الذي يحاذي الطريق التي تخترق القرية ؛ وأمرهم بألا يطلقوا النار الا عندما يظهر العدو متحمساً لعدم وجود مقاومة كي تصل كل رصاصة الى هدفها .

وعلاوة على ذلك كان المقدم جمال عبد الناصر اتصل هاتفياً بالفالوجة بصديقه زكريا محيي الدين كي يرسل له النجدة ، ومع ذلك لم تأت قوات اضافية لان قائد الفالوجة خاف اذا ما ارسلها من ان تُطوق في عراق المنشية ، واكتفى بارسال رشاشين – برن – كارير – ووضعا في خط الدفاع :

كان جمال عبد الناصر يعلم بأن العدو سيستفيـد من بزوغ الفجر ليهاجم مركز القيادة ويحتل القرية كلها . وقد حشد لهذه المهمة خمسين دبابة اسرائيلية وحوالى خمسمئة رجل منتخب على مرتفع في اتجاه بيت جبرين للقدوم ومؤازرة القوات الاسرائيلية التي كانت قد وصلت الى عراق المنشية :

ولكن جمال عبد الناصر لم يطلب فقط الى زكريا محيي الدين ارسال نجدات ، بل كان قد الح ايضاً بصوت هادىء على ان تبدأ المدفعيـة المصرية في الفالوجة مع الفجر قصف خط الدفاع الكائن جنوبي غربي عراق المنشية ، اجل ان ذلك كان خطراً على القوات المصرية التي ما زالت

تحتل قسماً من القرية ، ولكنها الوسيلة الوحيدة لمقابلة عدو متفوق عدة وعدداً .

وهكذا في الساعة السادسة صباحاً ، عندما بدأ الاسرائيليون هجومهم ، استقبلوا بنار حامية عند محاولتهم اجتياز الطريق الرئيسية في القرية من جهة ، وعند محاولتهم احتلال مركز دفاع النقيب ابو دية من جهة ثانية . وبينما هم هكذا محصورون في القطاع الجنوبي الغربي من عراق المنشية بدأت المدفعية المصرية من الفالوجة تمطرهم بقنابلها .

وكانت المفاجأة اكبر مما يتوقع الاسرائيليون ، الذين كانوا يظنون بأنهم سيجدون أمامهم جنوداً خائري القوى ، بعد حصار دام شهرين وقصف عنيف دام ثلاثة ايام .

لم يكن في استطاعتهم ان يشكّوا في ان المقدم جمال عبد الناصر بتنظيمه البالغ الدقة لقطاعه ، وسهره على تأمين الطعام لرجاله ، واعطائهم التوجيهات الرشيدة الدقيقة ، كان قد نجح في ابقاء معنوياتهم قوية . والتدخل غير المنتظر من مدفعية الفالوجة في المعركة أوقع الكثير من الضحايا بين الاسرائيليين الذين كانوا قد أقاموا في بيت المختار ، وأدى الى وقف الموجة الثانية من المهاجمين ، كما عطّل الدبابات المصفحة التي كانت تحمل النجدات .

استمرت المعركة حتى الحادية عشرة صباحاً ، وجميع الرجال القادرين اشتركوا فيها ، حتى الجرحى حاربوا بالقنابل اليدوية على الرغم من ان بعض اعضائهم كانت ملفوفة بالجبس .

وقد ترك الاسرائيليون في ميدان المعركة ثلاثمائة قتيل ، وانسحبوا حاملين جرحاهم . واثناء النهار أسر المصريون خمسة اسرائيليين كانوا قد اختبأوا في أحد البيوت .

ولا ريب ان هذا النصر قد أدى الى رفع معنويات القوات المصرية

المحاصرة في الفالوجة ، لأنه جاء بعد سلسلة من الانسحابات المثبطة للعزائم . ولولا هدوء المقدم عبدالناصر واصراره لسقطت عراق المنشية بين أيدي الاعـداء ولعجزت الفالوجة عن الصمود في وجههم حتى توقيع الهـدنة . وكانت هذه الخاتمة من الناحية المعنوية والسياسية بالغة الاهمية .

عودة المحاربين الخائبين

انتهت معركة النقب في السابع من كانون الثاني سنة ١٩٤٩ ونتيجة للمفاوضات التي جرت في رودس بواسطة الدكتور بانش ومساعده اللواء رايلي وقع كلٌ من مصر واسرائيل في الرابع والعشرين من شباط سنة ١٩٤٩ اتفاقية الهدنة . وتبع ذلك توقيع الهدنة من قبل لبنان في الثالث والعشرين من آذار ، والاردن في الثالث من نيسان ، وسورية في الرابع عشر من تموز . واما العراق فانه لم يوقع اتفاقاً للهدنة وما زال قانونياً في حالة قتال مع اسرائيل . وأما السعودية فلم تشترك في حرب فلسطين .

والجدير بالذكر في حرب النقب ، انه لم تتقدم الجيوش العربية ، ولا الفدائيين المتطوعين لمساندة القوات المصرية . وفي آخر كانون الثاني ١٩٤٩ حوّل الملك عبدالله شرقي الاردن الى مملكة اردنية ، بعد ان ضم اليها المناطق الفلسطينية التي بقيت في أيدي العرب ، من نابلس الى حبرون ، بما في ذلك مدينة القدس القديمة (وقد اغتيل في سنة ١٩٥١ في المسجد الاقصى في الوقت الذي كان يستعد فيه لمفاوضة اسرائيل بشأن توقيع معاهدة صلح تتضمن بنداً يقول باستخدام مرفأ حيفا كميناء حر .)

وفي نهاية شباط سحبت مصر قواتها من فلسطين ، ما عدا المنطقة الساحلية في غزة ، حيث يعيش ستون الفاً من السكان مع مائتي الف من اللاجئين عيشة قاسية ، على ما تمنحهم إياه وكالة الاغاثة الدولية .

في أوائل آذار سنة ١٩٤٩ عاد المقدم جمال عبد الناصر ورفاقه في السلاح الى مصر محافظين على شرف الحرب . ولكن القلوب كانت مثقلة لأنهم حاربوا عبثاً وعادوا الى ديارهم دون أن يحققوا الهدف الذي ذهبوا الى الحرب من أجله .

وفي القاهرة كانت الايام الاخيرة من كانون الاول سنة ١٩٤٨ مفجعة ، فقد اغتيل سليم زكي قائد شرطة القاهرة أمام الجامعة ، وجرت محاولة لاغتيال النحاس مما خلق في القاهرة جواً من القلق الشديد .

واخيراً اضطر النقراشي رئيس الحكومة المصرية بسبب النشاط المتزايد لمنظمة الاخوان المسلمين الارهابيـة ان يصدر في الخامس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٤٨ قراراً بحلها . وبعد ثلاثة أيام فقط من ذلك التاريخ اغتيل النقراشي في مقر رئاسة الحكومة على يد عضو من الاخوان المسلمين يرتدي لباس شرطي ، في الثامن والعشرين من كانون الاول ، أي في ذات اليوم الذي استطاع فيه جمال عبد الناصر ان يرد بشجاعة فائقة آخر هجوم اسرائيلي عن عراق المنشية .

واثر هذه الاحداث الخطيرة دعي ابراهيم عبد الهادي رئيس الديوان الملكي كي يتولى رئاسة الحكومة المصرية . فتابع المعركة ضد الارهاب وزج بالمئات من اعضاء منظمة الاخوان المسلمين في السجون . ولم يتورع البوليس عن ان يستعمل الشدة والعنف مع هؤلاء للحصول على اعترافات منهم تتيـح له اكتشاف الشبكة السرية للمنظمة الارهابية : وضباط « الحرس الحديدي » من جانبهم كانوا يقضون على اولئك الذين يعتبرهم البوليس السياسي اعداء للملك .

لعنه الله يا مؤلف لقد طلب الاستعمار حل الجماعة من مصر وقد حدث .. وبسبب ذلك قتلهم [illegible]

بسبب هـذه الحالة المتوترة كان الضباط الذين عادوا من حرب فلسطين موضع حفاوة وقلق في الوقت نفسه . لقـد احتفل المسؤولون بأبطال الفالوجة ، ولكنهم احتفظوا بهم في الحجز . لأن الملك وبطانته لا يجهلون ان الدم المصري المراق عبثاً يستصرخ الاخذ بالثأر ؛ وان المحاربين الخائبين عادوا يتميزون غيظـاً من الملك الذي دفع بهم الى الحلبة بدون اعداد ودون أسلحة ، ثم قاد من القاهرة باستخفاف العمليات الحربية ، حيث قضى عدد كبير من الجنود وحيث مُرّغ الشرف العربي في الوحل .

وفي سورية في التاسع والعشرين من آذار سنة ١٩٤٩ احتل الجيش العائـد من فلسطين بقيادة اللواء حسني الزعيم دمشق وأوقف رئيس الجمهورية واعضاء الحكومة . ولكن حسني الزعيم لم تطل مدة بقائه في الحكم ، اذ اغتيل في الرابع عشر من آب سنة ١٩٤٩ . ومحـاولته الانقلابية هذه في أوائل عام ١٩٤٩ أزاحت الغشاوة عن عيون حكام القاهرة وحملتهم على ان يفكروا طويلاً فيما قد يصيبهم .

في آذار سنة ١٩٤٩ كان المقدم جمال عبد الناصر يعسكر في الاسماعيلية على قناة السويس ، وفي الخامس والعشرين منه عـاد الى القاهرة في اجازة ، وعند الساعة الواحدة بعد الظهر جاء ضابط يُعلمه بأن القائد العام للجيش يرغب في مقابلته فوراً ؛

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر علم عبد الحكيم عامر ان قائد الجيش العام قد قاد جمال عبد الناصر الى ديوان رئيس الحكومة السيد ابراهيم عبد الهادي الذي استجوبه بحضور اللواء احمد طلعت قائد البوليس السري. فاتصل هاتفياً بعدد من الضباط الاحرار كي يأتوا الى منزله ويتناقشوا في هذا الامر : وعند الساعة التاسعة مساء وصل جمال عبد الناصر وروى لرفاقه ما حصل له في رئاسة الحكومة : لقد اتهمه ابراهيم عبد الهادي بانه قد شكّل منظمة سريـة يدرب اعضاءها على استخدام السلاح ،

فأجابه جمال عبد الناصر بأنه كان يشترك في حرب فلسطين منذ الرابع عشر من ايار سنة ١٩٤٨ حتى السادس من آذار سنة ١٩٤٩ ، وبأنه لم يعد الا مؤخراً الى مصر . فكيف في امكانه والحالة هذه ان يهتم بانشاء منظمة سرية ؟ وأضاف مؤكداً بأنه لو اتيحت له الفرصة لتدريب المتطوعين من اجل المعركة الفاصلة في فلسطين لفعل ذلك مرتاح الضمير لأن عملا كهذا مفخرة وطنية قومية ".

وكان جواب رئيس الحكومة بأن لديه عدة تقارير تقول بأن جمال عبد الناصر قام بتدريب اعضاء منظمة سرية . وهو لذلك يريد معرفة اسماء الضباط الذين تعاونوا معه في هذا المجال ، فسأله :

- هل تعرف محمود لبيب ؟
- بالطبع ، لقد تقابلنا لتنظيم الدفاع العربي عن فلسطين .
- ومن قدمك اليه ؟
- النقيب انور السياحي .

عند ذلك ظن ابراهيم عبد الهادي انه نجح في سحب اعتراف من جمال عبد الناصر فكتب اسم الضابطين وسأل :

- وما هو عنوان انور السياحي؟
- في الملأ الأعلى ، فقد مات اثناء الحرب .

عندئذ غضب رئيس الحكومة ، بينما انفجر عبد الناصر ضاحكاً :
وصرخ ابراهيم عبد الهادي غاضباً .

- لقد هزأت بي ، واستطيع ان اسلمك للبوليس : هل تدري ما هو البوليس ؟

لم يستطع ابراهيم عبد الهادي ان يسحب من المقدم جمال عبد الناصر اية معلومات ولذلك امر اللواء عثمان المهدي بتفتيش منزل جمال . وقد وجد فيه صندوقة تحتوي مائتي طلقة فصادرها ، ولكنهم لم يجدوا شيئاً آخر :

وكي نفهم المعنى العميق الكامن وراء هذا الاستجواب ، يجب ان نشير الى ان المقدم محمود لبيب كان معاون الشيخ حسن البنا المكلف بتعليم الضباط الاحرار ، الذين كانوا انضموا الى منظمة الاخوان المسلمين ؛ وكان المرشح حسب رواية انور السادات في كتابه « ثورة على ضفاف النيل » ان يتوجه في الليل الى حي الصليبة حيث يقوده احد الاشخاص عبر عدد من الطرقات الضيقة الملتويـة الى قصر قديم ينبعث منه نور ضئيل ؛ فيُدخله احد المحتفلين الى غرفة فسيحة ويدعوه الى الجلوس امام طاولة عليها قرآن ومسدس . ثم يحمله على ان يردد القسم كلمة كلمة ، يد على القرآن والاخرى على المسدس ، وكان المرشح يقسم على الولاء والطاعة المطلقتين للمنظمـة ، متعهداً بألا يبوح بشيء من اسرارها وهكذا كان يصبح اداة في يد المرشد العام .

وضابط الارتباط بين الاخوان المسلمين والضباط الاحرار كان المقدم عبد المنعم عبد الرؤوف ، وكي لا يكشفه اعطى المقدم عبد الناصر اسم النقيب انور السياحي الذي تطوع للدفاع عن فلسطين مع كمال الدين حسين ، وقتل هناك في بدء حرب فلسطين .

لقد اكتشف ابراهيم عبد الهادي في تحريه وراء الاخوان المسلمين انه كان يوجد علاقات بينهم وبين الجيش . وكان عليه ان يضع يده على بعض العناصر في خلايا منظمة خارج الجيش على يد انور السادات ، وبما انهم كانوا مدنيين من غير العسكريين لذلك اتهم المسؤولون عبد الناصر ورفاقه بتدريبهم على استخدام السلاح . ويبدو ان رئيس الحكومة لم يستطع ان يكشف امر اية خلية من الخلايا التي كان قد تم تنظيمها داخل الجيش ؛

لقد كشفت حرب فلسطين التي اشترك فيها المتطرفون من الاخوان المسلمين امر المنظمة واخرجتها من السرية ، وصـار البوليس السري يعرف اسماء اولئك الذين تطوعوا للقتال هناك تحت قيادة الزعيم احمد عبد

العزيز ، وصار ينبغي ان يكون الضباط الذين اتصلوا قبل الحرب وبعدها بالاخوان المسلمين حذرين جداً .

وفهم جمال عبد الناصر ان حركة الضباط الاحرار لن تنجح الا اذا عملت في سرية تامة دون ان تحاول الاعتماد على صوفية خلفاء الشيخ حسن البنا المتطرفين .

والله حاسب المؤلف المخرف المزور ..
إنه لم يذكر أن

عبد الناصر وغيره من الأحرار كانوا تعاونوا مع
الإخوان قبل حرب فلسطين ودرب عبد الناصر
شباب الإخوان للعمل بعمليات فدائية ضد
الإنجليز في التنظيم السري ..

لماذا أسقط المؤلف هذا الجزء الرهيب الخطير ؟
لأن إغفال هذا يسقط كل الكتاب لأنه هجوم على
الإخوان .. ونسيان أن عبد الناصر كان يوما ما
في الإخوان طوال سنوات أربع طويلة !!!

حَرْبُ المنشورات

خسرت حركة الضباط الاحرار أثناء حرب فلسطين عدداً من اعضائها قضوا في ساحة الشرف . وتجربة الفشل المريرة أقنعت النخبة في الجيش ان مصر لن تصبح قوية الا اذا حدثت فيها ثورة جذرية .

وبينما كانت قوات الفالوجة تعود الى مصر ، كان المقدم كمال الدين حسين يتوجه لمقابلة جمال عبد الناصر في ثكنة العريش . وهناك نقل له آخر عبارات تفوه بها صديقهما الزعيم احمد عبد العزيز في بيت لحم قبل ركوبه سيارة صلاح سالم حيث كتب له ان يموت فيها على طريق عراق المنشية برصاصة غادرة حيث قال : « .. اسمع يا كمال ، ان المعركة الحقيقية ليست هنا ، انها في مصر . هناك الساحة الكبرى للمعركة .. »

لقد استعاد جمال هذه العبارة في ذاكرته مراراً . وقرر مع رفاقه ان يُعيدوا تنظيم حركة الضباط الاحرار .

والملك فاروق بعد استخدامه وزارة ابراهيم عبد الهادي لضرب منظمة الاخوان المسلمين المخيفة أقال فجأة في تموز ١٩٤٩ رئيس حكومته ، عندما لاحظ ان المنظمة قد قضي عليها . وعيّن مكانه فنياً من عائلة

عريقة هو حسين سري ، وبدأ سياسة تقارب مع الوفد ومع بعض العناصر التي أعادت تنظيم صفوف منظمة الاخوان المسلمين . كانت الحالة السياسية مضطربة . وقد حاول القصر ان يخفي فداحة الخسائر المتكبدة في فلسطين بتستره وراء ابطال « الفالوجة » . ولكن المرارة كانت تحز في قلوب الوطنيين الحقيقيين .

وكان ان التقى الضباط الاحرار الذين انضموا الى الحركة قبل الحرب بأولئك الذين تقربوا منهم وانضموا الى صفوفهم اثناء القتال : التقوا جميعاً في القاهرة وفي الثكنات . وتشكلت لجنة تنفيذية من تسعة أعضاء هم :

جمال عبد الناصر ، كمال الدين حسين ، عبد الحكيم عامر ، حسن ابراهيم ، عبد المنعم عبد الرؤوف ، صلاح سالم ، عبد اللطيف البغدادي ، خالد محيي الدين ، انور السادات ، الذي كان لا يزال خارج الجيش عام ١٩٤٩ والذي سيعاد اليه عام ١٩٥٠ . وقد تحولت هذه اللجنة الى مجلس للثورة فيما بعد ، ما عدا عبد المنعم عبد الرؤوف الذي أقصي عام ١٩٥١ بسبب انتسابه الى الاخوان المسلمين ، وتقيده بأوامرهم اكثر من تقيده بأوامر المنظمة السرية . وسيضاف الى القائمة زكريا محيي الدين ، حسين الشافعي ، عبد المنعم امين ، ويوسف صديق منصور ، وهذان الاخيران أقصيا فيما بعد لميولهما الشيوعية .

وكان مخطط الثورة الذي وضعه جمال عبد الناصر قبل حرب فلسطين يتضمن مرحلتين تؤديان الى تحرير مصر من الاستعمار ، وحليفيه الاقطاع والرأسمالية ، المتكاتفين معاً للابقاء على عبودية الشعب المصري . كان يجب ان يُنشأ جيش كبير كما ينبغي ان تتحقق العدالة الاجتماعية والديمقراطية الصحيحة .

في تشرين الاول سنة ١٩٤٩ في اجتماع سري في بيت عبد الحكيم عامر ، تقرر ان تقسم على خمس سنوات مراحل تحقيق مخطط الحركة .

وبما ان النضال ضد الاستعمار هو في رأس هذا المخطط ، فقد تألف جهاز خاص مهمته اعداد الفدائيين .

وكلف بعض اعضاء اللجنة التنفيذية اقامة علاقات مع القصر وكبار الضباط وذلك للحصول على المعلومات وتبديد الشكوك .

وكان صلاح سالم يعرف شخصياً المشير حيدر باشا ، المدير العام السابق للسجون الذي جعل منه فاروق قائداً عاماً للجيش فأبقى على علاقته معه ينقل اليه معلومات لا قيمة لها او مغلوطة ، ويحصل منه بالمقابل على معلومات بالغة الاهمية .

وانور السادات الصديق القديم للدكتور رشاد ، كان يستعلم عن طريق هذا الصديق المقرب جداً من الملك شكوك وتحريات البوليس السياسي المتعلق مباشرة بالقصر .

وكانت الجمعية السرية مؤلفة من خلايا تضم كل منها خمسة اعضاء يعرف كل منهم بدوره خمسة أعضاء آخرين . والاعضاء الجدد كانوا لا يقبلون في الخلايا الا بعد تحقيق دقيق عن خصالهم وسوابقهم . وكل عضو كان يدفع رسماً شهرياً الى صندوق المنظمة .

واول ظاهرة من نشاط المنظمة التي أعيد تشكيلها كان توزيع منشور على الشعب كتب بخط اليد وطبع على « ستنسل » . وفي هذا المنشور الموزع في تشرين الثاني سنة ١٩٤٩ توجه الضباط الاحرار بنداء الى المصريين جميعاً يدعونهم فيه الى المطالبة بتحرير الوطن من القوات الاجنبية والعمل كي يعطي درس فلسطين المرير ثماره .

كان يجب ان يُعاد تنظيم الجيش ويحسن تدريبه وتسليحه ، ويجب ألا يكون اداة في ايدي الحاكمين يستخدمونه في حفلاتهم واستعراضاتهم .

وقادة الامة يجب ان يكفوا عن تبذير خيرات البلد في البذخ والترف والميسر . يجب ان يرفع مستوى معيشة الطبقات الفقيرة التي تتضور من الجوع .

والتجارة الدنيئة للرتب والاوسمة يجب ان يوضع لها حد .

وقد قام بوضع هذا المنشور في صندوق بريد ضباط الاركان العامة كل من كمال الدين حسين وجمال عبد الناصر وصلاح سالم . بينما قام بتوزيعه في وحدات المشاة والفرسان وسلاح الجو كل من زكريا محيي الدين وعبد اللطيف البغدادي وحسين الشافعي وحسن ابراهيم وثروت عكاشه ومجدي حسنين وابراهيم الطحاوي .

وأحدث المنشور في قيادة الجيش فضيحة . وفتح ملف خاص باسم « الضباط الاحرار » ولكن المحققين ضاعوا بين الظنون والاوهام في بحثهم عن كاتبي هذا المنشور .

وفي القصر استشاط فاروق غضباً وأمر بوليسه الخاص باستخدام جميع الوسائل لكشف اسماء هؤلاء المحتجبين الوقحين . في ذلك الوقت بالذات تقرب النقيب مصطفى كامل صدقي من المقدم جمال عبد الناصر وأعطاه تفصيلات هامة عن الجمعية الوطنية السرية . التي كان قد كونها في الجيش بمساندة الملك فاروق السرية . وعرض عليه دمج منظمته مع منظمة الضباط الاحرار . وقد تظاهر جمال كما يروي انور السادات بالدهشة لهذه الامور . وبذل جهده كله كي يقنع النقيب بأنه لم يكن يدير اية منظمة سرية .

وهكذا نجح المقدم جمال عبد الناصر بموهبته وقدرته الفائقة على الاخفاء في ادارة الشبكة المتزايدة من الضباط الاحرار ، دون ان يلفت الانظار ويثير الشكوك في قيادة الجيش والبوليس السري السياسي ، ودون معرفة اعضاء المنظمة انفسهم بأنه هو الذي كان يمسك زمام المعركة . ولما انتخبوه رئيساً للجنة التنفيذية عام ١٩٥٠ اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً « زغلول » وبهذا الاسم كانوا يتصلون به زيادة في الحذر وخوفاً من البوليس السياسي الذي له آذانه في المديرية المركزية في القاهرة .

في هذه الحقبة بالذات عرّف خالد محيي الدين ، اكثر الضباط الاحرار « يسارية » جمال عبد الناصر الى القاضي احمد فؤاد الذي كان يسكن قبالة مدرسة اركان الحرب ، في نفس العمارة التي كان يسكنها كمال الدين حسين . وأطلع السيد احمد فؤاد ، وهو اشتراكي صميم ، جمال عبد الناصر على كتب لأسكي وبيفان ، ونهرو .

كان المقدم جمال عبد الناصر من حيث المظهر الخارجي يحيا حياة ليس لها مثيل من حيث النظام . اننا لا نزال نذكر انه كان قد لمع في امتحان كلية اركان الحرب في الثاني عشر من ايار سنة ١٩٤٨ وبرز اثناء معارك فلسطين ، ولذلك قُلّد عام ١٩٤٩ وسام النجمة العسكرية . وفي سنة ١٩٥٠ – ١٩٥١ كُلف اعطاء دروس في مدرسة اركان الحرب ، حيث برهن انه استاذ ممتاز كما كان مدرباً بارعاً في الكلية الحربية .

لقد سبق وألمحت الى غزارة مطالعاته وجديتها ، ثم جاءت تجربة فلسطين المريرة تزيده نضوجاً . ولما عاد من جديد الى دراسة مؤلفات التاريخ العسكري والستراتيجية التي كان قد طالعها قبل سنة ١٩٤٨ افاد منها كثيراً .

وكان من بين زملائه آنذاك المقدم زكريا محيي الدين الذي كان يلقي محاضرات عن النقابات ودوائر الاستخبارات والمقدم كمال الدين حسين استاذ المدفعية .

وخلال سنة ١٩٥٠ فاحت رائحة الفضائح المتعلقة بتموين الجيش . والصقت كلها بكبار الضباط وبالعائلة المالكة نفسها . وعندما بدأ ديوان المحاسبة تدقيق العمليات المالية لعامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ لاحظ وجود عدة مخالفات . فقد رصدت مبالغ باهظة للرشوة وذخائر فاسدة كانت قد اشتريت . وبينما كان الضباط والجنود يقاسون الامرين في فلسطين ويتألمون ، كان هناك في القاهرة اناس بلا ضمير ولا وجدان يُثرون عن طريق تموين الجيش .

اجل ، لقد قفزت موازنة الدفاع الوطني في سنة ١٩٤٩ من ٦٣ الى ١٩٣ مليون جنيه ، اذ ان فرقة مدرعـــة قد شُكلت ، ومصانع حربية اقيمت . ولكن الضباط الاحرار لم يكونوا يثقون في اولئك الذين يتولون امور تلك الموازنة . لقد اكتشفوا ان اللواء سري عامر رئيس اركان حرس الحدود ، قد اشترك في عملية بيع الجيش المصري بأسعار مذهلة ، ذخائر كانت الجيوش الاجنبية قد خلفتها وراءها في الصحراء الغربية منذ الحرب العالمية . وذاع الخبر واشيع ان الملك له يد في هذه الصفقات المشبوهة .

وجاء المقدم عبد الحكيم عامر الذي كان مساعداً للواء محمد نجيب في فلسطين ، لزيارة رئيسه في المستشفى حيث كان يتداوى من جروح خطيرة كانت قد اصابته اثناء معارك كانون الاول سنة ١٩٤٨ ، ثم ذهب لزيارته في مدرسة اركان الحرب حيث كان يلقي محاضرات . وفي احد الايام زاره برفقة المقدم جمال عبد الناصر . وفي مرة اخرى كان برفقته المقدم صلاح سالم .

وبدأ الضباط الشباب ، بعد عمليات التقرب الحذرة هذه ، يُطلعون محمد نجيب كبيرهم على امانيهم وعلى برنامج الضباط الاحرار . فقبل اللواء ان ينخرط في المنظمة السرية غير انه لم يلعب فيها دوراً ايجابياً ، ولم يتعرف الا الى قسم من اعضاء اللجنة التنفيذية . وفي تقارير متعددة ومقالات لاذعة موقعة بامضاء جندي مجهول منشورة في مجلة روز اليوسف قام اللواء محمد نجيب بحملة ضد الفوضى والفساد السائدين في الجيش .

وكان الضباط الاحرار في منشوراتهم يقودون المعركة نفسها . وفي نهاية سنة ١٩٥٠ كانت منشوراتهم قد اصبحت مجموعة لاهبة بالتهديد ضد العهد تقض مضاجعه بعنوانها « صوت الضباط الاحرار » .

والتحقيق الذي قامت به وزارة الحربية ، تحت ضغط الرأي العام كشف عن لائحة طويلة من اسمـــاء اشخاص كانوا قد قبضوا سمسرة

ورشوة من تجار الاسلحة ، غير ان المدعي العام تلقى امراً بوجوب تجميد الحقيقة في الوقت الذي اصبحت الفضيحة فيه كبيرة جداً ، تطال مباشرة الملك وبطانته .

والى فضيحة الاسلحة أضيفت في خريف سنة ١٩٥٠ فضيحة البورصة، اذ كان اعضاء في الحكومة الوفدية مع زوجة رئيس الحكومة مصطفى النحاس نفسها قد اشتركوا في مناورات في بورصة القطن في الاسكندرية. وأدت عمليات الاحتكار والتلاعب بالاسعار الى تضخم خطير موقت في سوق اسعار القطن . وقد اضطربت الحياة الاقتصادية في البلد من جراء المناورات الجريئة التي لجأ اليها المحتكرون الذين فقدوا الضمير والوجدان. وظلم كبار الرأسماليين يبدو اكثر شناعة اذا عرفنا كم كانت الطبقتان المتوسطة والفقيرة تقاسيان وتتألمان من غلاء المعيشة . والفلاح الصغير الذي كان بسبب حاجته الى المال قد باع قطنه وهو لا يزال في الحقل قبل جَنْيه . وساءه ان يرى اسعار القطن ترتفع ثلاثة اضعاف بعد وصوله الى ايدي المحتكرين .

وبالنسبة لجمال عبد الناصر ورفاقه الذين كانوا يعيشون بتواضع من مرتباتهم الضئيلة ، والذين ما زالت تدوي في آذانهم اصوات المدفعية الاسرائيلية والذين احتفظوا في مخيلتهم بصورة مؤلمة لعرب فلسطين المطرودين من ديارهم ، كان مجرد التفكير في ان الملك وبطانته قد اثروا من هذه الحرب لا يحتمل . وقد رسخت مفاسد الرأسماليين من كبار تجار القطن الى كبار اصحاب الاملاك في اذهانهم الاعتقاد بأن الفلاح ، والعامل ، والموظف الصغير ، والمصري المثقف الشريف ، يجب ان يُحموا جميعاً من احتكار الاقطاع ورأس المال .

الوفد ينقض معاهدة التحالف مع بريطانيا

عاد حزب الوفد الى الحكم بعد الانتخابات التي جرت في تموز سنة ١٩٥٠ ، وكان يضم آنئذ مواطنين وطنيين مخلصين وملاكين كباراً ومحترفي سياسة ، جل همهم ان يستغلوا وصولهم الى الكرسي للكسب الشخصي والاثراء على حساب مصالح الامة .

وكان ان استؤنفت المفاوضات مع بريطانية بشأن الجلاء عن مصر والسودان من جديد على عهد الوزارة الوفدية .

وبعد خمسة عشر شهراً من المفاوضات والمناقشات المملة ، تمسك خلالها كل فريق الى ما لا نهاية بوجهة نظره ، دون ان يتوصل الى اقناع الفريق الآخر . تكهرب الجو ، وكان الرأي العام المصري يطالب بنقض المعاهدة مع بريطانية وجلاء القوات البريطانية . وكان الجميع ، رجال السياسة والصحفيون يرددون ان معاهدة سنة ١٩٣٦ كانت قد وُقعت في وقت كان المستعمر الانجليزي فيه يُرهب المصريين بخطر الاحتلال الفاشستي لوادي النيل . وبين الاستعمار البريطاني الذي عرفته وتحملته ، وبين الاستعمار الايطالي المتزايد خطره على الحدود ، فضلت مصر آنذاك الاستعمار الاول الذي لا تملك امكانية دفعه عنها . ولكن الاحوال ما لبثت ان تغيرت وانتصرت في الحرب العالمية

الثانية الديمقراطيات المنادية بحرية الشعوب ، ولم يعد هناك أي أثر للخطرين النازي والفاشستي . ومصر الآن عضو في الأمم المتحدة التي يفرض فيها أول ما يفرض تأمين السلام الدولي واحترام حقوق الشعوب الصغيرة . ولم يبق على مصر إلا أن تعمل للتخلص من الحماية البريطانية ومن المعاهدة التي تعطي لفريق قوي حق احتلال قسم من أراضي الفريق الثاني الضعيف .

وعلاوة على ذلك كان المسؤولون المصريون يقولون ان انجلترة نفسها لم تحترم بنود معاهدة ١٩٣٦ . لقد سُمِح لها ان تُبقي في مصر عشرة آلاف جندي واربعمائة طيار . فاستفادت من هذا البند لتبني لنفسها قاعدة عسكرية ضخمة في منطقة القناة وضعت فيها ستين الفاً من جنودها . وهذا الاحتلال لقناة السويس كان مخالفاً ولا شك لبنود معاهدة سنة ١٨٨٨ المتعلقة بضمان حياد الطرق المائية وتأمين الملاحة الدولية فيها .

هذا وقد قابل المفاوضون الانجليز الحجج المصرية ببرودتهم البريطانية والمبدأ السياسي البريطاني القائل : « انني هنا ولذلك سأبقى » ، كأنّ الوضع الراهن لا يمكن ان يتغير إلا بفرض اتفاقات جديدة .

عندئذ ، بفضل ضغط الجناح اليساري للشبيبة الوفدية ، اتخذت الحكومة المصرية قراراً خطيراً فدعت الى جلسة استثنائية صدق مجلس النواب المصري بالاجماع في السادس من تشرين الاول سنة ١٩٥١ نقض معاهدة التحالف المعقودة مع بريطانية في ٢٦ آب سنة ١٩٣٦ والاتفاقات المعقودة معها بشأن السودان في ١٩ تموز سنة ١٨٩٩ ، وأعلن فاروق ملكاً على مصر والسودان . فقامت على الأثر كل من بريطانية وفرنسة وتركية بمحاولات مشتركة للابقاء على مصر في النطاق الدفاعي عن العالم الغربي . وعرضت هذه الدول على مصر توقيع ميثاق رباعي يؤمن سلامة الشرق الاوسط ، تجلو أثره القوات البريطانية من منطقة القناة ليحل محلها قوة دولية تقدمها الدول الاربع الموقعة على الميثاق . غير ان مصر

رفضت ، وكان الرأي السائد ان توقيع ميثاق كهذا من شأنه ان يكرّس شرعية احتلال قسم من الاراضي المصرية بقوات ثلاث دول اجنبية عوضاً عن دولة واحدة .

والشعور العام المتمكن من طبقات الشعب كان يقضي بوجوب بقاء مصر خارج النزاع الدائر بين الكبار . وبصورة خاصة لم تكن الشبيبة المتزايدة النفوذ في الحياة السياسية تعتقد بوجود الخطر الروسي . وأولئك الذين كانوا يعتقدون بوجوده كانوا يرون في عصر القنبلة الذرية من من الافضل لهم ألا يقيموا في بلادهم قواعد عسكرية غربية . لذلك يجب بذل المستحيل لحمل الانجليز على اجلاء قواتهم ، وحتى لو بقيت هذه بالقوة في منطقة القناة . وكان يبدو من الانفضل لمصر ان تعلن عدم ارتباطها بالمعسكر الغربي حتى لا تصبح فيما لو حصلت حرب جديدة كوريا ثانية .

وكان يوجد في مصر افراد قلائل يعتقدون ان مستقبل مصر معلق بتحالف وثيق مع بريطانية . انه رأي حافظ عفيفي ، وهو طبيب سابق تحول رجلاً سياسياً ثم رجل مال . لقد كان سفيراً لمصر في لندن حيث وطّد لنفسه علاقات الصداقة في الاوساط السياسية والثقافية وفي عالم الاعمال . لقد عرف الانجليز في بلادهم ، واستقبلته النخبة البريطانية استقبال الند للند ، لذلك لا يشعر بأي مركب نقص عندما يتعامل مع الاجانب . وبعد ان أصبح وزيراً للخارجية تولى رئاسة بنك مصر وأسهم في تطوير النواة الكبرى للشركات المصرية . تلك النواة التي حررت تدريجياً اقتصاد وادي النيل من السيطرة المالية الاجنبية . وكان يعتقد كأحمد ماهر فيما مضى ، بأنّ مصر يجب ان تلعب ورقة الحلفاء الغربيين لتحمي نفسها من الخطر الشيوعي وتفيد من المساعدة المالية الاميركية :

ولكن احمد ماهر كان قد اغتيل على يد افراد منظمة الاخوان المسلمين . ويجب الاعتراف بأن هذا المفهوم الموالي للغرب الذي كان

يدين به هؤلاء لم يكن يقول به سوى بضعة أفراد . وكان يتعارض مع الشعور السائد في البلاد .

كان هناك سياسي مصري آخر أعلن صراحة انه من أنصار التقارب الوثيق مع بريطانية ؛ انه عبد الفتاح عمرو ، بطل العالم السابق في السكواش الذي أصبح هو الآخر سفيراً لبلاده في بلاط سان جيمس . وفاروق الذي أتاح للوفد ان يعود الى الحكم ، والذي أبقى على علاقاته السرية مع الاخوان المسلمين ، أقام لنفسه علاقات وطيدة في لندن عن طريق السفير الشاب المشهور في انجلترة بانتصاراته الرياضية .

واذا كانت الألاعيب الدبلوماسية تسلّي الساسة الوصوليين الانتهازيين ورجال الاعمال الذين تربطهم علاقات بلندن ، فانها تثير اشمئزاز الوطنيين وتتناقض مع اولئك الذين كانوا يناضلون لكي يحملوا مصر على الدخول في معركة ضارية لاجلاء القوات البريطانية عنها .

وكان هذا الشعور هو شعور جمال عبد الناصر الذي رُقي الى رتبة عقيد في الثامن من ايار سنة ١٩٥١ وعين مدرباً في كلية اركان الحرب في التاسع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٥١ وكان وجود الجنود البريطانيين بالنسبة له في الاراضي المصرية في حد ذاته بغيضاً ، لأن هؤلاء كانوا يلطخون هواء مصر الحر ، كما كان يقول لرفاقه في كلية أركان الحرب قبل حرب فلسطين .

واذا كانت حكومة مصطفى النحاس قد أعلنت نقض معاهدة سنة ١٩٣٦ فان ذلك العمل قد تم تجاوباً مع شعور جمال عبد الناصر وأمثاله الذين يعبرون عن رأي الامة الصادق . لقد كان رئيس الوزارة رجلاً طاعناً في السن ، وكان يتأثر كثيراً بزوجته الشابة المتحدرة من عائلة ميسورة معتادة على البذخ والترف : والامين العام للحزب المالك العقاري الغني فؤاد سراج الدين كان الزعيم الحقيقي للوفد على الرغم من ان الزعامة الاسمية كانت لمصطفى النحاس . واذا كان سراج الدين وقادة

حزب الوفد السياسيون قد وافقوا على اجراء خطير كنقض الاتفاق مع بريطانية ، فذلك لأن موجة جذرية عميقة كانت تعصف بالبلد ، ولأن اعتبارات الحذر والمصلحة المادية قد تجمدت بفعل حركة الرأي المهووسة.

لقد قيل بأن القصر وقادة الوفد المتهمين بالاختلاس في عمليات صفقات الاسلحة واحتكارات القطن قد شنّوا هذه الحملة السياسية ضد بريطانية لتحويل انتباه الرأي العام عن المخالفات التي اتهموهم بارتكابها . ومن المحتمل ان تكون هذه الاعتبارات قد لعبت دوراً في القرار المتخذ . ولكن هذا الدور لم يكن متفوقاً . والواقع ان الزعماء الوفديين ساروا وراء قطيعهم عوضاً عن ان يقودوه الى مهاجمة المراكز البريطانية .

بعد مرور اسبوعين على اعلان نقض المعاهدة الانجليزية – المصرية حضرت في القاهرة المؤتمر الوطني لمنظمات الشبيبة من مختلف الاحزاب حيث نوقشت الاجراءات التي يجب اتخاذها لاجلاء القوات البريطانية . وكان محمد صلاح الدين الوزير الوفدي الشاب للشؤون الخارجية ، الشخصية السياسية الوحيدة في حزب الوفد التي حضرت المؤتمر . وكان يجلس عن يساره مفتي فلسطين الأكبر الحاج امين الحسيني ، وعلى يمينه رئيس الحزب الوطني حافظ رمضان ، ولم يحضر آي عضو من أعضاء الحكومة أو أي زعيم من الزعماء الوفديين الآخرين ، حتى زعماء الاحرار الدستوريين والسعديين غابوا ايضاً عن ذلك المؤتمر :

وقد طالب المؤتمرون بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانية ، ومقاطعة البضائع الانجليزية ، وسحب الارصدة المصرية من المصارف البريطانية ؛ كما طالبوا بأن يتوقف الاربعون الف عامل مصري الذين يعملون في المعسكرات البريطانية عن أعمالهم ، وبأن تُقطع المؤونة من الخضار والفواكه عن القوات البريطانية .

وبالاضافة الى ذلك طلب المؤتمرون من المسؤولين تدريب المتطوعين الفدائيين على استخدام السلاح لمناوشة القوات البريطانية واقلاق راحتها .

وفي الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩٥١ قبيل الذهاب الى باريس لحضور دورة الامم المتحدة ، سلمني وزير الخارجية الديناميكي السيد محمد صلاح الدين التصريح التالي الموجه خصوصاً الى الشعب السويسري لأنشره في « جورنال دي جنيف » ؛

« .. ان مصر لا ترغب إلا في تحقيق استقلالها بإنهاء الاحتلال البريطاني الذي أثقل كاهل مصيرها ومقدرتها طوال سبعين سنة . انه ما زال مستمراً على الرغم من الوعود التي يزيد عددها على الستين .

بعد مفاوضات طويلة عسيرة بدأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية لتستمر طيلة ست سنوات انتهى الأمر بمصر الى قطع كل أمل في الوصول الى اقناع خصمها بالمنطق . ولم يبق أمامها اذن من وسيلة إلا نقض معاهدة سنة ١٩٣٦ . ان هذه المعاهدة علاوة على ذلك لم تكن متكافئة ، لأنها عُقدت تحت ضغط الاحتلال ولم يعد هناك من مبرر لوجودها طالما ان الظروف التي أدت الى عقدها قد تغيرت تماماً .

« .. وأضيف الى ما سبق ان بنود هذه المعاهدة تتعارض مع ميثاق الامم المتحدة ، والبريطانيون مع ذلك لم يطبقوا من هذه البنود إلا ما كانوا يجدونه موافقاً لأهدافهم ويخدم أغراضهم ويطيل بقاءهم واحتلالهم لوادي النيل .

« .. والشعب السويسري الذي يتألف من ثلاثة عناصر مختلفة يتحدث كلٌ منها لغة خاصة ، والذي يعيش على الرغم من هذا التفاوت في ظل اتحاد وثيق وتضامن عجيب ، هو أجدر من أي شعب آخر بفهم الدافع لتوحيد مصر والسودان ومساندة هذا المطلب الحيوي .

« .. ان مصر والسودان تشكلان منذ أقدم العهود السحيقة وحدة جغرافية واقتصادية . هذا عدا روابط العنصر واللغة والدين التي تربط بين المصريين واخوانهم السودانيين :

« .. ولكن الانجليز ، بعد ان احتلوا مصر ، استأثروا بالسودان .

وبدأوا فيه ، تارة عن طريق العنف ، وطوراً عن طريق الحيلة ، عمل بعيد المدى يهدف الى قطع أواصر هذه الوحدة .

« .. وبكلمة موجزة يمكن القول ان الانجليز قد تآمروا على سيادتنا ووحدة بلدنا ، ولذلك فرض علينا واجبنا ان ندافع عن أنفسنا ضد هذه المؤامرة .

« .. اننا مقتنعون بأن جميع المواطنين الحريصين على حريتهم في أية أمة كانت سيساعدوننا في نضالنا المقدس من أجل خير وطننا . »

ان هذا النص يصور بوضوح الموقف الذي اتخذته الحكومة الوفدية تحت الضغط الذي كانت قد أحدثته الدعاوة الوطنية في داخل حزب الوفد الحاكم نفسه ، وفي الرأي العام المصري بصورة عامة .

لقد كان الرأي العام بالاجماع يطالب بالجلاء التام عن منطقة القناة .

وفيما يختص بالسودان كان لا بد من انهاء الحكم الثنائي الناتج عن اتفاق سنة ١٨٩٩ . أجل ، لقد دمج هذا الاتفاق الاراضي السودانية بالاراضي المصرية . ولكن بريطانية ، تحت ستار الحكم الثنائي ، كانت قد جعلت عملياً من السودان مستعمرة بريطانية ، وكانت مصر تتحمل قسطاً من المصروفات الادارية والتطويرية مقابل شراكتها الاسمية في حكم السودان .

وكان جمال عبد الناصر ، الطالب الوطني ، قد احتج بعنف عام ١٩٣٦ على المعاهدة الانجليزية المصرية . ولم يكن في استطاعته بعد مضي خمس عشرة سنة إلا أن يهلل لنقضها : لقد انتهى الامر بالسياسيين اذن الى تبني الموقف الذي طالما دافع عنه في الوقت الذي كان فيه جماعة الوفد ورجال الدولة الواقعيين – من النحاس الى اسماعيل صدقي – يقبلون بأن يربطوا مصير مصر بمصير بريطانية :

ويمكن القول ان تجربة السنوات الخمس عشرة من التحالف قد أتاحت لمصر ان تبدأ مع حظ أقوى في النجاح معركتها النهائية من أجل استقلالها الناجز :

على الصعيد الدولي كانت مصر قد أصبحت عضواً في الامم المتحدة. وفي القاهرة جُعل مقر جامعة الدول العربية، ومصر قد أكدت شخصيتها السياسية، وأصبح على بريطانية ان تأخذ هذا العامل المعنوي بعين الاعتبار.

ومن ثم اذا كانت بريطانية لم تحترم البند الذي يسمح لها بابقاء عشرة آلاف جندي في مصر كما جاء في معاهدة سنة ١٩٣٦ فانها على الاقل كانت قد أخلت القاهرة والاسكندرية منذ بداية سنة ١٩٤٧

وكذلك في أعقاب توقيع المعاهدة زيد عدد أفراد الجيش المصري من أحد عشر الى ثمانين الف جندي. الامر الذي يتطلب توسيع نطاق جهاز الضباط. وقبل المعاهدة كانت الكلية الحربية تخرج سنوياً ستة وثلاثين ضابطاً، فأصبحت بعد المعاهدة تعد ما يزيد على الالف ضابط. وبفضل هذا التوسيع في جهاز الضباط أتيح لجمال عبد الناصر ان يدخل الى الكلية الحربية في آذار سنة ١٩٣٧ بعد ان كان قد رُفض في البدء. وأعطاء جهاز الضباط الطابع الديمقراطي هو الذي فتح أبواب الحياة العسكرية أمام عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وزكريا محيي الدين، أوفر العناصر حيوية بين الضباط الاحرار. ان الجيش المصري في سنة ١٩٥٠ هو غير جيش مصر لما قبل سنة ١٩٣٦ حيث كان أغلب الضباط بريطانيين يعاونهم اتباع قلائل من المصريين الموالين للقصر.

فدائيّون جامعيّون ضدّ القوّات البريطانية

على اثر نقض معاهدة التحالف المعقودة في سنة ١٩٣٦ أجابت بريطانية مؤكدة ان هذا الاتفاق لا يمكن الغاؤه بقرار من طرف واحد من الفريقين . ثم لجأت الى اتخاذ اجراءات عسكرية ضد الحملة المعادية لها التي ازدادت في البرلمان وفي الصحافة المصرية . ورفعت عدد جنودها الى ثمانين الفاً في قاعدة القناة ، كما اشتركت الطائرات والطرادات في عمليات نقل الجنود والذخائر بسرعة اذهلت الحكومة المصرية وقيادة الجيش المصري .

وكان اطلاقُ الجيش الوطني ضد قوات الاحتلال معناه ضرب اناء من الحديد بإناء من الفخار . فلم ترتكب حكومة النحاس هذه الحماقة ، ولم تقطع حتى العلاقات الدبلوماسية مع بريطانية ؛ بل اصرت على الدفاع بقوة عن وجهة النظر المصرية امام مجلس الامن التابع لهيئة الامم المتحدة ، وفي جميع المحافل الدولية التي تستطيع الدبلوماسية المصرية ان تلجها .

وفي الاوساط الدبلوماسية الغربية وبصورة خاصة في اميركا تكوّن رأي يقول بأن اجراءات القوة البريطانية من شأنها ان تُفسح المجال واسعاً امام الدعاوة الشيوعية في الشرق الأوسط .

وفي مصر نظمت الحكومة الوفدية التي يسيطر عليها فؤاد سراج الدين

وزير الداخلية والمالية المقاومة السلبية التي تقضي برفض التعاون مع المستعمر . ورُفعت مذكرات احتجاج شديدة اللهجة ضد الاجراءات التعسفية ، واعمال العنف التي ارتكبها الجيش البريطاني .

وحدثت مظاهرات جماهيرية صاخبة احاط بها اعضاء الكتائب التي كان الاخوان المسلمون قد الفوها . وكانت قد حلت الا انها قد عادت الى الظهور بموافقة الحكومة الضمنية ، وساروا نحو من مائتين وخمسين الفاً في الاسكندرية ، وما يقرب من مليون في القاهرة ساروا صامتين في الشوارع احتجاجاً على السياسة البريطانية . وكان الانتظام كاملا ولم يتعرض اي من المقيمين البريطانيين لسوء :

وطالبت احزاب المعارضة لا سيما الاشتراكيون الذين خرج رئيسهم احمد حسين حديثاً من السجن ، والاخوان المسلمون ، طالبت بطرد الموظفين الانجليز جميعاً وبسحب رخص اقامة الموظفين البريطانيين . غير ان فؤاد سراج الدين تردد في الاستجابة لهذه الطلبات .

وخارج الحكومة اعدت المعركة الحقيقية ، فأخذ الاخوان المسلمون يراقبون الطرقات المؤدية الى الاسماعيليـة والسويس يفتشون المسافرين ويصادرون البطاقات الممنوحة من البريطانيين التي تخوّل حاملها الدخول الى منطقة القناة ، وبدأت كتائب الاخوان توقف الشاحنات المحملة بالخضار والفواكه المتوجهة الى المعسكرات البريطانية .

ومقابل ذلك منعت القوات البريطانية الشاحنات البترولية من نقل المحروقات من المصفاة الحكومية في السويس الى القاهرة ؛ ولكن مصفاة شل الاكثر اهمية ؛ استمرت في تزويد القاهرة بالمحروقات عن طريق الانابيب التي تربط السويس بالعاصمة : وكانت المراكب تقوم بعمليات نقل المحروقات بحراً عن طريق بور سعيد الى الاسكندريـة . ولو ان الجيش البريطاني منع وصول هذه المحروقات الى القاهرة لتوقفت عن العمل كل من الافران ومضخات الري والقطارات ، ولحصلت ازمة

فائقة الخطورة .

ولما لاحظ وزير الخارجية تهافت الشبيبة على الانضمام الى كتائب التحرير ، اعلن ان الحكومة ستشرف بنفسها على تنظيم هذه الكتائب ، وانه سيكون لها نظام مشابه لنظام الحرس الوطني البريطاني .

وفي الواقع ، في تشرين الثاني وكانون الاول سنة ١٩٥١ انضم الطلاب والعمال والمستخدمون الشباب تلقائياً ورضخوا للتدريب العسكري. وقاد محمد صالح حرب رئيس جمعية الشبان المسلمين وثلاثة من الألوية المتقاعدين الحركة ، وفتحت الحكومة اعتماداً بمئة الف جنيـه لتمويل هذه المنظمة .

في جامعة القاهرة زار المدير الجراح مورو معسكرات التدريب التي كان المتطوعون يتمرنون فيها على استعمال السلاح . وكتبت الصحف ان طلاب كلية العلوم قد اخترعوا قنبلة سريعة الانفجار وتمرنوا على كيفية استعمالها ، كما تعلم بعض الفدائيين على فن المصارعة اليابانية وتسلق الحيطان وزرع الالغام ونزعها :

وهكذا قبضت الحكومة على زمام الحركة النضالية التي برزت بين الشبيبة لتستخدمها في الوقت المناسب ؛ ولكنها منعت تنظيم فرق المتطوعين الذين راحوا يهاجمون القوات البريطانية في منطقة القناة .

لقد منعتها ، في الوقت نفسه أغمضت عينيها عن نشاط الفدائيين الذين يهاجمون الجنود البريطانيين ويمنعون عنهم المؤونة ، ويعاقبون من يتعامل مع الاعداء :

وكان ان احتجت صحف اليسار وطالبت بقطع العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع بريطانية والافراج عن المعتقلين السياسيين وتوزيع الاسلحة على المواطنين المصريين .

وجواباً على ذلك اخذت القوات البريطانية على عاتقها بقيادة اللواء « ارسكين » مراقبة منطقة القناة كلها فلم يكن من الخمسين الف عامل

مصري الذين يقيمون في المعسكرات البريطانية او الورش التابعة لها الا ان تركوا اعمالهم وتدفقوا على القاهرة . فوزعت الحكومة قسماً منهم على مختلف دوائرها ودفعت تعويضات شهريـة للباقين . واستعاض البريطانيـون عن هؤلاء العمال بعمال استقدموهم من جزر موريس ومن المستعمرات البريطانية في افريقية . وبالفعل كانت هذه العملية معقدة ، وباهظة التكاليف .

عندئذ بدأت تحصل اضطرابات متزايدة الخطورة في المنطقة المحتلة ، اذ نسف بعض الانصار الأنابيب التي تزود المعسكرات البريطانية القريبة من السويس بالمياه فأجاب اللواء « ارسكين » بنسف قرية قائمة بالقرب من المصافي لتسهيل مراقبة الاجهزة وفتحت سيارات مصفحة النار على موكب كان ماراً بالقرب من احد المعسكرات معتقدة بأن المتظاهرين يخترقون حرمة المنطقة العسكرية ، بينما كان في الواقـع موكب جنازة متوجهاً الى المقابر . وسقط من جراء ذلك خمسـة عشر قتيلا وتسعة وعشرون جريحاً . وكذلك مرت شاحنة مليئة بشرطة مصريين بالقرب من معسكر بريطاني مُحاذٍ لطريق السويس ، فأحدث محركها اصواتاً متقطعة . وظن مركز الحرس البريطاني انه يتعرض لهجوم فأطلق النار على الشاحنة .

وشيئاً فشيئاً ، خلقت الغارات الحقيقية للفدائيين المصريين التي ادت الى مصرع الحراس اثناء الليل ، والقنابل التي تنفجر في القـاطرات والشاحنات الناقلة مؤونة . كل ذلك خلق جواً من التوتر جعل الحياة لا تحتمل في كل منطقة القناة ؛ وانهارت الحياة الاقتصادية ، فأفلس التجار والمؤسسات التي كانت تعيش من تعاملها مع الانجليز بعد اعلان المقاطعة وتهدم الازدهار الذي كان قائماً على تعاون السكان الوطنيين مع القوات البريطانية . والحالة بالنسبة للجيش البريطاني كانت في حالة استنفار دائم ، وشعرت القيادة العليا مع الزمن بأن قاعدة عسكرية في بلد ناءٍ

لا قيمة استراتيجية لها . اذ ان قضايا التموين والنقل والامن كلها بالغة التعقيد وباهظة التكاليف الى درجة يصبح معها بقاء القاعدة حملاً لا يتناسب مع فائدتها الحقيقية .

ومن ناحية أخرى بدا أكثر فأكثر ان أهمية قناة السويس في وقت الحرب اصبحت مقيّدة وقنبلة ذرية واحدة صارت تكفي لسدها .

واذا كانت انجلترة تتمسك بقاعدتي فايد وأبو صوير ؛ فذلك ليس بسبب قناة السويس بل بسبب المجموعة الضخمة من المطارات والمعامل والمخازن التي أقيمت فيها ، وأكثرها تحت الارض . وكانت كميات هائلة من الذخائر وقطع التبديل ووسائل النقل مكدسة هناك في العنابر ، فالى اين يمكن نقل هذه المواد الحربية ، وكم من السنين يلزم علاوة على ذلك لتشييد قواعد مماثلة ؟؟

لقد بدأ الرأي العام في بريطانيا يتطور شيئاً فشيئاً . وفي مصر كان الوطنيون يعتقدون انهم اذا جعلوا الحياة لا تحتمل بالنسبة للبريطانيين في منطقة قناة السويس ، فانهم سيضطروهم في النهاية الى الخروج من مصر والجلاء عنها .

في هذا الوقت بالذات استدعى فاروق عبد الفتاح عمرو من لندن ليجعله مستشاره السياسي ، وعين حافظ عفيفي رئيساً لديوانه الملكي .

وكان لهذا التعيين المزدوج الذي لقي الترحيب الحار في الاوساط الاجنبية حيث كان تقدير الشخصيتين كبيراً أثره السيىء لدى الوطنيين المصريين ، لا سيا في الاوساط التي كانت تقود المعركة ضد المستعمر وتستعد لتوسيع نطاقها . فانطلق الشباب من المدارس والجامعات في مظاهرات صاخبة عنيفة واضطرت الحكومة الى ان تقفل المعاهد وتعلق الدروس حتى الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٥٢ .

وقد اعتبر الوطنيون والاخوان المسلمون والاشتراكيون ذلك التعيين من قبل الملك انفصالاً عن ركب النضال الوطني اذ قرّب منه اثنين من

أكبر أنصار التحالف مع بريطانية في الوقت الذي وقفت فيه البلاد صفاً واحداً تناضل ضد مثل هذا التحالف الذي نقضته :

وهكذا فقد الملك كل اتصال له بالرأي العام ، وانفصل معنوياً عن شعبه في وقت كان فيه حتى الجناح اليميني في حزب الوفد مسوقاً وراء الجناح اليساري ، واحزاب المعارضة مثل حزب مكرم عبيد والوطني الاشتراكي خاصة أحمد حسين كانت لا تقل عداء للانجليز عن الاخوان المسلمين .

وفي الحادي عشر من كانون الاول سنة ١٩٥١ لمناسبة عيد المولد النبوي الشريف اعلن المرشد العام للاخوان المسلمين القاضي السابق الهضيبي ان المنظمة التي يديرها لم تدخل بعد في المعركة ضد المستعمر البريطاني لأنها تصر اولاً على استعادة اموالها (كانت الحكومة قد صادرت ما يقرب من مليون جنيه للمنظمة) وتطلب اسلحة دون ان تكون ملزمة بأن تفصح عن اسماء من سيحملون هذه الاسلحة .

وبعد بضعة ايام من ذلك التاريخ اعلنت الحكومة السماح بحمل الاسلحة وصرح مدير التفتيش بوزارة الداخلية بما يلي :

« ان هذا القرار الحكيم لا يمكن ان تتخذه الا حكومة جريئة حائزة على ثقة الشعب ، ليقمْ كل مواطن بواجبه ، وليشتر سلاحاً نافعاً يتمرن على استعماله . لا فرق بين الجنسين . السيدات والاوانس عليهن ايضاً كالرجال ان يتمرن على استعمال الاسلحة لأن الانجليز في عدوانهم لن يميزوا بين ذكر وانثى . وليشتر الميسورون السلاح ويوزعوه على الفقراء أنها افضل هدية يمكن تقديمها على مذبح الله والامة . »

وكذلك اطلق علماء الازهر بدورهم النداء من اجل الجهاد المقدس ، وطالبوا بقطع كل العلاقات مع بريطانية :

ونشرت الصحف صور طلاب كلية العلوم في القاهرة وهم يصنعون القنابل ، ظهرت في احداها قاعة الكيمياء حيث يشرح الاستاذ تفاصيل

الصنع ويدير القطع وطريقة التركيب على الطلاب المتشوقين لمعرفة ذلك ، وفي صورة أخرى بدا فريق من طلاب المعهد الصناعي يتمرنون على استعمال رشاشات مصنوعة في المعهد . وفي صورة ثالثة ظهر طلاب الصيدلة وهم يفجرون قنبلتهم الاولى في ملعب الجامعة .

فما كان من « ارسكين » الا ان نشر في اول كانون الثاني سنة ١٩٥٢ التصريح التالي في الصحف الصادرة في منطقة القناة :

« لقد أعلنت صحف القاهرة ان فدائيين من الشبان يستعدون لترك القاهرة بموافقة الحكومة المصرية كما يظهر ، للاغارة على القوات التي أقودها في منطقة القناة ، فاذا كانت هذه التقارير صحيحة ، واذا حصلت غارات فسأضطر الى سحقها بأعنف الوسائل التي في حوزتي والتي لم تستعمل حتى الآن . وآمل من جميع الاشخاص المسؤولين في مصر ، وعلى الاخص من اولياء هؤلاء الشبان الذين ساء توجيههم ان يوقفوا هذه الخسارة الآثمة لشباب البلد ، الذي كان من الافضل له ان يستعد ليصبح نافعاً لمصر .

« ان مسؤولية ما قد يحدث لهؤلاء الشبان ستقع على عاتق اولئك الذين سمحوا لهم ان يتصرفوا بهذا الشكل . »

استناداً الى هذا التصريح يُفهم ان الحكومة الوفدية قد ساعدت على تشكيل الفدائيين الجامعيين ، وكانت تغض الطرف عن نشاط الكتائب الوطنية اليسارية و كتائب الاخوان المسلمين ، وتشجع عمليات حرب العصابات ضد القوات البريطانية ، ولكنها لم تجسر على شن عمل شامل : كانت تخاف اهراق الدماء الذي سينتج عن اصطدام المتطوعين بجيش مدرب مزود باسلحة حديثة :

فلا الملك ولا مصطفى النحاس ولا سراج الدين كانوا يريدون ان يدفعوا بالجيش الى المعركة خوفاً من فشل قد يعيد الاحتلال الى الاراضي المصرية كلها .

واذا كان الجيش قد أبقي في معزل عن هذا النزاع ، فان البوليس قد تلقى امراً بوجوب حماية المتطوعين ومساعدتهم في عملياتهم ضد الانجليز . وخاصة احتياطي « بلوك نظام » الذي اشترك في عدة اصطدامات . وقد أكدت القيادة البريطانية ان البلوك عوضاً عن ان يقتصر عمله على حماية الاهالي ، كان يساعد المتطوعين في غاراتهم على القوات البريطانية .

الضبّاط الأحرار يُساعدون الفِدائيين

والآن ، لا بد من ان نتساءل : ما هو الدور الذي لعبه الضباط الاحرار في حرب العصابات بين كانون الاول سنة ١٩٥١ وكانون الثاني سنة ١٩٥٢ ؟ انه من العسير جداً تحديده لأنه قد أحيط بالسرية التامة . وقد كتب الزعيم ثروت عكاشة ، الملحق العسكري الذي أصبح سفيراً في روما ثم وزيراً للارشاد القومي ، كتب في عام ١٩٥٣ في مجلة التحرير ما يلي : « كنا أشبه بخلية النحل ، نعدّ الفدائيين ، ونساعد الانصار ، ونوزع السلاح . »

وفي كتاب « ثورة على ضفاف النيل » يروي انور السادات انه في الخامس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٥١ ، كان في مطعم الجنود في رفح ، المركز العسكري على الحدود شمالي سيناء ، مع عبد الحكيم عامر وصلاح سالم ، فاذا بجرس الهاتف يرن . لقد كان ذلك الشخص المتكلم جمال عبد الناصر ، الذي أعلن من القاهرة : « ان تايتل يصل اليوم استعدوا لاستقباله . » ولم يكن تايتل اسم رفيق يجب استقباله ، بل لغماً قوياً أرسل هدية الميلاد لأول وحدة بريطانية اجتازت قناة السويس .

وفي رواية نشرت في الرابع والعشرين من تموز سنة ١٩٥٣ في عدد

خاص من « البورص أجبسيان » قال قائد الجناح عبد اللطيف البغدادي نائب رئيس الجمهورية : « كنا نقود معركة الفدائيين ضد الانجليز في منطقة القناة ، ولكن سراً . لقد صنعت آنذاك لغماً بالغ القوة أردت أن أنقله الى القناة . ولم يكن الامر ممكناً إلا في طائرة ، لأن الخطوط الحديدية لا يمكنها ان تؤمن نقل آلة متفجرة من جهة ، ولأن العمل كان يجب أن يتمّ بسرعة من جهة ثانية .

« فككت اللغم ، ووضعت كل قطعة في صندوق كبير . وكان من الضروري ان يتم النقـل على متن طائرتين ، تُفرغان حمولتهما في العريش . ومن هناك يجري نقل اللغم الى الضفة الشرقية للقنـاة . »

وقـد حصل عبد اللطيف البغدادي ، كما كتب انور السادات « على معاونة صديقين طيارين، ووصلت «الغواصة المخيفة» الى رفح مفككة في أربعة صناديق ثقيلة ، وضعت فوراً في شاحنة ونقلت الى القنطرة . »

وأضاف الضابط : « لأسباب لا أريد ان أتوقف عندها ؛ لم يُفجّر اللغم . وما زال مدفوناً في موضع أمين في مكان ما من مصر . لأن الضباط الاحرار قرروا ان يبقوه في مكانه طالما ان آخر جندي بريطاني لم يخرج من منطقة القناة بعد . »

نستطيع ان نفهم من هذا التدبير ان الضباط الاحرار ، كالحكومة المصرية ، قد ترددوا في الانغماس في المعركة ضد بريطانية ، ولم يكن ذلك خوفاً ، بـل تعقـلاً . ولو تدخلوا فعلاً ونسفوا في قناة السويس بارجة حربية بريطانية مثلاً ، لترك هذا العمل صدىً عالمياً بعيد المدى . ولربما أدى ذلك العمل في انجلترة الى تقوية التيار الاستعماري واضعاف مركز الاوساط التحررية التي كانت تفتش عن مجال للتفاهم مع مصر .

وفي تموز سنة ١٩٥٣ ، أعطى المشير عبد الحكيم عامر هو الآخر ، تفصيلات عن كيفية استقبال الالغام والمتفجرات في مطار العريش ،

هذه الالغام والمتفجرات التي كان الضباط الاحرار ينقلونها الى كتائب منطقة السويس فقال : « والطريقة التي تستعمل بها هذه الذخائر ، يجب ان تبقى أيضاً سرية ، لأنها قد تلزمنا بعد وقت قريب » . في عام ١٩٥٢ لم يكن الاتفاق قد وقع بعد ، بشأن جلاء القوات البريطانية عن قواعدها في مصر « وحكومة الثورة كانت تفكر في اللجوء من جديد الى حرب العصابات ، اذا لم تؤد المفاوضات الى حل يرضي الكرامة الوطنية . »

كانت سياسة الحكومة الوفدية خلال الفصل الاخير من سنة ١٩٥١ اذن متوافقة مع نهج الضباط الاحرار فيما يختص بالعلاقات مع بريطانية . وقد واجهت اللجنة التنفيذية للحركة السرية آنذاك امكانية تحقيق برنامجها الثوري بالتعاون مع حزب « الوفـد المتجدد » وكلفت الزعيم احمد انور الذي سيصبح بعد الثورة رئيس البوليس الحربي ان يتصل بفؤاد سراج الدين .

وقد استقبله وزير الداخلية في كانون الاول سنة ١٩٥١ في قصره في « جاردن سيتي » المقابل للدارة الفخمة التي كان يعيش فيها مصطفى النحاس . وتحدث الضابط بدون اية مواربة فأفهم محدثه بأن الجيش سيقف الى جانب الحكومة فيما لو قررت ان « تضع حداً لتصرفات الملك الطائشة ، أو تنزله عن العرش بلا مقدمات أو عراقيل » . آنذاك لم يبد على الوزير كبير تأثر لهذا الاقتراح ، على العكس بدا مشغولاً ، على الاخص ، بالصلاحية التي ، وفقاً للدستور ، خولت الملك إقالة الحكومة ، حتى لو كانت متمتعة بتأييد الاكثرية في البرلمان . وقد طمأن مبعوث الضباط الاحرار فؤاد سراج الدين ان الجيش في مثل هذه الحالة سيتحرك وما على الحكومة إلا ان ترفض الذهاب والاستقالة ، ويبقى الوفد في الحكم بمساندة الجيش ويحقق البرنامج الوطني والاجتماعي الذي وضعه الضباط الاحرار . فطلب سراج الدين ايضاحات وتفصيلات عن أهداف

الحركة السرية وعن عدد المنضمين اليها . ثم فجأة سأل : « من في رأيكم ، يصلح أكثر ليكون قائداً للجيش ؟ » فقدم المبعوث على سبيل الصدفة ، اسم اللواء سيف الدين ، الذي لم يكن قد أضرّ أحداً . واعتقد الوزير عندئذ بأنه اكتشف اسم رئيس الضباط الاحرار . فأجاب القطب الوفدي : « انه انتقاء ممتاز » . حتى ان الزعيم انور اعتقد ان سراج الدين سيقابل بالارتياح فكرة تضافر الوفد والجيش في المعركة ضد انجلترة وضد ما يُعيق تقدم البلد . والواقع كما كتب انور السادات ان زعيم الوفد كان يلعب لعبة ذات وجهين . فهو لم يُخبر سوى مصطفى النحاس بالعرض الذي قدمته لجنة الضباط الاحرار . وهكذا بقي أعضاء الحكومة الآخرون يجهلون عرض التعاون الذي قُدّم الى حزبهم . ولم يتجاسر القطبان الوفديان على الانسياق صراحة في عملية ثورية . ان تجانس المناهج السياسية لا يؤدي وحده الى توحيد العمل السياسي .

يمكننا ان نتساءل لماذا لم يجر الضباط الاحرار مثلاً اتصالات مع الجناح اليساري من حزب الوفد ، مع وزير الخارجية محمد صلاح الدين مثلاً . ان أغلب الظن انهم اعتقدوا ان التحالف مع الحزب الوطني الكبير لم يكن مرغوباً فيه إلا اذا كان يتيح السيطرة على الجهاز الاداري بمجموعه . ومن ثم ، في كانون الثاني سنة ١٩٥١ ، كان صلاح الدين يمثل مصر في الامم المتحدة .

ولما لم يتلق الضباط الاحرار جواباً من حزب الوفد ، قرروا ان يعملوا وحدهم . وموقفهم المتصلب من الاحزاب المصرية ، بعد ثورة الثالث والعشرين من تموز سنة ١٩٥٢ ، نجد تفسيره في فشل العروض التي كان الضباط الاحرار قد تقدموا بها مراراً الى مختلف الاحزاب .

وأما الملك فقد كانوا يحذرونه ويوقنون من انه مستعد لخيانة بلاده كما خان الخديوي توفيق مصر وعرابي في ثورة سنة ١٨٨٢ . وكذلك لم يكن الضباط الاحرار يثقون بأي من الساسة المتنفذين المتمولين الرجعيين

لتسليمه قيادة المعركة الوطنية . ألم يضعوا على رأس المنظمة الحكومية للفدائيين اللواء احمد الموّاوي قائد الجيش المصري سابقاً في حرب فلسطين، الذي برهن ان عجزه لا يقل عن غروره . وهذا هو فاروق ، تحت ستار « اعادة تنظيم الجيش » يخلع اللواء النزيه محمد نجيب من قيادة حرس الحدود ليعين مكانه في هذا المنصب اللواء سري عامر ، الذي كان له اليد الطولى في فضيحة الذخائر الفاسدة ، المشتراة خلال حرب فلسطين ، مما ادى الى استياء جهاز الضباط بكامله بسبب تدخل الملك المستمر في شؤون الجيش . ولا يمكن ان ننسى ان انعدام الجد ، والاعتباط والفساد الذي كان معششاً في الدوائر العليا من قيادة الجيش ، كل ذلك كان قد اودى بعدد كبير من الجنود الى الفشل الذريع والعار الشنيع . والآن بينما كان البلد يخوض صراعاً ضد الامبراطورية البريطانية ، وبينما كانت تصطدم كتائب الطلاب والاخوان المسلمين ، وفدائيي القمصان الخضر الاشتراكيين ، وشرطة « باوك النظام » بقوات للواء ارسكين ، كانت عيونُ البلاد بأسرها مسمرة على الجيش ، الذي راحت صحف اليسار تطلب بإلحاح دخوله في المعركة النضالية : الا ان الجيش لا يثق في قادته ولا يعتقد بوطنية قائده الاعلى الملك فاروق .

في السادس من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ ، كان موعد انتخاب اللجنة التنفيذية لنادي الضباط . وكان معلوماً ان الملك يعطف ويؤيد ترشيح اللواء سري للرئاسة . فقرر الضباط الاحرار ان يقدموا لائحتهم وعلى رأسها اسم اللواء محمد نجيب ، وقائد الجناح حسن ابراهيم والزعيم زكريا محيي الدين . اجتمعت الهيئة العمومية في النادي وبدأت اعمالها بالوقوف خمس دقائق صمت حداداً على النقيب عبد القادر طه الذي قيل انه اغتيل على يد البوليس السياسي العامل لحساب القصر. ثم انتخب اللواء محمد نجيب رئيساً بأكثرية ٢٧٦ صوتاً مقابل ٥٨ صوتاً نالها منافسوه الثلاثة مجتمعين . كما فاز مرشحو الادارة الذين قدمهم الضباط الاحرار

بأكثرية ساحقة . وجمال عبد الناصر الذي اعد الانتخابات ونظم الحملة الدعائية ، بقي في الظل وراء الستار . وجواباً على هذه الصفعة التي وُجهت الى الملك غضب فاروق وأعلن ان الانتخابات ستلغى . وأصر على تعديل قانون النادي . ومع ذلك بقيت النتائج المعنوية هي هي : لقد اثبت الضباط الاحرار ان الجيش معهم ، وان الملك وزبانيته لا اعتبار لهم . فقرروا تقديم موعد الثورة المحدد سابقاً عام ١٩٥٧ .

مذبحة الإسماعيلية وحريق القاهرة

ازدادت الحالة خطورة في منطقة القناة في كانون الثاني سنة ١٩٥٢ اذ تسلل متطوعون في الليل الى معسكر التل الكبير ، وهو مستودع كبير للذخائر والعتاد الحربي ، يقوم بين الزقازيق والاسماعيلية ، فتحصنوا داخل الدبابات وراحوا يصلون الحراس البريطانيين ناراً حامية وانتهى بهم الامر الى الاعتقال والسجن ولكن بعد ان قتلوا عشرة جنود بريطانيين .

ان التل الكبير ، مكان تاريخي ، وبالقرب منه عام ١٨٨٢ ، قهرت قوات الاحتلال البريطانية جيش عرابي الوطني .

وفي التاسع عشر من كانون الثاني ، في وضح النهار هذه المرة ، هاجم الفدائيون المصريون من جديد حامية التل الكبير . فأجاب اللواء ارسكين على ذلك بأن سجن القوة المحلية من « بلوك النظام » متهماً اياها بتسهيل اعمال الفدائيين عوضاً عن الحد من نشاطهم .

على اثر ذلك اعلن سراج الدين انه اذا ما حاول البريطانيون مرة ثانية تجريد قوات اخرى من البوليس المصري ، فان هؤلاء سيقاومون بالسلاح .

وفي الاسماعيلية ، المدينة التي تقع وسط منطقة القناة ، كان مئتا

« بلوك نظام » يقيمون في ثكنتين تخصان الحكومة . وكانت هذه القوة من البوليس بقيادة النقيب ابراهيم رفعت ، الذي كان قد عاد مؤخراً من انجلترة حيث قام بتمرين لدراسة أنظمة البوليس الانجليزي . وككل المصريين الذين اقاموا في لندن ، كان للضابط علاقات طيبة بزملائه البريطانيين .

في الخامس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ عند الفجر ، طوق اللواء ارسكين ثكنتي « بلوك النظام » بالدبابات والسيارات المصفحة . واجتاح المكان اكثر من الف وخمسمائة جندي . وعند الساعة السابعة صباحاً ، أنذر النقيب رفعت بتسليم اسلحة رجاله . فاتصل النقيب هاتفياً بالقاهرة . فأمره فؤاد سراج الدين ، وزير الداخلية ، بالرفض والمقاومة مهما كلف الامر . وذلك لان التسليم كان من شأنه ان يفقد الحكومة ماء وجهها ويؤدي عملياً الى انهاء « حرب القناة » .

أطلقت القوات البريطانيــة النار على الثكنتين . فردّ عليهم رجال البلوك بالذخائر القليلة التي كانت في حوزتهم وعندما رفع النقيب رفعت العلم الابيض ، وطلب باللغة الانجليزية وقف اطلاق النار لنقل الجرحى رفض الضابط البريطاني قائد العملية الاستجابة الى طلبه وكان ان سقط ستة واربعون شهيداً من رجال البلوك واثنان وسبعون جرحوا . ولم تستسلم القوة المصرية الا بعد ان نفدت منها الذخيرة .

وما كاد نبأ هذه المذبحة يشيع حتى هبّت القاهرة عن بكرة ابيها ثائرة لكرامتها . ومجلس الوزراء الذي عقد جلسة مستعجلة في الليل ، قرر ان يقطع العلاقات مع بريطانية ؛ ويرفع شكوى الى مجلس الامن التابع للامم المتحدة ، ويعتقل كرهائن ثمانين شخصاً من الجالية البريطانية في القاهرة .

وأخذت الشبيبة الوفديـــة تنظم مظاهرات صاخبـــة في الغد للتعبير عن نقمة المصريين على البريطانيين .

وكذلك نقابات العمال قررت مقاطعة الشركات البريطانية . ونفذت المقاطعة في مساء اليوم نفسه على مسافري خطوط الطيران البريطانية الذين وصلوا الى مطار القاهرة .

وطالب الاخوان المسلمون بإعلان الجهاد المقدس ، وأعلنوا ان الحكومة لم تعرف كيف تسلح القوى لمحاربة الانجليز ورغبوا في اشتراك الجيش في المعركة الوطنية .

وفي الغد انقلبت المظاهرات الى اضطرابات وشب أكثر من اربعمائة حريق هنا وهناك في القاهرة التي اصبحت في ايدي الغوغاء .

وفي مقالة أرسلتها الى « جورنال دي جنيف » بعد يومين من ذلك التاريخ ، وصفت كما يلي مأساة السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ .

« بدأت الاضطرابات في نهاية الصباح ، في الوقت الذي كان فيه القسم الأكبر من رجال بوليس القاهرة محتشداً في باحة الجامعة ، تفصله الجزيرة وفرعا النيل عن وسط المدينة . وكان رجال البوليس مضربين ، احتجاجاً على الاحداث الاخيرة التي وقعت في الاسماعيلية ، حيث كان اللواء ارسكين قد طوق المركز الحكومي في المدينة ، وثكنتي البوليس ، والمركز الصحي ، وانذر قوة البوليس بتسليم اسلحتها . وبناء على امر وزير الداخلية السيد فؤاد سراج الدين قاوم البوليس حتى نفدت ذخائرهم وكانت حصيلة المذبحة ستة واربعين قتيلا واكثر من خمسين جريحاً ؛ ان احداث الاسماعيلية ؛ حيث تعرض رجال البوليس الذين كانوا مزودين ببنادق غير صالحة ونزر يسير من الذخيرة لهجوم ساحق من القوات البريطانية المزودة بالرشاشات ومدافع الهاون والدبابات ، قد اثارت زملاءهم في القاهرة فتوجهوا الى الجامعة لينظموا مع الطلاب مظاهرات معادية لبريطانية . وسارت طائفة من المتظاهرين ، تحمل رجال البوليس على اكتافها وتطالب بالاسلحة ، واتجه قسم منها في الصباح الى مقر

رئاسة الوزارة وحتى الى جوار قصر عابدين .

« وقد انتهزت المنظمة الثورية التي يقودها احمد حسين الفرصة واستفادت من خلو القاهرة من البوليس فبدأت تنفذ مخططاً لنهب الشركات والمباني البريطانية الموجودة في المدينة ، وكذلك المؤسسات ذات الصبغة الرأسمالية بصورة خاصة . وفي صحافة اليسار كما في صحيفة الاخوان المسلمين ، كانت قد ارتفعت احتجاجات حادة ، في الحقبة الاخيرة ضد الميسورين من سكان القاهرة الذين ما زالوا يرتادون اماكن اللهو والسينمات والحانات ، ويشترون السيارات والكماليات الغالية في وقت كان المواطنون العزل يضحون بحياتهم ويهاجمون البريطانيين في منطقة قناة السويس : وكانت صحيفة « الاشتراكية » قد نشرت لوائح بأسماء المؤسسات البريطانية ، والبيوتات التجارية التي تتعامل مع قوات الاحتلال البريطانية . وكانت قائمة المباني التي يجب نهبها او حرقها ، تضم ايضاً فنادق مثل « شبرد » و « وندسور » التي تخص بلجيكيين او سويسريين ، ومحلات الحلويات الفخمة والشعبية ، وعلى الاخص محلات « جروبي » المعروفة جيداً بأنها سويسرية . فثارت الجماهير ونهبت واحرقت محلات كبرى مثل « شيكوريل » و « شملا » التي يؤمها الزبائن من الطبقات الميسورة والمتوسطة . وكان جنون التخريب الذي قاد المتظاهرين الى العمل غريزياً تقريباً حتى انهم صاروا يهاجمون كل مؤسسة يمرون من امامها ، خاصة اذا كانت اجنبية .

« انه فعلاً منظر مؤلم ان يرى المرء اجمل شوارع القاهرة آنذاك في تلك الحالة . فهنا وهناك اثاث وملفات وزجاجات مكسرة تكدست امام محلات فُكت ابوابها الحديدية او رفعت بواسطة الرافعات الحديدية : وأمام وكالات شركات « اوستن » و « كريزلر » و « ستيدوبيكر » تكدست في الطريق مجموعة من السيارات تزيد على الخمسين أضرمت فيها النيران :

« وعلى الرغم من ان المتظاهرين كانوا يفضلون مهاجمة المؤسسات التي تتعارض مع مبادىء الاخوان المسلمين المتزمتة فانه يبدو ان هذه المنظمة لم تشترك فعلياً في الحركة الثورية التي حصلت نهار السبت. وقيل ان الحزب الاشتراكي الشيوعي فكر ان يستغل الاضطرابات لقلب الحكومة وتسلم قيادة البلاد ».

« وقد قام باشعال النيران صبية يحملون قطعاً من الخشب بللوها بالبنزين وكانوا يتلذذون على ما يظهر برؤية النار تلتهم المخازن والمؤسسات الفخمة التي لا تسمح لهم امكاناتهم بولوجها . ورجال البوليس الذين كانوا موجودين ، لم يحركوا ساكناً بل تركوهم يفعلون ما يريدون بلامبالاة مذهلة اذ كانوا ناقمين اشد النقمة بسبب التضحيات التي قدمها رجال البوليس وكتائب الفدائيين في منطقة القناة .. وعلاوة على ذلك فان المتطوعين ، الذين اضطروا الى ترك منطقة الاسماعيلية ـ التل الكبير ، على اثر الاجراءات التي اتخذتها القوات البريطانية مؤخراً ، قد عادوا الى القاهرة فوجدوا فيها الوف العمال الذين كانوا يعملون ، فيما مضى في المعسكرات البريطانية في منطقة القناة ، والذين يقبضون اليوم ، من الحكومة تعويضاً زهيداً . وهؤلاء العمال الذين يبلغون سبعين الف عامل كانوا فيما مضى يقبضون اجوراً مرتفعة من عملهم في المصالح التابعة للمعسكرات البريطانية ، وهم يشكلون مع عائلاتهم مجموعة ضخمة من السكان وقد اقام قسم منهم كيفما كان في الريف المصري المكتظ بأهاليه بينما لجأ القسم الآخر الى القاهرة حيث تقاسم المساكن الحقيرة على العموم ، مع الاقارب والاصدقاء . ويمكننا ان نتصور كم هو سهل على المحرضين اليساريين ، سوق هذه الجماهير الجاهلة الى القيام بعمل ثوري ضد الانجليز اولا ، وضد الاجانب « والاغنياء » بصورة عامة .

« والامر الذي لا يمكن ادراكه ان وزير الداخلية فؤاد سراج الدين كان يعرف منذ الصباح ان البوليس ليس معلناً الاضراب فحسب ، بل

متفقاً مع المتظاهرين ومع ذلك لم يحاول الوزير ان يحصل فوراً على امر يقضي بأن يتولى الجيش اعادة الامن الى نصابه وتهدئة الجماهير التي ادّعت بأنها تتظاهر تعبيراً عن وطنيتهم بالحرق والنهب .

« اجل ان المتظاهرين قد اشعلوا النار في الوقت نفسه تقريباً في حانة مصرية تقع في ساحة الاوبرا ، وفي بنك « بركليس » وسينما ريفولي الضخمة ، وفي اوتيل شبرد . وصحيح ان رجال الاطفاء قد حاولوا جهدهم ، في رد المتظاهرين الذين قطعوا لهم انابيبهم وهددوهم بعد ان نهب بعض الشبان محلات الاسلحة وراحوا يلعبون لعبة « قطّاع الطرق » . ولكن انعدام اية مقاومة من البوليس ، وتدخل الجيش المتأخر في عصر ذلك اليوم ، هو الذي اتاح القيام بعمل تخريبي مفجع .

« من الناحية الاقتصادية كانت الخسائر فادحة جداً ، وقد قدرت بين اربعين وسبعين مليون جنيه . وفور وقوع الحادث أعلم الممثلون الدبلوماسيون لبريطانية والبلدان الاخرى بما فيها سويسرا الحكومة المصرية بأنهم يعتبرونها مسؤولة ، لانها كانت قد تعهدت بحماية المصالح الاجنبية .

« ومن الناحية المعنوية والسياسية كان الاثر اخطر واعظم اذ تزعزع مركز مصر الدولي ، في وقت كانت فيه ، في امس الحاجة الى تقدير الشعوب المحبة للحرية والنظام . ولا يختلف اثنان في ان حرائق السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ قد أضعفت مركز مصر . وقد الصقت الشائعات الحادث بأحمد حسين وجماعته الذين كانوا خلال الحرب العالمية الثانية قد تلقوا امدادات من المانية . وقد قيل انهم تلقوا هذه المرة ولكن ... من بريطانية .

وفي المساء عقب الفاجعة ، اعلن منع التجول وعين النحاس حاكماً عسكرياً . وفي الغد شكلت حكومة علي ماهر ، بمساعدة فريق من الشخصيات المستقلة وتسلم رئيس الحكومة الجديد الذي سبق له ووجه السياسة المصرية في بدء الحرب العالمية ، زمام الامور في انتظار تشكيل

حكومة تضم مختلف الاحزاب . وملأ الجيش المصري شوارع القاهرة الرئيسية كلها . وأخذت دباباته ومصفحاته تتجول وتمنع كل تجمع . فخنت حرارة التخريب وفتحت الجماهير عيونها على فداحة ما قامت به ؟ وينتظر ان تتيح الايام القليلة القادمة تحديد المسؤوليات ، والسياسة التي ستعيد الى مصر رشدها بعد هذه الهزة العنيفة لتسترد قواها من أجل العمل على التطوير الاجتماعي وتحقيق الاماني القومية . »

كنت في القاهرة في اليوم السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ ، ولكنني لم أكن شاهد عيان للأحداث التي توالت اثناء النهار ، لأنني كنت منهمكاً في نقل أثاث بيتي من شقتي في المدينة الى الدارة التي كنت قد شيدتها في الضاحية قرب الاهرام .

في الصباح ، بينما كنت أملأ الصناديق وأراقب نقلها الى الشاحنة سمعت الناس يتحدثون عن المظاهرات . وقبيل الظهر جاءني ان سينما ريفولي التي تخص الشركة البريطانية « رانك » قد أحرقت . ولكني كنت مشغولاً جداً لا أهتم بما كان يحصل في المدينة . وقد بدا لي طبيعياً مع ذلك ان تؤدي أحداث الامس في الاسماعيلية الى قيام مظاهرات صاخبة في القاهرة .

وعندما خرجت من المدينة في السيارة ، لم أعر كبير اهتمام لجماعات المضربين الثائرين الذين كانوا يتظاهرون ضد بريطانية ويهددون المؤسسات البريطانية . وبعد الظهر بينما كنت مهتماً بترتيب منزلي الجديد ، جاءني صديق يعلمني بأن « القاهرة تحترق » وبأن الجماهير تهاجم الاجانب ، وبأنه من الخطر التنقل في السيارة . لذلك لم أذهب الى المدينة إلا في اليوم التالي صباح الاحد لأشاهد مشدوهاً التلف الذي سببته المظاهرات .

وفي الرسالة التي كتبتها آنذاك لجورنال دي جنيف لم أذكر سوى المظاهرات التي حدثت أمام مقر رئاسة الحكومة ، دون ان آخذ بعين الاعتبار ما كانت قد آلت اليه . وكنت أجهل انه حوالى الساعة الخامسة

بعد الظهر توجهت طائفة من المتظاهرين نحو مبنى السفارة السوفياتية « لتقدم الى ممثل الاتحاد السوفياتي مطالب الشعب المصري » فقوبلت عند جسر الملك فؤاد بسيل من رشاشات مفرزة من البوليس .

وكنت أجهل ايضاً انه بينما كانت القاهرة تحترق ، كان فاروق قد حشد في قصر عابدين ستمائة ضابط من ضباط الجيش والبوليس وأقام لهم مأدبة فخمة وحفلة صاخبة لمناسبة ولادة ولي العهد . ولا ريب ان هـذا الاحتفال في غير موضعه غداة مذبحة « بلوك نظـام » في الاسماعيلية . وقد جمّد حتى ساعة متأخرة بعد ظهر ذلك اليوم رجالاً كان عليهم أن يتولوا قيادة قوات الامن .

وفي كتاب « مصر في طريق التطور » أفسح الكاتبان جان وسيمون لاكوتور مجالاً كافياً لوصف مفصل لما حدث في اليوم السادس والعشرين من كانون الثاني الرهيب ؛ ذلك الانفجار الجماهيري الذي آلت اليه الازمة السياسية المستعصية الحادة بين مصر وبريطانية على اثر الحرب التي لجأ اليها الفدائيون المصريون في منطقة قناة السويس .

يقسّم الكاتبان « الفجر الاسود » الى أربع مراحل : في المرحلة الاولى من الفجر حتى الساعة العاشرة ؛ توجه « البلوك نظام » المضربون الى مبنى الجامعة ، وفي الجيزة انضم رجال البوليس الى الطلاب الذين ألفت شعبهم الثلاث : « الشبيبة الوفدية » ، و « شبيبة محمـد » الميالة الى الاخوان المسلمين ، و « القمصان الخضر » الاشتراكيون — الشيوعيون جبهة وطنية موحدة . وسار الجميع من طلاب وشرطة في موكب موحد الى مبنى رئاسة الوزارة ، مطالبين بالاسلحة ليذهبوا ويقاتلوا في منطقة القناة منددين بحيدر باشا ، المدير السابق للسجون ، الذي جعله فاروق قائداً عاماً للجيش . كانت الحركة في البداية وطنية مئة بالمئة . وهي بالتضامن الوثيق بين الطلاب والبوليس ، تُذكّر ، ولكن بصورة أعمق ، بمظاهرات سنة ١٩٣٥ التي كان جمال عبد الناصر

قد اشترك فيها مع عبد العزيز الشوربجي ضد الانجليز .

وفي المرحلة الثانية التي اقتصرت ، حسب رأي الكاتبين ، على التظاهر أمام مقر رئاسة الحكومة ، طلب المتظاهرون من زعيم الامة مصطفى النحاس أن يطلّ عليهم ، فامتنع . وأطلّ عبد الفتاح حسن وزير الشؤون الاجتماعية ، والذراع الايمن لفؤاد سراج الدين ، على الجماهير الصاخبة . انه هو الذي نظّم اضراب عدد يقرب من اربعين الف عامل مصري كانوا يعملون لحساب الانجليز في منطقة القناة . فقدم له المتظاهرون عريضة تحوي « المطالب الشعبية التي تتلخص في مقاطعة الانجليز مقاطعة تامة ، وارسال القوات المسلحة الى منطقة القناة ، وابرام معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفياتي » وقد تحدث الوزير طويلاً وقاطعه المتظاهرون مراراً ، ودامت المسرحية ثلاث ساعات تقريباً . « ترى هل كان ذلك نذير ثورة حمراء ؟ » . وما كادت المرحلة الثانية من النهار تنتهي حوالى الظهر ، حتى كانت المشاهد التي تميز المرحلة الثالثة قد بدأت تدور في وسط القاهرة .

في ساحة الاوبرا ، وجه جماعة من « القمصان الخضر » الاشتراكيين — الشيوعيين ، ومن الاخوان المسلمين ، كلاماً لاذعاً جارحاً الى ضابط بوليس كان يحتسي كأساً من الويسكي على شرفة ملهى ، بصحبة احدى راقصات الملهى وقالوا له : « ألا تخجل ايها البوليس ان تحتسي الويسكي هكذا بينما يقتل اخوانك في الاسماعيلية ؟ » وبما ان الضابط رد الشتيمة وحاول ان يدافع عن نفسه ، لذلك اندفعت الجماهير الغاضبة الى الملهى تعيث فيه تخريباً وتكسيراً ، ثم صبت عليه البنزين وأشعلت النار فيه .

ثم جاء دور السينما البريطانية الكبرى « ريفولي » ثم سينما « مترو » وعلى امتار منها « تـرف كلوب » ، فأشعلت النيران فيها جميعها . وفي « الترف كلوب » كان قـد اجتمع اعضاء الجالية البريطانية

يتشاورون بشأن الاجراءات التي كانت الحكومة قد هددت باتخاذها ضدهم بالامس . ومع انه في جميع الحرائق الاخرى كانت الجماهير تقصر غاراتها على البضائع والمنشآت المادية ، مبقية على الاشخاص ، فانها هنا وفي « بركليس بنك » بدت دموية كاسرة وكانت تدفع الى اللهيب كل انجليزي يحاول الهرب فاحترق هكـذا تسعة مواطنين بريطانيين احياء من بينهم الملحق التجاري الكندي .

وخلال المرحلة الثالثة من النهار التي دامت من الظهر حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ، راحت جماعة مخرّبة تضرم النيران في دور السينما والبارات والفنادق والمخازن البريطانية خاصة والاجنبية عامة بما فيهـا اليهودية . ويقول لاكتور ان بضعة من الرجال يحملون زجاجات البنزين والقنابل المحرقة على الأرجل او في سيارة « جيب » كانوا يطوفون من دور السينما الى المقاهي ومن المخازن الى الملاهي و « برنامج عملهم » في ايديهم كانوا يدخلون قضيباً حديدياً تحت ابواب المخازن الحديدية او يقصونها بلهيب الهيدروجين ، ويقذفون الى الداخل بزجاجات البنزين والقنابل المحرقة ، ثم ينتقلون الى مكان آخر يضرمون النار فيه ...

وبينما كانت هذه الاعمال تجري كان البوليس واقفاً يتفرج . وقد اجاب ضابط من البوليس فيما اذا كان التدخـل ممكناً : « اتركهم يلهون بعض الوقت .. »

وقد امتدت المرحلة الرابعة من الساعة الرابعـة او الخامسة بعد الظهر حتى منتصف الايل وفي هذه المرحلة اندفعت الجماهير التي تأثرت برائحة الحرائق او دفعت من المحرضين واخذت تنهب وتهاجم المخازن والاماكن اليهودية منها بصورة خاصة . في هذا الوقت ايضاً تألفت المظاهرة التي حاولت الوصول الى السفارة السوفياتية . ومن نهاية هذه المرحلـة الاخيرة فقط نزل الجيش الى الشارع وبـدأ عمله لاعادة

النظام الى المدينة :

قد يكون للمرحلتين الاولى والثانية من النهار تفسيرهما ومبرراتهما المعقولة . اما المرحلة الثالثة وهي الافدح ، التي لم تكن المرحلة الرابعة سوى تكملة لها فليس لها تفسير . ترى من هو المسؤول الحقيقي عن هذه المأساة الكبري التي كانت لها القاهرة مسرحاً ؟ !

المؤامرة والحركة الوطنية

يبدو ان مخططاً للعمل الثوري ، كان قد اعد وحضر خلال الأشهر الماضية . وفي السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ قبيل الظهر بدأ تنفيذه في الوقت الذي ارتدت فيه المظاهرات طابع العنف ضد الملك والبريطانيين . لقد سبق « للقمصان الخضر » والتشكيلات الارهابية في الاخوان المسلمين ان اجرت تحقيقات ، خلال اشهر طويلة ، ووضعت لائحة باسماء المؤسسات والمحلات البريطانية واليهودية المخالفة لمبادىء الاسلام التي تصدم بفخامتها تزمت المتعصبين الدينيين وصرامة الشيوعيين. والدلائل كانت تشير الى ان هناك تواطؤاً بين دعاة موسكو وبين انصار الدولة الدينية ذات الصفة الوهابية . وكان الشيوعيون والاخوان المسلمون يحملون في ايديهم لائحة بأسماء المحلات غير المرغوب فيهـا وكان لا يفوتهم ان يفرضوا عليها ضرائب او مساعدات « اختيارية » او عقود دعاوة او اشتراكات في منشورات مختلفة . هذا في انتظار تصفيتها يوم وصولهم الى الحكم :

ولعل الذي اشعل النار في هذه المحلات العدوة او المفسدة ، كان يحس بأنه يقوم بعمل مُرضٍ لشعوره الديني . أضف الى ذلك ان المظاهرة الهائلة بطابعها التعصبي الوطني ، التي حدثت قد انقصت نفوذ الحزب

الحاكم وأتاحت للملك والانجليز التخلص من وزارة كانوا معها في نزاع مكشوف ، نزاع يهدّد بالخطر الشديد بعد الاتحاد الذي تم اخيراً بين « الشبيبة الوفدية » و « شبيبة محمد » و « القمصان الخضر » .

في الرابع والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٥١ ، كنت قد كتبت في جورنال دي جنيف : « ماذا سيفعل البريطانيون لو ان بضعة آلاف من الطلاب والاخوان المسلمين توجهوا نحو الاسماعيلية او السويس ؟ هل سيكون لديهم الشجاعة لمواجهتهم بالرشاشات ؟ . »

ان هذه المظاهرة الجماعية ، كان يجب تلافيها في نظر الانجليز وكان يجب حصر الانطلاقة الوطنية بتشويه سمعتها ، واظهارها في صورة مقيتة قاتمة .

وبين القصر والاشتراكيين ــ الشيوعيين الذين يتزعمهم احمد حسين من جهة ، وبين البوليس السياسي التابع للملك والاخوان المسلمين من جهة ثانية ، كانت لا تزال تقوم علاقات على الرغم من الاعتقالات والاحكام الصادرة ضد الفريقين . والخلايا الارهابية التابعة للمنظمتين كانت تستخدم اداة معروفة جيداً من المخبرين البوليسيين . اي انه بين عصابة مجرمي القاهرة وبين بعض رجال البوليس ، كان يقوم تعاون وثيق ، كما قام في السابق في روسية القيصرية بين « الاوكرانا » وعصابة لصوص سان بطرسبرج. واذا كان الجهاز الثوري ، المعد « للمساء الكبير » قد دفع الى العمل في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ فلا يمكننا الآن نعتقد بان الاصبع التي حركت ودفعت يجب ان تكون اصبع اولئك الذين سيفيدون من الاضطرابات ، هذه الاضطرابات التي كلفت الشعب غالياً .

خلال اليومين اللذين تليا السادس والعشرين من كانون الثاني ، منعت الرقابة جميع الصحف من التعليق على الفاجعة . وما ان رفعت الرقابة عن الصحف حتى فضح الكاتب المعروف محمد التابعي ، في احدى

صحف المعارضة ، انفجار الحقد الذي حصل في « السبت الاسود » فقال : « كان ينبغي على المسؤولين ان يعلنوا ان سبت السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ يوم موصوم بالخجل والعار ، يوم سيبقى الى الابد حجراً اسود في حياة مصر ، وصفحة سوداء في تاريخ النهضة المصرية وكفاح البلد . لقد شهد هذا اليوم في الواقع ، الى جانب الحكومة الشرعية ، ولادة حكومة شارع اختارت لنفسها مبادىء الدم والحديد النار ... حكومة مؤلفة من عناصر يأكلها الحقد ، والنقمة والحسد ، والفوضى ، والتدمير ، والتخريب ...

« ولو ان بريطانية دفعت مئات الملايين من الليرات لدعاوتها ضد مصر لما حققت ربع او سدس ما فعلته من دعاوة ضدنا الاحداث التي وقعت خلال ذلك اليوم الاسود ، السبت في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩٥٢ ، هذه الدعاوة التي قام بها الخونة والمجرمون الذين راحوا يضرمون الحرائق ، يخربون ، وينهبون ، ويعلنون على الملأ : افرحي يا بريطانية ، ان مصر عاجزة عن تأمين النظام والامن حتى في قلب العاصمة المصرية .

« ان ما حصل في القاهرة ، لم يحصل في اية دولة اخرى متمدنة ، في اية حقبة من التاريخ ، الا في حالات الغزو والحرب :

« والا ، تفضلوا وقولوا لنا متى واين قام نفر من سكان بلد ما وراحوا يحرقون ، ويخربون وينهبون ما قدّره الخبراء الاجانب باربعين مليون جنيه ... او ما قدره الخبراء المصريون بمئة مليون ... »

ويعلن الصحفي المصري ايضاً دهشته لان التخريب والتدمير قد اصابا ليس فقط الممتلكات البريطانية ، بل ايضاً ممتلكات تعود الى ابناء دول صديقة لمصر كسويسرا واليونان ، او دول اخرى كفرنسا والولايات المتحدة . هذا بصرف النظر عما لحق بعض الممتلكات المصرية نفسها :

واما مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين اللذان طردهما الملك من

الحكم لعجزهما عن المحافظة على النظام ، فقد اتهما القصر بانه غـل ايديهما برفضه الموافقة حتى المساء ، على تدخل الجيش .

وتعليقاً على الحادث كتب جان وسيمون لاكوتور : « لو سألت أي مصري من أحرق القاهرة لاجابك فوراً بأن مسؤولية ذلك تقع على عاتق « الانجليز » ان لم تكن على عاتق « الملك » ، وان اردت ان تتخطى الظنون لتفسر ذلك بالدليل الحسي فانك لا تجد شيئاً . اين هي الوسائل ؟ واين هم العملاء ؟ بهذا الخصوص حصلنا على دليل واحد كان له علاقة بمنظمة غريبة اسمها « اخوان الحرية » وقد تأسست هذه المنظمة برعاية الأجهزة البريطانية الخاصة ، لتصرف اذهان الشبيبة المصرية عن قضية القناة ، وتشغلها بالتكتل في وجه الشيوعية . وحُلت من قبل الحكومة قبل بضعة ايام من الحريق كما نجد شهوداً يؤكدون بأن رئيس هذه المنظمة « روبير فاي » قد اختفى فجأة من القاهرة مساء اليوم الاسود ، وشوهد اعضاء عديدون من هذه المنظمة يشتركون في اعمال ذلك اليوم التخريبية وخاصة تلك التي حصلت بعد الظهر عند الاعتداء على محلات اليهود ومعابدهم . من هنا نميل الى الاعتقاد بأن الانجليز حاولوا تحويل الغضبة الشعبية المتعالية عنهم وتوجيهها ضد الاقليات ، وتقليل قيمة الحركة باعطائها صبغة عنصرية مناقضة للاهداف الوطنيـة السامية التي كان يعمل من اجلها الشعب المصري . وهنا ايضاً يلزمنا براهين اخرى لنخطو ونجزم . ومهما يكن من امر فان الذي لا ريب فيه ان البـريطانيين خرجوا بفوائد سياسية وعسكرية هـائلة من هذه الاحداث » .

وفي « مستقبل مصر » يصوّر اللواء محمد نجيب مأساة « السبت الاسود » كما يلي :

« في صباح السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ ، احتشدت الجماهير في كل انحاء القاهرة ، ولم يتخذ اي اجراء من قبل الحكومة

او القصر لمنع هذه الجماهير من الاغارة واضرام النار في المؤسسات الاجنبية والوطنية الفخمة الامر الذي ادى الى مصرع سبعة عشر اجنبياً وخمسين مصرياً . ولم تعلن حالة الطوارىء الا في الساعة الرابعة بعد الظهر ، وخلال ساعتين تمكن الجيش من تفريق المتظاهرين واعادة الامن الى نصابه .

« يعتقد البعض ان الشيوعيين هم الذين احرقوا القاهرة ، كما احرقت بوغوتا عاصمة كولومبيا بمؤامرة روسية . بينما يعتقد غيرهم ان وراء الحريق مؤامرة بريطانية او وفدية او ملكية . ومما لا ريب فيه ان متطرفين مأجورين للسفارات الشيوعية قد حرضوا الجماهير والهبوها ولكن لماذا لم يكلف الجيش اعادة النظام ؟ من الممكن ان يكون الملك وبطانته ، بالتعاون ، مع عملاء بريطانيا ، قد سعوا جميعاً لخلق وضع مقلق بالنسبة للوفد يبرر اقالة الحكومة التابعة للنحاس ، وتعليق اجتماعات المجلس النيابي ، وتشكيل حكومة ادارية فحسب تخضع لاوامر الملك . وعلى كل حال ، فقد وقع فؤاد سراج الدين في الفخ بتقاعسه عن صد موجة الاضطرابات فوراً ، وكان « السبت الاسود » بمثابة نهاية فؤاد سراج الدين ونهاية حزبه . »

وفي كتاب « ثورة على ضفاف النيل » يصف انور السادات هو الآخر حريق القاهرة فيشبه المتظاهرين « بجيش » العاطلين والناقمين الذين تجمعوا باشارة غريبة ونزلوا الى احياء القسم الاوسط :

« ان قوات البوليس عاجزة كانت ام متواطئة لم تحرك ساكناً ، وتركت المدينة للمتظاهرين ولم يدع الجيش لاعادة النظام الا حوالى الساعة السادسة مساء . وكان الضرر قد وقع ، والضباط الاحرار الذين كانوا في المدينة في ذاك النهار تلقوا الاوامر بوجوب استخدام جميع الوسائل ضد هذا العمل المضر الذي لا يفيد منه الا الاستعمار واعوانه ... »

« وبينما تركت العاصمة فريسة الفوضى : كان الملك يقيم مأدبة

في قصر عابدين ؛ ورئيس الحكومة كان بين يدي مدللته ، اذا أجزت لنفسي القول ... ووزير الداخلية كان مشغولاً بتسجيل عمارة كان قد حصل عليها . » ان هذه الملاحظة تلقي نوراً ، بل فيضاً من نور على أخلاق السلطات العليا في الدولة وسلوكها . ان التاريخ لا يقدم مثل هذا الحادث حتى في أحطّ العصور وأكثرها تقهقراً ..

« لقد تحولت الدولة في السادس والعشرين من كانون الثاني الى شبح . وفي هذا الانهيار لمؤسسات مصر الحديثة بقي جسمٌ واحد واقفاً على رجليه ، محافظاً على قواه المعنوية هو الجيش . »

وكتب المقدم كمال الدين حسين ، في مقالته عن جمال عبد الناصر قائد الضباط الاحرار ؛ في العدد الخاص عنه في « المصور » يقول :

« لقد قُصد بحريق القاهرة خلـق جو من الفوضى ، كي تتاح الفرصة لاتهام الشعب وتحميله مسؤولية التخريب والتدمير .

« لقد اجتمعنا عند حسن ابراهيم ، وقررنا ان نعجل في تنفيـذ مخططنا . وكنا متفقين ومتأكدين من ان عملنا سيلاقي التأييد الشامل :

« فوزعنا المنشور التالي :

« ايها الضباط الاعزاء ، ان الخونة الموجودين بين المصريين يعتمدون عليكم ، وعلى جيشكم ، للوصول الى أهدافهم . انهم يعتبرونكم آلة للقمع والقتل . آلة لاجبار الشعب على قبول نظام لا يريده .

« فليفهم هؤلاء الخونة ان الجيش مسؤول عن تحرير البلد وحمايته :

« لقد نزل الجيش الى شوارع القاهرة ليضع حداً لمؤامرة الخونة : ولكننا لن نقبل ان نقوم بدور السفاكين ، نسفك دماء الشعب . ولن نطلق حتى ولا رصاصة واحدة على المظاهرات الشعبية ، ولن نوقف أحداً من هؤلاء الوطنيين المخلصين . على الجميع ان يفهموا اننا مع الشعب ، اليوم وفي كل يوم :

« ايهـا الضباط الاعزاء ، ان البلد في خطر ، ويجب ان نحذر

المؤامرات التي تحاك ضده وضدكم .

« يجب ان تتعاونوا مع الضباط الاحرار الذين يعملون من أجلكم ومن أجل الشعب الذي انتم منه . »

كان الضباط الاحرار يرون في مظاهرة السادس والعشرين من كانون الثاني عملاً مزدوجاً ، فهي ولا شك من اعمال النهب والتخريب قامت بها « حثالة القاهرة » ، ومن ناحية أخرى كان الحدث حركة وطنية للاحتجاج ضد المستعمر البريطاني ، وهو ظاهرة من ظواهر الوطنية المصرية في وجه شعب اجنبي ، يفرض عليها بقوة السلاح ابقاء جنوده في منطقة القناة .

ان جمال عبد الناصر ورفاقه ، في الأساس ، ضد الوسائل الارهابية . ولكن اذا كانت المفاوضات لا تؤدي الى نتيجة ، فالارهاب يمكن ان يكون بعد اليأس من الوسائل السلمية ، السبيل الوحيد لجعل الحياة غير ممكنة بالنسبة للمستعمر البريطاني في الارض المصرية . فيجب اذن الحذر من ان يجري تحت ستار قمع السرقة والعنف سحق العناصر الشعبية التي تظاهرت ضد المستعمر ، وتخريب الخلايا الوطنية ، وتجريد فدائيي التحرير من أسلحتهم .

وأثناء التحقيق الذي دام الأشهر الطوال ، من أجل تحديد مسؤوليات التخريب في « السبت الاسود » الذي سماه بعضهم « السبت الاحمر » بدا ان عامل اضطراب هام كان يكمن وراء عودة جماعات الفدائيين الى القاهرة ، بعد ان أصبحت حالتهم لا تحتمل في منطقة القناة بسبب الاجراءات التعسفية التي اتخذتها السلطات البريطانية ضدهم . وفي العاصمة وجد عشرات الآلاف من العمال الذين بسبب اقتناعهم بالدعاوة الوطنية أو بناء لأوامر وفدية ، كانوا قد تركوا اعمالهم التي كانوا يقومون بها في خدمة المعسكرات البريطانية . وهؤلاء لاقوا صعوبات جمة لايجاد مساكن لهم ولعيالهم في القاهرة . وكانوا يقبضون من الحكومة مساعدات

أقل بكثير من الاجور التي كانوا يقبضونها في السابق من السلطات العسكرية البريطانية . وكثيرون من هؤلاء العمال كانوا قد انضموا الى جمعية الاخوان المسلمين . ويجب ألاّ ننسى ان حسن البنا كان قد أسس جمعيته في الاسماعيلية ، في جو العمال .

وبتحليلنا لروايات شهود عيان للمرحلة الثالثة من اضطرابات السادس والعشرين من كانون الثاني ، ندهش من صفات التنظيم ، والتجرد ، والتصلب ، التي بدت في عمليات الحرق المتتابعة في سرعة مذهلة .

ففي شارع قصر النيل ، أحرق محل الأدوات الرياضية الذي يملكه « روبير هوغز » ، ولما حاول بعض أفراد عصابة الحرق حمل بعض الثياب والأحذية أجبرهم رئيسهم على القائها في النار . وعندما كسر أحدهم الصندوق أجبروه على رمي حفنة الاوراق المالية التي وجدها في النار .

وفي الملاهي والمطاعم والفنادق كانت قناني الويسكي والكونياك تكسّر اذ ان الكحول محرّم على المسلمين . واذا كانت دور السينما قد نالت القسط الأوفر من التخريب فلأنها كانت تعتبر عامل افساد ، ومعرض فاضح لنساء شبه عاريات .

وأخيراً يجب التنويه بأنه اذا وقع في مدينة تعد مليونين من السكان بينهم أكثر من مئة الف أجنبي سبع عشرة ضحية فقط ، في يوم حافل بالاضطرابات الدامية كالسادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ فان ذلك يدلُّ على النزعة السلمية للشعب . ان تخريب الخمارات وأماكن اللهو والسيارات الفخمة واوتيل شبرد ، ان هو في الدرجة الاولى إلا ردُّ فعل ضد نمط من الحياة كان يبدو فاضحاً في وقت كان يناضل فيه الوطنيون المصريون نضال المستميت للتخلص من عدو قوي . انها مقاومة بين مقاتل يبدو جسدياً أضعف من خصمه . لم يكن هناك مجال بحث في معركة متكافئة حيث الضربات غير القانونية ممنوعة .

ومنشور الضباط الاحرار لا يحتج فقط على الاسلوب الذي أراد به المسؤولون ان يحولوا الجيش الى أداة « لقتل الشعب » واطلاق النار على المتظاهرين وتوقيف الوطنيين . بل يحذر الضباط من « مؤامرة الخونة » الذين يريدون ان يجبروا الشعب على قبول نظام لا يريده .

ترى من هم هؤلاء الخونـة المصريون الذين أشار اليهم منشور الضباط الاحرار ؟؟

بالطبع انهم رجال القصر ، وبطانة الملك . اولئك الذين أرادوا عن طريق حكومة علي ماهر بانتظام دقيق ان يكمّوا الحركة الوطنية – داخل الوفد وخارجه – ويعقدوا مع بريطانية اتفاقاً انتهازياً يقرّ بقاء الاحتلال البريطاني في مصر .

في العاشر من شباط سنة ١٩٥٢ اجتمعت اللجنة التنفيذيـة للضباط الاحرار في بيت قائد الجناح حسن ابراهيم وقررت ان تبدأ في الشهر القادم ، آذار ، الثورة التي كان يفرض ان تتم وفقاً للمخططات السابقة في سنة ١٩٥٥ ، إذ ان « السبت الاحمر » قد أظهر انحطاطاً وفساداً في الادارة ، أصبح البلد معها معداً لقبول تغيير شامل في النظام . فاتصل جمال عبد الناصر بالزعيم رشاد مهنا في سلاح المدفعية الذي كان سنة ١٩٤٧ قد أعد مؤامرة في الوقت الذي كان فيه رئيس الاركان العامة ابراهيم عطا الله يثير الجيش بعصبيته العائلية وتحيزه . وكانت المؤامرة قد اكتشفت على يد جواسيس عطا الله . ولكن الاثباتات الكافية لم تتجمع . وأخلي سبيل المتآمرين عند اعلان حرب فلسطين ، وعين اللواء عثمان مهدي مكان ابراهيم عطا الله .

ان رشاد مهنا ضابـط ممتاز ، تقي ، ذو نفوذ كبير في أوساط الاخوان المسلمين . وعد بأن يشترك مع جنوده فى العمل المرتقب . ثم أعلن فجأة بأنه يجب ألا يعتمد عليه لأنه نقل الى العريش ، ولا يمكنه بسبب ذلك ان يبقى على اتصال بلجنة الضباط الاحرار .

لقد اجبر هذا الحادث غير المنتظر جمال عبد الناصر على تأخير موعد تنفيذ الحركة الانقلابية لانه في الوقت الذي ستخرج فيه منظمة الضباط الاحرار من سريتها لا بد من ان يكون على رأسها ضابط كبير متقدم في السن نوعاً . يكون قبوله سهلاً على رأس الجيش ويستطيع فرض نفسه على البلد ، فاقترح جمال عبد الناصر بعد ان جس نبض عزيز المصري وفؤاد صادق على اللجنة التنفيذية اسم اللواء محمد نجيب للرئاسة.

لقد قبل اللواء العرض . ولكن جمال عبد الناصر هو الذي تابع ، بوصفه اميناً عاماً ، ادارة المنظمة السرية ولم يتعرف اللواء محمد نجيب الى الاعضاء البارزين في اللجنة التنفيذية امثال قائد الجناح جمال سالم (الذي كان يعرفه منذ حرب فلسطين) وقائد الجناح عبداللطيف البغدادي، والمقدم انور السادات ، والمقدم الاحمر خالد محيي الدين الذي كان الساعد الايمن النشيط لجمال عبد الناصر في معركة المنشورات ، الا بعد نجاح ثورة الثالث والعشرين من تموز سنة ١٩٥٢ .

وأخيراً وجد الضباط الاحرار من يحمل لواءهم . ولكن الاسابيع المهدورة بسبب تهرب الزعيم مهنا زادت من صعوبة تنظيم الثورة. اذ ان الملك فرض على رئيس الحكومة علي ماهر وعلي نجيب الهلالي فيما بعد مرتضى المراغي الذي نجح كمحافظ للاسكندرية في توطيد الامن المطلق في العاصمة الثانية ومنع كل مظاهرة وطنية في اكثر مدن مصر :

وقد كتبت في أواخر شباط سنة ١٩٥٢ في جورنـــال دي جنيف الرسالة التالية :

« لقد لاحظ مرتضى المراغي من خلال الاحداث الاخيرة ان الاتصال كان شبه مفقود بين قوى البوليس في مختلف القطاعات وبـين وزارة الداخلية ، وايقن من ناحية أخرى انه من الخطر في حالة وقوع اضطرابات في احدى مناطق القاهرة سحب البوليس من المناطق الاخرى وتحويله الى منطقة الاضطرابات . ولذلك انشأ فرقة متحركة مكلفـة

بالتدخل فوراً عند وقوع اي حادث . وشكلت نواة هذه الفرقـة في البدء من خمسين جندياً من الخيالة الاقوياء البنية والجنود المجربين المعتادين على الانتظام الكلي الذين ينفذون دون تردد كل ما يتلقونه من اوامر . ثم أدخل اليها عدداً من بوليس الاحتياط ، الذين تلقوا تدريباً خاصاً وزودوا بسيارات جديدة مجهزة بآلات لاقطة لاسلكية تتيح لهم الاتصال المباشر بوزارة الداخلية . وقد ارتفع عدد افراد الفرقة المتحركة بسرعة الى خمسمائة ، وراحت تطوف في شوارع القاهرة وفي الاسبوع الذي تلا الاضطرابات ، وبعد فترة من الوقت وصل العدد الى الالفين ، وصارت مختلف الوحدات التابعـة لهذه القوة قادرة ، ليس فقط على مراقبة مختلف احياء القاهرة ، بل ايضاً على ان تتجمع بسرعة فائقة في المناطق التي تحصل فيها اية حركة دون اللجوء الى سحب القوات العادية من الاحياء الاخرى . »

اننا نرى بوضوح الخطر يحيق بالحركة الوطنيـة المصرية ، ونميز بجلاء « المؤامرة » التي فضحتها منشورات الضباط الاحرار .

ان سياسة بريطانيـة وسياسة الملك كانتا كلاهما دائماً « فرق تسد . »

وقد نجح فاروق مؤقتاً اذ تمكن من التخلص من الحكومة الوفديـة التي كانت تتبع مخطط الوطنيين المتصلب الذي كان من شأنه ان يؤدي الى ولادة وحدة وطنية خطرة على المستعمر والملك الذي يعتمد على الرغم من انعدام الود بينه وبين بريطانية على قوات الاحتلال البريطانية لحماية عرشه في حالة وقوع اضطرابات .

ومصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين قد طردا وامسك زمام البوليس ووزارة الداخلية صنيعة من صنائع القصر واستخدم الجيش لقمع الثورة الشعبية في المهد قبل استفحالها . وبالنسبة للعلاقات مع بريطانية كانت اولى نتائج اضطرابات السادس والعشرين من كانون الثاني وقف حرب

العصابات وغارات الفدائيين في منطقة القناة ، والابقاء على العلاقات الدبلوماسية والتخلي عن الاجراءات التي تقرر اتخاذها ضد الجالية البريطانية في مصر .

ان الخدمة الجليلة التي قدمها حريق القاهرة لبريطانية تذكرنا بضربة « جرناك » التي ألحقت بعرابي باشا وكانت آنذاك دعماً معنوياً قدمته لحملة الاميرال « بوشان سيمور » البريطانية بذبح الخمسة والسبعين أوروبياً ومائتي مصري في الحادي عشر من حزيران سنة ١٨٨٢ . فقد أعدت هذه المذبحة الرأي العام العالمي لقبول خبر قصف الاسكندرية في الحادي عشر من حزيران سنة ١٨٨٢ ثم احتلال مصر على اثر ذلك : وقد جرت حسب رواية شاهد العيان السويسري آنذاك جون مينه ، واتسع نطاقها بفضل تواطؤ محافظ الاسكندرية الشركسي عمر لطفي صنيعة الخديوي توفيق مع القتلة .

ففي سنة ١٩٥٢ كما في سنة ١٨٨٢ شعر الضباط الوطنيون بأن مليكهم يخونهم وادركوا ان بريطانية تستخدمه لتوطيد اقدامها والمحافظة على بقائها في مصر .

لقد نجحت المؤامرة ، وقل تقدير الرأي العام العالمي للحركة الوطنية المصرية وانقطع اندفاع الشبيبة الوطنية ، وحاول سياسيون حذقون امثال علي ماهر ونجيب الهلالي ان يستفيدوا قدر امكانهم من الحالة المحزنة ؛ وفي رسالة الى جورنال دي جنيف مؤرخة في السادس من آذار سنة ١٩٥٢ بعد ان أشرت الى الاحتياطات التي اتخذها وزير الداخلية الجديد ليحول دون تجدد أحداث السادس والعشرين من كانون الثاني كتبت :

« ... كي تهدأ الحالة العامة وتعود الثقة من جديد الى النفوس يجب تطهير الاوضاع السياسية تطهيراً حقيقياً ، واذا نجحت الحكومة في التفاوض مع بريطانية من أجل الجلاء عن منطقة القناة ، فانها تجد امامها

كل الفرص لتثبت للبلد ان طريقتها كانت أفضل من حالة التأهب والحركة ، والحرب غير المعلنة التي سيطرت على البلاد في الاشهر الاخيرة من عهد الوزارة الوفدية .ولكن اذا لم تستجب السلطات للمطالب الوطنية المصرية فيجب ان تنتظر تجدد الحركات المعادية لبريطانية . فعلينا ان نأمل اذن من الدبلوماسية البريطانية ان تفيد من هدوء الحالة للتفاوض من اجل توقيع اتفاق تقبله الحكومة المصرية ويوافق عليه مجلس النواب» :

لقد كنت متفائلاً اكثر من اللزوم ، اذ ان الدبلوماسية البريطانية غداة السادس والعشرين من كانون الثاني كانت مقتنعة تماماً بضعف الحركة الوطنية المصرية . ولم يدر في خلدها الجلاء عن منطقة القناة .

وأما الملك فقد افرحته اقالة مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين بطريقة مزرية . ولم يفكر اقطاب الوفد طلب مساندة الجيش ضد التعسف الملكي لانهم كانوا قد رفضوا عرض التحالف الذي قدمه الضباط الاحرار في حينه .

إن عنف مظاهرات «السبت الاحمر» قد نبه فاروق وحمله في الاشهر الاخيرة التالية على ان يحول الى الخارج ما استطاع من امواله . لقد كان يستعد لانسحاب مربح امين في حالة نشوب ثورة ترغمه على ترك البلاد .

الصفحتان ٣٢١ و٣٢٢ غير موجودتان

وهى أول صفحتان من الفصل ذات العنوان

"فضائح جديدة - الضباط الأحرار يعينون موعد الثورة"



وحسين سري مثل نجيب الهلالي ، وعلي ماهر ، رجل شريف : انه مهندس ممتاز وهو خير من يشغل منصب وزير الاشغال العامة . ولكنه كرئيس للحكومة ، كان عليه ان يتصرف كسياسي ، فيستجيب لرغبة الملك في بعض الشؤون او يعارض في بعضها الآخر ، حيث يرى انه لا يستطيع ان يتساهل .

لقد قبل ان يُفرض عليه في وزارته كريم ثابت وهو صحفي قديم، كان الملك قد اتخذه مستشاراً صحفياً له . ويعتبر الوسيط الذي تمت عن طريقه المساومات السياسية والرتب والاوسمة ، وهو الذي دبر المؤامرة ضد وزارة الهلالي ، وقيل ان اقالة الوزراء المزعجين وتعيين الحفنة الحكومية الجديدة كانا مجال مساومات مالية عالية ، اذ دفعت كميات هائلة في سويسرة لحساب الرقم الخاص بفاروق .

وبسرعة لوحظ ان الملك ومحسوبيه يتدخلون اكثر فأكثر ، مقابل فوائد مادية في شتى انواع الاعمال المدنية والعسكرية ، وكانت مقررات تفرض على الوزراء ورؤساء الاقسام المسؤولين وفي اكثر الاحيان كانت ارادة الملك لا تفصح عن نفسها بالطرق العادية الرسمية . وحافظ عفيفي رئيس الديوان الملكي كان اقل اتصالا بالملك من طغمة الخدم الذين يشكلون ما يسمى « حكومة مطبخ » الملك . وعلى رأس هؤلاء كان محمد حسن فراش فاروق ، ورئيس خدمه عبد العزيز ، ثم حلمي حسين السائق الميكانيكي الذي سمي مديراً للمركبات الملكية ، وانعم عليه برتبة زعيم ، ثم ايضاً انطون بولي ، وهو كهربائي ايطالي قديم وقد اصبح مدير « اعمال فاروق الخاصة » وادمون جهلان رجل الاعمال الذي كان يستقبل تجار الاسلحة ويقوم بصفقات كبيرة ، ويوزع الرشوة على طغمة من النفعيين . وهناك ايضاً المحاسب القديم الياس اندراوس الذي اثرى في تجارة الحرير الصناعي . وقد اصبح موضع ثقة فاروق بعد قبوله الخسارة معه في القمار في نادي السيارات ؛ وكلف ان يكون المستشار

المالي لخزينة الملك . وكان فاروق بالاضافة الى كل ذلك يتأثر بطبيبه الخاص الدكتور الزعيم يوسف رشاد – الذي انتزع منه انور السادات معلومات هامة – وطياره الخاص حسن عاكف الذي قيل انه نقل في طائرته الى اوروبة عدداً من السبائك الذهبية :

وعوضاً عن ان يتصل مباشرة برئيس الحكومة ، او رئيس الديوان حافظ عفيفي ، كان فاروق ينقل رغباته او تعليماته بواسطة احد خدمه الذي يكون بالقرب منه في ذلك الوقت ، محمد حسن اذا كان في مخدعه ، وعبد العزيز اذا كان في قاعة الطعام ، وبولي اذا كان في مكتبه او في احدى الحانات او الملاهي . وعادة كان رئيس الديوان الملكي يسجل ما يقال له وينقله الى رئيس الوزراء .

وفي العاشر من تموز سنة ١٩٥٢ تلقى حافظ عفيفي مذكرة مكتوبة بقلم الرصاص بيد رئيس الخدم عبد العزيز كتب فيها : « .. يجب ان يقال حيدر في ظرف خمسة ايام اذا لم يحل اللجنة التنفيذية لنادي الضباط ويعزل الاثني عشر ضابطاً الذين يتآمرون على جلالة الملك . »

وقد نقل رئيس الديوان الملكي الى حسين سري المذكرة التي كتبت بقلم الرصاص كما تلقاها من رئيس الخدم . ورئيس الوزارة الذي لم لم يكن قد مضى على تسلمه السلطات سوى اسبوع واحد سأل حافظ عفيفي عن اسماء الاثني عشر ضابطاً غير المرغوب فيهم ، فأجابه رئيس الديوان الملكي انه يجهل اسماءهم ، ولكن حيدر قائد الجيش يجب ان يعرفهم .

وعندما استدعى الفريق محمد حيدر الى مكتب رئيس الحكومة انكر ان يكون لديه اية معلومات عن المؤامرة ، وكلف المقدم صلاح سالم بالتجسس على الضباط المشتبه بهم . انهم منضمون الى الجمعية السرية للضباط الاحرار . فأكد صلاح سالم انهم وطنيون يحاربون اللواء سري عامر لا غير وليسوا ثوريين .

كان حسين سري كسلفه نجيب الهلالي ، يرغب في تهدئة الجيش بتعيين محمد نجيب وزيراً للحربية ، كي يتحاشى اضطراره الى اختيار مرشح الملك سري عامر لهذا المنصب ، فتسلم هو شخصياً وزارة الحربية الى جانب رئاسة الوزارة . وطلب الى محمد حيدر ان يجري تحقيقات ويتخذ الاحتياطات اللازمة ، وحذره من اتخاذ أية مقررات قبل العودة اليه .

في ذلك اليوم بالذات قرر الضباط الاحرار ان يعملوا . ويقول الزعيم عكاشة في مقالة كتبها في مجلة التحرير :

« .. في العاشر من تموز سنة ١٩٥٢ جاء جمال وخالد الى منزلي ، وطلبا الي كما كانا يفعلان عادة ان اسمعهما « شهر زاد » لرمسكي كورساكوف ، وسرعان ما نشرت السمفونية سحرها في الجو . كان جمال يُصغي اليها بعيون حالمة ، وآذان مصغية . وما كادت تنتهي حتى نهض وأوقف « البيك آب » وصرخ فجأة : سنعمل في بداية الشهر القادم . وكان اليوم المختار هو الخامس من آب ، لأن الضباط يفضلون الانتظار حتى يقبضوا رواتبهم : وكانوا ينتظرون ايضاً عودة الفوج الثالث عشر للمشاة من فلسطين ، وهو الوحدة الأساسية في الحركة الانقلابية .

تهورات ملكية ورقصة الوزارات

في الخامس عشر من تموز ، ودون استشارة حسين سري ، حل الفريق محمد حيدر اللجنة التنفيذية لنادي الضباط ، اذ ان المذكرة المكتوبة بقلم الرصاص بخط رئيس الخدم عبد العزيز كانت قد أعطته مهلة خمسة ايام . من أجل ذلك كان لا يريد ان يُعزل لعصيانه تعليمات الملك . كما كان قد علم بأن الملك يستعد ليعين مكانه في القيادة العامة للجيش حسين فريد . وفريد هذا سيرسل محمد نجيب الى منقباد – الثكنة الصعيدية التي ولدت فيها حركة الضباط الاحرار – فيصبح اللوء سري عامر رئيساً للاركان .

عندئذ أعلم حسين سري فاروق ، عن طريق حافظ عفيفي ، بأنه سيكون مضطراً الى تقديم استقالته اذا كان الملك لا يسمح له في تعيين محمد نجيب وزيراً للحربية مع السلطات المطلقة لتطهير الجيش .

فأجاب الملك بمذكرة نقلها فرّاشه محمد حسن الى حافظ عفيفي وفيها يأمر : « اعزل محمد نجيب وعيّن محمد حيدر وزيراً للحربية . »

وفي ليلة التاسع عشر من تموز سنة ١٩٥٢ قدم حسين سري استقالته .

ويروي كمال الدين حسين في « المصور » بهذا الخصوص : « في اليوم السابق ، الثامن عشر من تموز ، كنا قد اجتمعنا وقررنا ان نغتال جميع الخونة المصريين ، وحددنا العشرين من تموز لتنفيذ هذا القرار ، بعد ان تحققنا من انه لن يقودنا الى شيء . ولذلك في التاسع عشر من تموز

خبرنا رأينا واتفقنا على وجوب قلب نظام الحكم . »

في التاسع عشر من تموز سنة ١٩٥٢ ، كما في عام سنة ١٩٤٥ عندما أراد انور السادات ان ينسف السفارة البريطانية بمن فيها ، وكما في عام ١٩٤٩ عندما اقترح صلاح سالم بأن يقوم كل من اقطاب الضباط الاحرار الاثني عشر بقتل شخصية من أكثر شخصيات العهد ضرراً ، كان جمال عبد الناصر هو الذي أعاد المتطرفين الى رشدهم ، وأفهمهم بأن الارهاب لا يبني شيئاً .

ويرجح ان اللواء محمد نجيب لم يستشر بهذا الخصوص في الثامن عشر أو التاسع عشر من تموز .

في العشرين من تموز أعلم حسين سري الملك الذي كان في مقره الصيفي بقصر المنتزه لدى تقديم استقالته بأن الحالة خطرة ، فالجيش كان غاضباً لحل اللجنة التنفيذية لنادي الضباط . والمنظمة السرية للضباط الاحرار التي لم يستطع ان يكشف قادتها التي كان لمحمد نجيب علاقات بها ، تتآمر لقلب نظام الحكم ، فيجب اما تقديم وزارة الحربية لنجيب وتركه يعيد تنظيم الجيش ، واما توقيفه هو واصدقاءه لتحاشي قيام عصيان مسلح .

أصر الملك على اعتبار الجيش جهازاً يديره هو بنفسه ، ويضع فيه صنائعه ليكون كله ، بأبنيته وأسلحته وذخائره ، مزوداً من قبل جماعته للاتجار والاثراء . وكان الملك منهمكاً في تشييد كلية عسكرية فخمة ، وطلب من اوروبة لأسلحة الجو والبحر والبر . أكثر الصواريخ حداثة ، كما رفع المرتبات ووزع الرتب والترقيات . واعتقد ان في استطاعته ان يضع يده من جديد على جهاز الضباط حيث يجب ان يعاد الى بعض الرؤوس رشدها .

وكي يقنع الرأي العام بأن القصر لا يعارض سياسة التطهير استدعى فاروق من جديد نجيب الهلالي الذي كان قد استقال في الثاني والعشرين

من حزيران لأن الملك أراد ان يفرض عليه سري عامر كوزير للحربية وطلب اليه ان يؤلف الحكومة الجديدة . فوضع نجيب الهلالي شرطاً لذلك إقصاء كريم ثابت وسري عامر . وكان الهلالي يرغب في اسناد وزارة الحربية الى محمد نجيب ، فعارض الملك . وتم الاتفاق على ان يتولى مرتضى المراغي وزير الداخلية وزارة الحربية بالوكالة . والمراغي هو الآخر من انصار تطهير الجيش والتعاون مع اللواء محمد نجيب :

واعتقد الملك ان هذا التدبير والتشكيلة الوزارية الجديدة ستقللان من حذر الضباط الاحرار وتيقظهم مما يجعلهم ينامون على حرير ، الأمر الذي يتيح له ان يوقع في الشرك الخطرين الذين يقدّر تأثيرهم كما ينبغي التقدير .

ويروي الزعيم عكاشه في مجلة التحرير :

« .. في العشرين من تموز كنت أتناول طعام الفطور في منزلي مع حسين الشافعي (زعيم في سلاح الفرسان ، يشغل اليوم منصب وزير الشؤون الاجتماعية) عندما رنّ جرس الهاتف الخارجي . لقد كان المتحدث احمد ابو الفتح (رئيس تحرير صحيفة المصري) وصهر الزعيم عكاشه . واعلمني من الاسكندرية ان حسين سري سيستقيل . ان الملك يريد ان يفرض سري عامر وزيراً للحربية في الوزارة الجديدة ، وان هذا التعيين سيتبعه فوراً توقيف اربعة عشر ضابطاً منا . فتوجهت الى منزل جمال عبد الناصر ، الذي كان كالعادة مكتظاً بالضباط ، وحذّرته . »

في الواقع كان حسين سري قد وقع كتاب استقالته في ليل التاسع عشر من تموز ، وفي الحادي والعشرين منه كان على نجيب الهلالي ان يرفض ادخال سري عامر في وزارته : ان فاروق كان يلعب لعبة مزدوجة ، وبما انه سيكون عليه في الثامن والعشرين من تموز ان يفرض احد صنائعه كوزير للحربية ، لذلك كان تحذير احمد ابو الفتح كالنبوءة التي دفعت المتآمرين الى تعجيل موعد تنفيذ خطتهم التي حدد

لها سابقاً موعداً هو الخامس من آب .

بعد ان نقل اليه الزعيم عكاشة التحذير ، توجه جمال عبد الناصر بصحبة عبد الحكيم عامر وحسن ابراهيم وكمال الدين حسين في العشرين من تموز الى الدارة الصغيرة التي كان يسكنها اللواء محمد نجيب في القبة بالقرب من ملهى فندق حلمية . ووجود الدارة قرب هـذا المكان العام اتاح للضباط الشباب ان يوقفوا سياراتهم قرب سيارات عشاق الرقص والموسيقى متحاشين لفت انظار البوليس لزيارتهم لبيت محمد نجيب .

قرر المتآمرون ان يعملوا في الثماني والاربعين ساعة القادمـة : فالبلاد كانت بدون حكومة ، ورجـال السياسة كانوا يستجمون في اوروبة او على شاطىء الاسكندرية . والحر كان شديداً فوق العادة ، الى درجة تحول دون قيام اي من الناس بعمل جدي او تفكير بثورة مباشرة : انهـا افضل مناسبة لاستلام الحكم ، والتخلص من الملك قبل ان يعتقل اقطاب الضبـاط الاحرار الذين بـدأ بوليسه السياسي يكشف هوياتهم :

لقد كان اللواء محمد نجيب مراقباً من اعوان الفريق حيدر ورجال القصر ، واستقر الرأي على وجوب بقائه دون ان يحرك ساكناً في دارته . وتُرك للضباط الاحرار الشباب مهمة العمل على ان يأتوا لاخذه عندما تنجح العملية .

اهتم جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين اولاً بدعوة اعضاء اللجنة التنفيذية الموجودين آنذاك خـارج القاهرة ، الى الاجتماع ومن بينهم جمال سالم ، وصلاح سالم وانور السادات . وهذا الاخير كان معسكراً في رفح على حدود فلسطين ، وأربعة من الضباط الاحرار ، لم يكونوا حتى ذلك الوقت اعضاء في اللجنة التنفيذية ألحقوا بها قبيل تنفيذ الثورة وهم : زكريا محيي الدين ، وحسين الشافعي ، وعبد المنعم امين ويوسف صديق منصور .

وهكذا صار عدد الضباط الذين اطلعوا على المخطط الثوري عشرة :

تنفيذ الانقلاب

في اليوم الحادي والعشرين من تموز سنة ١٩٥٢ كان جمال عبد الناصر يجلس بكل هدوء في مكتبه بكلية الاركان يصحح مسابقات الفحص لطلابه . وكان عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وزكريا محيي الدين يرسمون باحكام منهج العمل . ولم يكن يدور في خلد احد ان هؤلاء الضباط الاربعة الاساتذة المجدين الذين يعلّم الاول منهم فن التكنيك الحربي والاسلحة الخفيفة والثاني التنظيم النقابي واصول الاستعلامات والثالث المدفعية ؛ لم يكن يدور في خلد احد ان هؤلاء قواد ثوريون على عتبة انقلاب يطردون به اسرة مالكة مضى على تأسيسها قرن ونصف القرن . وكانت الاوامر الصادرة الى الضباط الاحرار الذين سيسهمون في الانقلاب تقضي بأن يبيتوا في منازلهم يوم ٢٢ تموز منذ الساعة الثالثة بعد الظهر في انتظار التعليمات الاخيرة .

واللواء محمد نجيب بعد ظهر ٢٢ تموز كان يدخن غليونه في « راونغ كلوب » لما جاءه احد الصحفيين ينبئه بأن الهلالي قد الف الوزارة الجديدة وسيحيله الى المعاش فور تسلّمه . وفي المساء قصده ايضاً احد الضباط الاحرار في منزله واضاف الى ما تقدم ان السلطة : « تتهيأ لاعتقال جماعة من المتآمرين على رأسهم محمد نجيب » .

وبينما كان محمد نجيب يروح عن نفسه في « راونغ كلوب » بالاسكندرية الساعة الرابعة والنصف مساءً كان اعضاء وزارة الهلالي

يدخلون الى قصر رأس التين ليقسموا يمين الولاء للملك . وفي اللحظة ذاتها التي تقدم فيها الوزراء لهذه المهمة ابصر الهلالي بدهشة الزعيم اسماعيل شيرين ينضم الى اعضاء الحكومة فسأل رئيس مجلس الوزراء الملك فاروق عما جاء يفعله الزعيم شيرين فأجاب الملك بضحكة عريضة «سيكون وزيراً للحربية»

ان اسماعيل شيرين هو صهر الملك وقد تزوج هذا الضابط الجميل الاميرة فوزية ذات العيون الخضراء التي كانت فترة ما امبراطورة ايران فضجرت من طهران وعادت الى القاهرة . انه ليس عدواً للجيش . وله فيه اصدقاء كثيرون . ولذلك اعتمد عليه الملك لاستعادة شعبيته في سلك الضباط . ولكنه لم يكن يدري انه خسر الى غير رجعة ثقة الجيش ولم يكن في امكانه ان يتصور ان اربعة عشر ضابطاً مغمورين في الليلة ذاتها سيستولون على عاصمته وانه ليس من شخص يستطيع ان يصون النظام الملكي .

وبينما كان وزير الحربية الجديد اسماعيـل شيرين يبحث مع الفريق محمد حيدر شؤون الجيش كان ثمانية اعضاء في اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار مجتمعين بالقاهرة في منزل خالد محيي الدين قريباً من مدرسة هيئة الأركان ومقر القيادة العليا للاستماع الى عبد الحكيم عامر وهو يقرأ عليهم التصميم النهائي الذي وضعه جمال عبد الناصر للخلاص من النظام البائد.

وكانت الخطة الموضوعة تقضي بأن يحتل عبد اللطيف بغدادي وحسن ابراهيم القاعدة الجوية في الماظة وحسين الشافعي وخالد محيي الدين يتوليان امر الفرسان والمصفحات ، وأحمد شوقي يأخذ على عهدته مقر القيادة العامة بمساعدة الفوج الثالث عشر والفوج الآلي الاول العامل تحت قيادة العقيد يوسف منصور . وكان على زكريا محيي الدين ان يدير الاعمال كلها ويضبطها كي لا يقع فيها خلل . كان مقرراً ان تبدأ الحركة في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، اذ أن الشوارع تكون خـالية من المارة في مثل هذه الساعة ، والضباط الكبار كذلك يكونون نائمين في أسرتهم مما يتيح أمر اعتقالهم في منازلهم . وبموجب التصميم الذي وضعه

جمال عبد الناصر على ورقة صغيرة كان يجب أولاً احتلال مقر القيادة العامة والثكنات التابعة لها ، ومن ثم الاستيلاء على محطة الاذاعة ومركز الهاتف وطرق المواصلات . وبعد ان يتم ذلك يُطلب من الملك التنازل .

ويقول جان وسيمون لاكوتور في كتابهما « مصر في طريق التقدم » ... حسب رواية ثروت عكاشه : « تفرّق أبطال الانقلاب في الساعة السادسة مساء على ان يلتقوا في منتصف الليـل . بعد ساعة أبلغ النقيب سعد توفيق جمال عبد الناصر ان رئيس الاركان العامة اللواء حسين فريد قد دعا الى اجتماع استثنائي عاجل في الساعة العاشرة ليلاً في مقر القيادة العامة . ويبدو انه تلقى من أحد الجواسيس سر المؤامرة . فعزم جمال عبد الناصر عندئذ على ان يستبق الامور بساعة وذهب بنفسه في سيارته الـ « موريس » الصغيرة التي يملكها لينبّه زملاءه الى ذلك . وفي الساعة التاسعة والنصف ليلاً ، كما يقول ثروت عكاشه جاءني شاب يرتدي بنطلوناً وقيصاً وانبأني ان بدء الحركة قد قدّم، وقال باللغة الانكليزية : « لا تدع عواطفك تتكلم يا ثروت ، ولا تتخيل نفسك في السينما . ان لدينا تسعة وتسعين بالمئة أمـلاً بالفوز.»وكان ذلك الشاب جمال عبد الناصر ».

ويضيف السيدان لاكوتور الى ما تقدم ان جمال نجح ايضاً في تنبيه انور السادات في الوقت الذي كان زميله يستعد مع اولاده للذهاب الى السينما . ولكن انور نفسه يقول انه عاد من رفح الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، ولما لم يجد اية رسالة في المنزل رافـق أولاده الى سينما مجاورة لمنزله . وعندما خرج علم بأن جمال قد مرّ بسيارته وترك له على ورقة هذه الكلمات المقتضبة : « ستبدأ الحركة هذه الليلة . الاجتماع في منزل عبد الحكيم عامر الساعة الحادية عشرة » . وما كاد يقرأ هـذه الورقة حتى قفز فوراً وارتدى ثيابه واتجه الى منزل عبد الحكيم عامر حيث لم يجد أحداً . اذ ان الانقلاب كان قد بدأ . وحسين فريد في مقر القيادة العامة كان يدرس مع أعوانه خطة لإحباطه .

أحرج ظرف في حياة جمال عبد الناصر

سأل محرر في جريدة الجمهورية الرئيس جمال عبدالناصر عن أحرج ظرف مر به في حياته فأجاب : « لقد مررت بصعوبات كثيرة في حياتي ولكن أحرج ظرف عرفته كان ليل الثاني والعشرين من تموز ، أي ليل الانقلاب العسكري . كان يجب ان نحتل مقر القيادة العليا في الساعة الواحدة والنصف من تلك الليلة ، وكان من المتفق عليه ان تلتقي جميع القوات في القيادة العـامة . ولكن في الساعة الحادية عشرة علمت ان القيادة العامة قد وصلها خبر ما اعتزمنا القيام به لأن احد الضباط الذين ينتسبون الى الحركة قد أثار ظنون شقيقه فحاول هذا ان يحجزه ، ولما فشل اتصل هاتفياً بقصر القبة وأبلغ ضابط الحرس فاتصل بدوره بضابط القصر في المنتزه ، حيث يقيم الملك السابق . وفوراً صدرت الاوامر الى الفريق حسين فريد رئيس الاركان كي يقاوم حركتنا ويقضي عليها . فاتجه حسين فريد الى مقر القيادة العامة . ومن كوبري القبة دعا جميع ضباطه ورسم خطة للقضاء علينا بسرعة .

« لقد تلقيت الخبر الساعة الحادية عشرة ليلا ، وكنت آنئذ ما أزال في المنزل ، وكنت قد اتخذت جميع الاستعدادات . وجميع الضباط كانوا في مراكزهم لتنفيذ الخطة المرسومة ؛ فلم أجد إلا وسيلة واحدة

لحل المشكلة . وعزمت على أسر رئيس الاركان العامة وجميع الضباط الذين كانوا معه قبل انتهاء مباحثاتهم والمباشرة بتنفيذ خططهم ؛ فاتجهت نحو منزل صديقي عبد الحكيم عامر حيث كان يجب ان نلتقي في منتصف الليل واصطحبته معي لتنفيذ الاعتقال . تركنا المنزل وقصدنا ثكنات قصر النيل . وهناك وجدنا سرية من البوليس العسكري ترابط على الباب ، الامر الذي لم نحسب له حساباً . وفهمنا فوراً ان الخصم بدأ العمل فاتجهنا حالاً الى مقر فرقة الفرسان . كان الباب مغلقاً ومحروساً من قبل رجال ربما كانوا ايضاً من البوليس ، فعزمنا عندئذ على الذهاب الى الماظة لنطلب المدد . وفي الطريق رأينا سيارات عديدة تتجه الى القاهرة . كان الوقت تقريباً الثانية عشرة والنصف . لم يكن كل ذلك في حسابنا اذ كان ينبغي على قواتنا ان تتحرك في الواحدة ؛ استسلمنا عندئذ للتفكير وتساءلنا : ترى هل هذه سياراتنا أم انها سيارات رئيس الاركان العامة ؟

« ولكننا أقنعنا أنفسنا بأنها سياراتنا ، لأنه ليس من الممكن ان يكون من فيها من رجاله ، لأنه لم يبدأ التنفيذ . لا شك ان أحد رجالنا قد فطن الى ما بيّت لنا فاستبق الساعة . انتظرنا على طرف الطريق حتى تصل القوات المارة الى محاذاتنا . لقد فوجئت اذ شاهدت في السيارة الاولى اللواء مكي قائد الفرقة الثانية ، وفي السيارة الثانية رأيت الاميرالاي عبد الرؤوف عابدين ، فخفت ان يكون هذان الضابطان قد انقلبا علينا وانضما الى رئيس الاركان . وفجأة ، وفي لحظة خاطفة ، طُوّقنا ، عبد الحكيم عامر وانا ، من قبل خمسة ملازمين يحملون المدافع الرشاشة ، وأمرونا بأن نرفع ايدينا فوراً وبألا نتحرك ..

« كانت تلك اللحظة لا ريب أحرج ظرف في حياتي .. لقد تبادر الى ذهني ان الخطة التي أحكمنا وضعها قد فشلت مع الاسف . ولكن لحسن الحظ بعد فترة وجيزة سمعت البكباشي يوسف منصور يناديني من

السيارة الثالثة لينبئني بسرور ظاهر انه قد أسر قائـد الفرقة ومعاونه وحجز جميع السيارات التي صادفها في طريقه . ثم نزل من السيارة وتقدم مني وأخبرني ان جميع الرجال الذين رافقوه أول الأمر لم يزيدوا على الثمانين ، لأن الباقي كان في فلسطين .

« عندئذ فقط فهمت أنه بدأ سيره في منتصف الليل ، أي قبـل الموعد المحدد بساعة واحدة ، ولم يبق أمامنا سوى حـل واحد هو احتلال مقر القيادة العامة بهـذه الفرقة التي تحت امرتنا ، فاتجهنا نحو جسر القبة وباشرنا في تطويق الساحة في الدقيقة الخمسين بعد منتصف الليل ، أي اربعين دقيقة قبل الوقت المتفق عليه .

لم نكن نعرف في ذلك الحين ماذا كان يجري في الامكنة الاخرى : ترى هل كانت القوات الباقية تقوم بما كلفت بـه ؟؟ومع ذلك جمعنا قواتنا وهاجم عبد الحكيم عامر ويوسف صديق والضباط الشجعان مع ثلاثين جندياً مقر القيادة العليا . وكان الباب الحديدي مقفلاً ، فما كان من الضباط الذين كانوا في الداخل الا أن أطلقوا النار علينا . ودامت المعركة اربعين دقيقة تقريباً .

« اثر ذلك بدأت قوى الفرسان تنهار ، وفي الساعة الواحدة والنصف كان مبنى القيادة العليا في حوزتنا واعتقل جميع الذين كانوا فيه :

« **لقد كان ذلك العمل بداية الفوز وانتصار الثورة التي شقت طريقها برعاية الله ..** »

صُدفة العِناية

يقول جمال عبد الناصر وأنور السادات معاً انه في الساعة الحادية عشرة مساء لا قبلها أعلما بأن رئيس الأركان حسين فريد قد تلقى نبأ الانقلاب الذي تُعده حركة الضباط الأحرار . وفي هذه الساعة الحرجة بعد ان عرف النبأ الخطير اتجه جمال نحو منزل صديقه عبد الحكيم عامر . ولما التقى برتل السيارات الذي يقوده العقيد يوسف منصور تساءل اذا كان الحدس الداخلي قد امر احد الضباط الاحرار باستباق الموعد المحدد ساعة كاملة ومن ثم قال : « عندئذ فقط فهمت ان يوسف منصور انطلق قبل الموعد المعين بساعة » . ان جمال لم يتمكن من الاتصال بأعوانه لتقديم الموعد وصدفة العناية هي التي دفعت الى ذلك .

وفي مجلة « البورص اجيبسيان » يروي العقيد حسين الشافعي فيقول: « لقد اتفقنا على ان نأتي الى ثكناتنا قبل منتصف الليل كي لا نفضح حركتنا . وانا شخصياً قد وعدت الضباط العاملين معي في الفرسان على الالتقاء الساعة الحادية عشرة . ولما كان من المستحيل ان اتصل بهم لأبلغهم آخر الاوامر ، لذلك كان علي ان اذهب اليهم في الساعة المحددة . كانت الانوار في الثكنة مطفأة ، ولم يبدُ ذلك لي فألاً حسناً . وبالاضافة الى ذلك كانت سيارة ورائي تتعقبني كل الطريق .

وازداد قلقي لما علمت ان رئيس الأركان قائد المصفحات قد جاء الى مقره الساعة الحادية عشرة والربع . لقد ظننت ان حركتنا قد عرف امرها ، ومع ذلك لم اجد سبباً للتراجع ، لأن كل تراجع او تأخر كان يعني القضاء علينا . وعلى الرغم من الانوار المطفأة نفذت خطتنا ونجحت بفضل الله الذي كلل مساعينا بالفوز الكامل » .

ان حسين الشافعي بروايته تلك يؤكد ان موعده مع زملائه في فرقة الفرسان كان الساعة الحادية عشرة . كان يخشى ان لا يلقاهم اذا تأخر الموعد الى منتصف الليل . وهذا ما سبب انهيار رئيس الأركان حسين فريد وأعوانه الذين كانوا يبغون القضاء على حركة الضباط الأحرار .

قد يقول قائل : ان ساعة الى الأمام او الى الوراء لا تقدم ولا تؤخر ، ولكن هذا القول في احداث خطيرة كهذه له اهميته القصوى . وقد اوردت النصوص التي تتعلق بذلك للدلالة على الصعوبة التي يلاقيها المؤرخ في ضبط الأحداث حتى لو كانت معاصرة .

في سنة ١٩٤٢ عندما قامت القوات البريطانية بضغطها المعهود على الملك فاروق أثارت بذلك القسم الأعظم من ضباط الجيش المصري ولكن احداً منهم لم يتحرك بالفعل لحماية الاسرة المالكة . اما في سنة ١٩٥٢ لما دخل عبد الحكيم عامر وأحمد شوقي والمسدس في يد كل منهما الى مكتب رئيس الأركان حسين فريد ، حاول هذا الاخير ان يقاوم وأطلق ثلاثة عيارات نارية من مسدسه دون ان يصيب احداً . ولم يسقط في هذه المقاومة القصيرة التي حدثت في الأركان العامة حيث كان يوجد عدد كبير من الضباط سوى جنديين عاديين .

لقد استطاع جمال عبد الناصر في تلك الليلة الدرامتيكية ان يحتفظ بهدوء اعصابه وواقعيته . ان الثورة التي هيأها لتنفذ سنة ١٩٥٥ قد قرّب موعدها اضطراراً . ومجرى الأحداث دفع الى ذلك ، كان يعمل

بهدوء وصبر موسعاً حركة الضباط الأحرار : ولكن انتشار المنظمة في صفوف الجيش قد لفت انظار عيون الملك وجواسيسه الذين بذلوا جهوداً جبارة لاكتشاف قادتها الحقيقيين : وكان لا بد لسلامة الحركة من استعجالها وتقديم ساعة الصفر عدة ايام ومن ثم ساعة واحدة لتسبق البوليس الحربي ، وتنجو من شباكه التي نصبها لتهديم جهود دامت سنوات طويلة . لقد بلغت حراجةُ الأحداث ببعض الضباط الاحرار درجة كادت تدفعهم الى الخروج عن طورهم والارتماء في احضان الارهاب : ومع ذلك ظل جمال عبد الناصر هادىء الأعصاب وقاد الانقلاب الى اكثر الظروف مناسبة ليكتب له اوفر حظ من النجاح :

العسكريون يخلعون الملك

في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم الثالث والعشرين من تموز سنة ١٩٥٢ اتجهت سيارة مصفحة الى دارة اللواء محمد نجيب بالحلمية ، كان يجب ان يرأس مجلس الثورة الذي طلب من الملك ان يكلف علي ماهر تأليف حكومة جديدة .

في ٢٤ تموز تألفت الوزارة الجديدة :

وفي ٢٥ منه أعلن علي ماهر ان الملك قد وافق على المطالب الاولى التي يريدها الجيش فعين اللواء محمد نجيب قائداً أعلى للقوات المسلحة مكان حيدر باشا ، وأقصي عن البلاط حافظ عفيفي وكريم ثابت والدكتور يوسف رشاد وقائد الجناح حسن عاكف والياس اندراوس وانطون بولي ومحمد حسنين . في الوقت ذاته كان رتل من السيارات المصفحة يندفع نحو الاسكندرية بقيادة العقيد زكريا محيي الدين :

وفي صباح اليوم التالي كان يطوّق قصري رأس التين والمنتزه :

وفي ٢٦ منه كلف علي ماهر ان يبلغ الملك فاروق الانذار التالي :

« نظراً للفوضى السائدة التي تخبطت فيها البلاد في الآونة الاخيرة والتي امتدت الى جميع الحقول والميادين بسبب ادارتكم السيئة وافتئاتكم على الدستور وامتهانكم لارادة الشعب ؛ حتى ان كل مواطن لم يعد مطمئناً

الى حياته وممتلكاته وكرامته . وبما ان الاستمرار في هذا السبيل يسيء الى سمعة مصر بين الامم . وبما ان الخونة والمستغلين ما زالوا يجدون في رعايتكم الحماية لجمع ثروات غير مشروعة على حساب الاموال العامة في وقت تردى فيه الشعب فريسة للبؤس والجوع .

وبما ان هذه الفضائح قد اتضحت وبرزت خلال حرب فلسطين في المتاجرة بالاسلحة والذخائر الفاسدة ، والاحكام التي اصدرتها المحاكم بهذا الخصوص ، حيث كشف تدخلكم في المحاكمة لانقاذ المتهمين ، الامر الذي هزّ العدالة وشجع الخونة على متابعة خيانتهم وأفسد الآخرين لذلك انتدبني الجيش الذي يمثّل قـوة الشعب كي اطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لمصلحة ابنكم ولي العهد احمد فؤاد في هذا اليوم ذاته السبت ٢٦ تموز ١٩٥٢ ومغادرة البلاد فوراً قبل الساعة السادسة مساء . ان الجيش يحمّل جلالتكم مسؤولية النتائج الناجمة عن رفضكم الانصياع لارادة الشعب .

القائد الاعلى للقوات المسلحة
اللواء أركان حرب
محمد نجيب

تسلم الملك فاروق هذا الانذار وبحث مطولاً مع علي ماهر الذي رغب اليه في ان يسرع بالتنازل . وفي اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار بذل جمال عبد الناصر جهده كي يكتفي زملاؤه بطـرد الملك ، لان نصف الاعضاء كانوا يرون في ان فاروق الذي خان شعبه يستحـق الموت . وفعلاً قد بعث الملك من الاسكندرية الى فايد حيث قائدالقوات البريطانية بمن ينبئه بأن الضباط الاحرار قد ضربوا ضربتهم . وخوفـاً من ان يحدث لفاروق ما لا يرضي جـاء جفرسون كافري سفير الولايات المتحدة الى قصر رأس التين ورافق فاروق مع علي ماهر في ساعاته الاخيرة .

وفي الساعة السادسة صعد فاروق الى ظهر يخته المحروسة بعد ان ارتدى الثوب الابيض للاميرالية البحرية وتبعته الملكة ناريمان تحمل الملك الطفل احمد فؤاد الذي كان عمره آنذاك ستة اشهر .. فاطلق عندئذ طراد مصري كان في المرفأ احدى وعشرين طلقة بينما كان العلم الملكي ينزل عن سارية القصر ..

وعندما رفع اليخت مرساته وصلت سيارة جيب كانت تشق طريقها بكل صعوبة وسط الجماهير الزاخرة التي كانت تحتفل بولادة النظام الجديد . انه اللواء محمد نجيب وقد جاء يودّع الملك الذي خلع قبل سفره ...

ويقول جان وسيمون لاكوتور في كتابهما « مصر في طريق التقدم» ما كادت السيارة تصل حتى ترجّل منها اللواء محمد نجيب وزملاؤه احمد شوقي وحسين الشافعي وجمال سالم وتقدّموا باحترام من الملك فاروق الذي كان يستند الى درابزين اليخت وذكّره آنئذ محمد نجيب باستقالته التي قدّمها في شباط ١٩٤٢ عندما ارغمه مايلز لامبسون بالقوة على تأليف حكومة النحاس تدليلاً على وفائه للعرش فبدت امارات التأثر على وجه الملك على الرغم من نظارته السوداء التي كان يحجب بها عينه وقال للضباط « اعتنوا بالجيش » فاجابه محمد نجيب : « انه الآن في عهدة أيد نظيفة يا صاحب الجلالة » . ويبدو ان الجواب لم يرق لفاروق فقال : « سأبادلكم بالمثل » :

وبينما كان خليفة محمد علي الذي أساء سياسته كملك يلقي آخر نظرة على مصر مع غروب الشمس ، كان في القاهرة ضابط شاب في الرابعة والثلاثين من عمره يستعد ليتسلم بيديه ادارة بلاده :

لقد ترأس علي ماهر الوزارة الانتقالية حتى ايلول سنة ١٩٥٣ ، وبعد ذلك جاء محمد نجيب نفسه وألف حكومة ملكية دامت حتى الثامن عشر من حزيران سنة ١٩٥٣ :وفي هذا التاريخ تألفت حكومة جمهورية

برئاسة اللواء محمد نجيب تولى فيها جمال عبد الناصر المركز الثاني . ولم يصبح رئيساً للوزراء إلا في نيسان ١٩٥٤ وفي الحكومتين كان جمال عبد الناصر هو الموجه الفعلي لمصر في طريق الثورة التي حلم بها واعدّها منذ فتوته ...

ان جمال عبد الناصر منذ قرأ فولتير وديكنز ومنذ درس سيرة النبي العربي محمد (صلعم) والخليفة عمر بن الخطاب ويوليوس قيصر ونابليون بونابرت ، ومنذ كان طالباً يفتش عن المقالات الوطنية لمصطفى كامل، كان يؤمن بأن الامة العربية تنتظر قائداً ينقذها . فلماذا لا يكون هو ذلك القائد ؟؟

لقد عمل حتى الثالث والعشرين من تموز سنة ١٩٥٢ بصبر لاستلام السلطة . ومنذ الانقلاب العسكري بدأ يزاولها مباشرة او بالواسطة ؛ والمسؤوليات التي حملها مع رفاقه كانت ولا تزال ضخمة هامة. وهؤلاء إن اخطأوا حيناً فقد اصابوا احياناً كثيرة وتشفع لهم حيويتهم الدافقة ؛ ماذا هدم جمال عبد الناصر ، وماذا بنى خلال السنوات السبع التي مرّت على مصر في عهدها الجديد ؟؟

ان الجواب على هذين السؤالين سيأتي مفصلاً في كتاب آخر ما زلت اعمل على تأليفه وآمل ان أوفق في وصف ما حققه الرئيس جمال عبد الناصر لشعبه باذن الله ؛

الفهرست



الخطأ والصواب

•

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٨	مستطاع مؤلفاتهم	مستطاع في مؤلفاتهم
٧	١١	نقلاب	انقلاب
٧	٢٢	مل أجل	من أجل
١٠	٢٤	الاركان	القيادة
١١	٢٤	رئيساً للاركان العامة	قائداً عاماً
١٢	١	يلعبه	يقوم به
١٣	٣	يرئس	يرأس
١٦	١٢	اخمين	اخميم
١٧	٤	سد الدلتا	القناطر الخيرية
١٩	٥	ملاوي	ملّوي
٢٣	١٥	كتفى الغزاة	اكتفى الغزاة
٢٤	٢٢	الفيون	الفيوم
٢٤	٢٢	اشمونين	الاشمونية
٢٤	٢٢	بطلمايس	بطليموسية
٢٤	٢٣	قرقه	قرنه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥	٩	تلهينت	تلهنت
٢٦	٣	فيلاي	فيلة
٢٦	١٨	سيروس	كيروس
٢٦	٢١	لبيزنطية	لبيزنطة
٢٧	٦	بلبيانس	بلبيس
٣٠	٥	بدرى وتازا	البداري – تاسا
٣٠	٦	اخمين	اخميم
٣٠	١٨	« تيبابيد »	« طيبة »
٣٠	٢١	اخمين	اخميم
٣٠	٢١	شانودا	شنوده
٣١	١١	الغبراوي	الجبراوي
٣١	١٢	ديوكليسيان	دقلديانوس
٣١	١٦	ديوكليسيان	دقلديانوس
٣٢	٢	ديوكليسيان	دقلديانوس
٣٧	١٥	مسألة ابناء	مسألة دخول ابناء
٤١	العنوان	وثلاث مساجد	وثلاثة مساجد
٤٤	١٤	نبع	سبيل
٤٦	١٥	سربه	رهطة
٥٧	٥	التنالازت	التنازلات
٥٨	العنوان	في حي باب الشرقية	في حي باب الشعرية